

العاقبة

في ذكر الموت والآخرة

تأليف

الإمام أبي محمد عبد الحق الإشبيلي

٥١٠ - ٥٥٨١ هـ

تحقيق

الشيخ خضر محمد خضر

العالية لكلية الشريعة بأرزهر - ليسانس
العالية مع إجازة التدريس بالأزهر - ماستير

مكتبة دار الأقصى
الكويت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٦ م - ١٤٠٦ هـ

مكتبة دار الأقصى

حولي/ شلوع تونس - مجمع الرميح - ميزانين
تلفون: ٢٥٤٠١٠٩ ص.ب ٢٨٢٣٩ الضاحية، الكويت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي لا يموت ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور.

وأشهد أن لا إله إلا الله جعل الموت نهاية كل حي ، وقال في محكم كتابه اينها تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة .
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، حث على ذكر الموت والاتعاظ به فقال : أكثروا ذكر هادم اللذات .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وتابعيه الذي عملوا لما بعد الموت ففازوا بسعادة الدنيا ورضوان الله في الآخرة .

وبعد فإن الموت حق ، وهو الحق المكروه ، وقد ألف العلماء كثيرا من الكتب في الموت وما بعده من البعث والحساب وأمور الجنة والنار ، وأحوال الناس فيها .

ومن هذه الكتب :

١ - كتاب البعث والنشور لأبي عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة

٢٤٣ هـ .

٢ - كتاب البعث لأبي بكر عبدالله بن أبي داود السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥

هـ .

٣ - كتاب البعث والنشور لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨

هـ .

٤ - كشف علوم الآخرة لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥

هـ .

- ٥ - كتاب ذكر الموت وما بعده ضمن كتاب إحياء علوم الدين لابي حامد الغزالي أيضا طبع .
- ٦ - الثبات عند الممات لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ هـ .
- ٧ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة لأبي عبدالله القرطبي المتوفي سنة ٦٧١ هـ وهو مطبوع .
- ٨ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لمحمد بن قيم الجوزية المتوفي سنة ٧٥١ هـ وهو مطبوع .
- ٩ - أهوال القبور لعبدالرحمن بن رجب الحنبلي المتوفي سنة ٧٩٥ هـ وقد حققه السيد محمد مصطفى القضاة .
- ١٠ - التخويف من النار لابن رجب أيضا وقد طبع .
- ١١ - البدور السافرة عن أمور الآخرة لجلال الدين السيوطي المتوفي سنة ٩١١ هـ .
- ١٢ - البعث للضياء محمد بن عبدالواحد المقدسي .
- ١٣ - التثبيت عند التثبيت للسيوطي أيضا وقد تكون هناك كتب أخرى تحدث عن الموت وأمور الآخرة، وما ذكرته هنا إنما هي نماذج .
والحق أن أمر الموت لعظيم وجدير أن يؤلف فيه الكثير كي يعرف المسلم ما يكون من أمره عند الموت وبعده، فيستعد لرحلة الآخرة ويكثر من العمل الصالح الذي ينفعه في دار البقاء حيث هناك جزاء ولا عمل وفي دارنا هذه عمل ولا جزاء .
وكان ممن ألف في ذكر الموت والآخرة أبو محمد عبدالحق الإشبيلي فكان كتاب العاقبة هذا .



ترجمة المؤلف

عبدالحق الإشبيلي^(١)

نسبه وحياته :

هو أبو محمد عبدالحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدي الإشبيلي المالكي ، وقد عرف أيضا بابن الخراط .
ولد عبدالحق سنة عشر وخمسةائة للهجرة الموافقة لسنة ست عشرة ومائة وألف للميلاد .

(١) له ترجمة في المراجع التالية :

- ١- الاعلام : خير الدين الزركلي ٥٢/٤
- ٢- بغية الملتمس : احمد بن عميرة الضبي ٣٧٨
- ٣- تاريخ الأدب : العربي كارل بروكلمان ٣٧١/١
- ٤- تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي ١٨٣
- ٥- تذكرة الحفاظ : ابو عبدالله الذهبي ١٣٩/٤
- ٦- تكملة الصلة : عبدالواحد المراكشي ٦٤٧
- ٧- تهذيب الأسماء واللغات : محيى الدين النووي ٢٩٢/١
- ٨- الديباج المذهب : ابراهيم بن فرحون المالكي ١٧٥
- ٩- سير النبلاء : ابو عبدالله الذهبي
- ١٠- شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي ٢٧١/٤
- ١١- العبر : ابو عبدالله الذهبي ٢٤٣/٤
- ١٢- عنوان الدراية : الجبريني ٢٠/٣
- ١٣- فوات الوفيات : ابن شاکر الکتبي ٥١٨/١
- ١٤- كشف الظنون : حاجي خليفة ١٩ ، ٢٠ ، ٤٨١ وغيرها
- ١٥- مرآة الجنان : عبدالله اليافعي ٤٢٢/٣
- ١٦- معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ٩٢/٤
- ١٧- الوفيات : ابن قنفذ

كان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلمه ورجاله ، مشاركاً في اللغة والأدب
وقول الشعر.

نزل بجاية بالجزائر زمن فتنة الاندلس ، فبث بها علمه وصنف
التصانيف ، وولي الخطبة والصلاة بها .

كان موصوفاً بالخير والصلاح والزهد والورع والتقلل من الدنيا .
توفي رحمه الله في بجاية بعد محنة نالته من قبل الولاية ، وكانت وفاته في
أواخر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة للهجرة الموافقة لسنة خمس وثمانين
ومائة وألف للميلاد .

روى عن شريح بن محمد وأبي الحكم بن بركان وغيرهم ، وروى عنه أبو
الحسن المعافري .

كتبه :-

ألف عبدالحق الإشبيلي نحو ستة عشر كتاباً هي :-

- ١ - الأحكام الشرعية الكبرى في ستة مجلدات .
- ٢ - الأحكام الشرعية الوسطى .
- ٣ - الأحكام الشرعية الصغرى .
- ٤ - تلقين الوليد .
- ٥ - التهجد .
- ٦ - التوبة .
- ٧ - الجامع الكبير في نحو عشرين مجلداً .
- ٨ - الجمع بين الصحيحين .
- ٩ - الوافي في اللغة .
- ١٠ - الرقائق .
- ١١ - الزهد .
- ١٢ - العاقبة في ذكر الموت وهو هذا الكتاب .

- ١٣ - الغريب في لغة القرآن والحديث .
١٤ - مختصر كتاب «اقتباس الأنوار» لمحمد الرشتكاني .
١٥ - المستصفى في الحديث .
١٦ - المعتل من الحديث .

كتاب العاقبة

هذا الكتاب يبحث في الموت والاستعداد له وعلاماته وتلقين الميت وسؤال القبر وعذابه ، والبعث والنشور والحشر والصراط والميزان ، وأحوال أهل الجنة ، وأحوال أهل النار وفي الشفاعة ، وفي الخلود .
وقد قسم المؤلف كتابه إلى اثنين وعشرين بابا ومقدمة طويلة في الحديث عن الموت وهجمته الشرسة ، وبغته القاصمة .
أما أبواب الكتاب فقد جاءت على النحو التالي .
باب من أخبار بعض الأموات عند الموت ، ما يستحب من أحوال الميت عند الموت ، الجنائز وفضل اتباعها ، الثناء الحسن علي الميت ، ما يقال عند حضور الميت ، وما يحذر من سوء الخاتمة ، تلقين الميت والدعاء له ، القبور ، زيارة القبور ومعرفة الميت من زاره ، منامات لبعض الصالحين ، منامات رثيت لبعض الأشرار الأرواح وعذاب القبر ، القيامة وأهوالها ، النفخ في الصور ، البعث من القبور ، الحوض ، الشفاعة الأولى ، المحاسبة ، الشفاعة الثانية ، صفة أهل الجنة ، صفة أهل النار ، الخلود .



مخطوطات الكتاب

- (١) نسخة بمكتبة الاحقاف بتريم باليمن الجنوبية، صورها معهد المخطوطات العربية بالكويت. عدد أوراقها ثلاث وتسعون مقاس $١٧,٥ \times ٢٥$ في الصفحة سبعة وعشرون سطرا، معدل كلمات السطر خمس عشر كلمة.
- (٢) كتبت سنة ثمانمائة وست وعشرين للهجرة. وقد رمزت إليه بحرف «ي». نسخة بمكتبة الأزهر. عدد أوراقها مائتان وخمس وعشرون مقاس ١٥×٢٠ سم، في الصفحة سبعة عشر سطرا بمعدل اثني عشرة كلمة في السطر.
- (٣) كتبت بخط نسخ قديم بخط أحمد بن علوي بن حمزة الحنبلي سنة ثمانمائة وخمس عشرة للهجرة. وقد رمزت إليها بحرف «ز». نسخة بمكتبة شستربتي في مدينة دبلن بايرلندا، عدد أوراقها مائة وثمان وثلاثون، مقاس ١٤×٢٠ سم. في الصفحة ثلاثة وعشرون سطرا بمعدل احدى عشرة كلمة في السطر صورتها مكتبة المخطوطات بجامعة الكويت.
- كتبت سنة سبعمائة وثلاث وعشرين للهجرة. وقد رمزت إليها بحرف «ش».
- (٤) نسخة بمكتبة ليدن بهولندا رقم ٢٠٠٨ عدد أوراقها مائتان واحدى سبعون ورقة، مقاس ١٨×٢٦ سم في الصفحة خمسة عشر سطرا، في كل سطر إحدى عشر كلمة، الخط اقرب إلى النسخ ورمزها «ل».
- (٥) نسخة بمكتبة برلين بالمانيا رقم ٢٦٥٢. عدد أوراقها مائتان وثلاث وتسعون.

- (٦) نسخة بمكتبة بني جامع بتركيا رقم ٧٢٥ .
- (٧) نسخة بمكتبة آق حصارزين الزادة بتركيا رقم ٩٣ عدد أوراقها مائة وثمان وستون . كتبت سنة ثمانمائة وخمس عشرة هـ .
- (٨) نسخة بمكتبة با يزيد عمومي بتركيا رقم ١٥٢٣ عدد أوراقها مائة وعشر كتبت سنة ثمانمائة وأربعين .
- (٩) نسخة بمكتبة أحمد الثالث الملحقه بطوبوقبوسراي بتركيا رقم ١٥٤٦ عدد أوراقها مائتان وتسع عشرة مقاس ٢٥×١٧ .
- (١٠) نسخة بمكتبة خزينة الملحقه بطوبوقبوسراي بتركيا رقم ٢٤٢ عدد أوراقها مائتان واثنتان وعشرون مقاس ٢١×١٦ .
- (١١) نسخة بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٢٣٥ عدد أوراقها مائة وثلاث عشرة مقاس ٢٠×٢٨ سم .



عملي في التحقيق

- ١ - كانت الخطوة الأولى هي الحصول على مخطوطات الكتاب ولم يكن ذلك سهلاً.
 - ٢ - قارنت بين النسخ الخطية وأثبتت الفروق الجوهرية فيما بينها. أما الفروق البسيطة فقد تركناها لعدم أهميتها ومن هذه الفروق التي لا يؤبه لها أن تكون في نسخة «قال الله تعالى» وفي أخرى «قال الله عز وجل» وفي ثالثة «قال جل شأنه» ونحو ذلك.
 - ٣ - دققت الآيات القرآنية الكريمة وعزوتها إلى أماكنها في المصحف.
 - ٤ - خرجت أحاديث الكتاب بالرجوع إلى كتب السنة وقد وجدت أن أكثر ما ذكره المؤلف يدخل ضمن الأحاديث الصحيحة أو الحسنة، أما الأحاديث الضعيفة فهي قليلة جداً بل نادرة.
 - ٥ - رقمت أبواب الكتاب حيث لم تكن مرقمة.
 - ٦ - شرحت بعض المفردات والتراكيب الصعبة.
 - ٧ - ترجمت للمؤلف وذكرت كتبه وأحصيت مراجع ترجمته وبالجملة فقد بذلت قصاري جهدي في إخراج الكتاب على النحو المطابق لأصوله الخطية. سائلاً المولى العلي القدير أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يوفقنا لخدمة تراثنا الإسلامي العظيم والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.
- الكويت في الخامس عشر من ذي الحجة سنة ١٤٠٤هـ
الموافق العاشر من سبتمبر سنة ١٩٨٤م

خضر محمد خضر

بسم الله الرحمن الرحيم وبه تعقني ذاك الشيخ الامام الاوحد الزاهد
 ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الازدي الاشيلي المالكي رضي الله
 عنه (الذي اذل باهوت رقاب الجبابرة) ولسر بعد مته ظهوره الاكاسره
 وقصر بعثته امال القياصر الذي ادار عليهم حلقته الدابره واخذهم بيد
 القاهرة فقد فهم في ظلمات الحافرة وصبرهم بها رهنا الى وقفة الساهرة فاصبح
 قد خسر الدنيا ولم يحصلوا على شيء من الاخرة ^{وكان} والله لا يخبر مصابها
 ولا يتبرع صاحبها ولا تنقضي الايام وانقباضها لم يمنهم ما حصلوا من المعاقل
 والحصون ولا احوضهم ما بغتوه من العراس والعيون ولا فداهم من ريب
 المنون ما دخره من علق مصون وذهب مخزون بل صعد مهم بركنه الشنة
 وصبح بجيشه اللد يد وانفذ فيهم ما كتب عليهم من الوعيد نقلم من لين للهوى
 الى خشونة اللحد وصيرهم بين حجرها المنضود وجند لها المعقود ^{الكلال} للهدم
 طعما للدد ونظر بهم بعينه الشرسا وارسل عليهم كتبه الخرسا فاذل عزيم
 المتعسا وابدل من نعمهم باسا وانطق بالعويل السنة خرسا وصيرهم حمتنا
 يذكرك على همر الزمان ولا ينسئ تركوا عن الاراتك والكلال والاسرة والحال الى
 الحارة والرمال والاباقم والصدال وشظف التيش وضيق المجال وخلوا برفع
 غير مجال بحيث لازوال والانتقال ولا عشرة تقال ولا يشج فيهما مقال ولا
 يلتفت عند ما من قال ارسل عليهم ربك جنود العاقية واخذهم
 اخذته الراية وسلك بهم مسلك الامم الخالية والقرون الماضية
 فهل تخس منهم من احد او هل لهم من باقيه وفخيم قبل وفي امثالهم
 حدث حديث القوم من فارس ومن بني قبط وبنو نانب
 ومن بني الاصفرا عجب بهم وسيد الا تراك خاقان
 والامد مين الاعظمين الاولي ومن حمير ابناء محطاب
 من تبع العرب ومن قاصر الروم وكسرى ال ساسان
 من كل قوم شاخ ^{من} نفسه وكل فرعون وهامان
 في ان نسيت اليوم شيئا فلا تنس نساء الخت كلدان
 واذكر ملوك الارض من بعدهم من عروب صعد وعجمان

الى

الورقة الاولى من مخطوطة مكتبة الاحفاف بتريم - اليمن الجنوبية

من كل منصوب الورى اذ يع
مجمع الشمال على عز
فقد انزل الارض وراع الورى
وذلل الارض بسلاطنته
انظر اليهم هل ترى منهم
وانظر الى الموت واعماله
وتبصر الظفر من وما والقوا
قد صفحتهم يده صفحة
وذكر في الارض بتيجانهم
من حجر صلب ورحق ومن
وانزلوا ليطعن الذي بجذوا
واطمع الذي ان لهما لهم
فلم هناك من فتى ناعن
ومن هزبر مرخ في الوغا
كانوا لدا ثم اعتدوا عبدة
ولم يرفع عنهم حنظل
ولا نبوت ملئت كلها
بل مترد لم كلته متسرعا
واصبح الملك لمن ملكه
سبحان من تفرد بالعزة والكرام
وطوق عباده بطوق الفنا وفرخص
والشقاء وجعل للوت فخالصا لا وليا لله السعداء
لا عمل لله الا شفاء
واخرج طريقا فيهم اليه فريضا لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون
سبحان الذي بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون واشهد

سليل اطلقوا و سحاب
شدت باساس واركان
من يمشيه الضخم بطوفان
كانه رب لهم ثبات
غير احاديث بافتات
فيهم ترى الملك بمرهان
بالوت من دل وحسرات
خر والانا في واجبات
والبسوا تيجان صبات
ترب ومصصاء وصيدان
كانوا يعود افوق كجوان
يا لك لحي من لحم وخذ اية
ومن فتاة ذات ابن وكن
وطيرة تسرح في باطن
لنا زح الدار والذرات
قد طبق الارض بفرسان
من لؤلؤ حبت وعقبات
كالر من موت بين قضبان
باق وكل غيره فان
سبحان من تفرد بالعزة والكرام
وطوق عباده بطوق الفنا وفرخص
والشقاء وجعل للوت فخالصا لا وليا لله السعداء
لا عمل لله الا شفاء
واخرج طريقا فيهم اليه فريضا لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون
سبحان الذي بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون واشهد

الخلق

واصله
حقيقا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ الْفقيه أَبُو محمد عبد الحق
 ابن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الأشعري ما نقلنا في كتابنا الذي ذكرنا
 قبا الجارية وكسر يدها من العود وفضلت عنه أمال القاصدة الذ
 اوار عليهم حلقه الدائرة واتخذ من العود فاصغر قد حصر والذ
 ولم يحصلوا على شيء من الأثر من العود ولا غيره من غيرها
 ولا يجتمع صابها ولا تنقصه ولا يفسد ولا يورثها لم
 ينعمهم بأحضوه من العاقلة والمصنوع من رسلهم ما بعثوه
 من الحراس والعيون ولا فداهم من رسل الكون ما أذخروه
 من علق مصون وذهب مخزون بل صدق من ركنه الشديد و
 صحتهم بجيشه المديد وانفذهم ما كتب عليهم من الوعيد
 نقلهم من بين الهود الى حشر الهود وصيرهم بين حجرها
 المنضود وجند لها المعقود اكلا للهوام وطعم اللذود
 نظر اليهم بعينه الشوسا وارسل عليهم كتيبة خرسا واذل
 عزتهم القعسا وازال من نعمانهم باسا وانطق بالعويل
 منهم السينة خرسا وصيرهم حديثا يذكر على مرامهم
 ولا ينسى نزلوا عن المراكب والكلال والاسنة والبخال
 الى ابيس الجارة والرواق والرافم والصلان وشطف العيش

الورقة الاولى من مخطوطة مكتبة الازهر - مصر

وضيق المجال وحلوا بربع غير محلال بحيث لا زوال ولا انتقال
ولا عثرة نقال ولا يسمع فيها كل مقال ولا يلفت عندها الى
كل من قال ارسل اليكم ربك جنوده العائيه واخذهم اخذ
الرايبه وسلك بهم مسلك الامم الخاليه والتروك المماضيه
فهل تحسن منهم من احد او هلك تروى لهم من باقيه وفيهم
قيل وفي امثالهم

حدث حديث القوم من فارس ومن بني قبط ويونان
ومن بني الاصفر اعجب بهم وسيد الاثراك خاقان
ولاقدمين الاعظير الاولى من عير ابناء فخطان
من تبع العرب ومن في صدر الروم وكسرى آل ساسان
من كل قرم شاحخ انفه وكل فرعون وها امان
وان نيت اليوم شافلا تنس بيضا اخت كلان
واذكر ملوك الارض من بعدهم من عرب صيد وجمان
من كل منصور التوى اروع سليل اطواق وبيجان
بجمع الشمل على عزة شدت باساس واركان
قد نزل الارض وراع الورك من جيشه النخيل بطوفان
وذلل الخلق بسلطانه كثرته له ثابان

أما سمعت يا حساك لم ينجت من العذاب ومن غلب على النار
أما سمعت ما يكلفون من ارتقاء جبال النار في النار
حتى إذا ما علوا على سواها صوبوا بعنف إلى أسافل النار
أما سمعت برقوم تسوقه ماء وصدية ولا تسوق في النار
يسقون منه كواشا ملت نفا ترمي بما تهرم وما على النار
يشوى الجوده وجوه الست ^{ظلمة} بيتر الشراب لمر يا سالكى النار
ولا ينالمون انصاف المنام فلا منام لاهل النار في النار
أويستقبلوا افلا تنال عثرهم أو تستغيثوا فلا غياث في النار
وإن أرادوا خراجا رجا رجع من النار مدجود إلى النار
نصر إلى النار مدفوعون بالنار وهم من النار محضون للنار
ما ان خفف عنهم من عذابهم ولا تفر عنهم سورة القات
وهذه صرعت الكاشا معاه من ذي الحجي ومن التاليد في النار
ولو كون الوقت عذابهم في النار هونك الكد نفض النار
فيا الاله ومن احكام سبقت في الفقين من اجناس النار
رحمك يا رب ضعفي وضعي فما وجدك لي صبر على النار
ولاه على حرسهم من ردتها فكيف اصبر كما ولا للنار
فان تغدري عفو وثقت به منكم ولا فاني طعم النار

دعوى من

الورقة الاخيرة من مخطوطة مكتبة الازهر - مصر

وَجُنَّ شَعِيدٌ بِاللَّهِ مِنْ غَدَائِرِ الَّذِي لَا يَقُومُ لَهُ جَمِيعُ الْوُجُودِ
 فَكَيْفَ الْحَضْرَاتِ وَالذُّرُودِ، وَمَنْ غَضِبَهُ الَّذِي لَا يَسْتَطَاعُ
 ذِكْرَهُ، وَلَا يَقْدِرُ قُدْرَتُهُ، وَنَشَلَهُ رَحْمَتَهُ الَّتِي تَنْقَلِبُ مِنْهَا
 بِأَعْمَالِنَا، وَتَبَاعَدَ عَنْهَا بِقَبِيحِ أَعْمَالِنَا، مِنْهُ وَطَوْلُهُ لَا رَيْبَ غَيْرُهُ
 وَلَا مَعْبُودٌ سِوَاهُ، وَصَلَوَاتِهِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ
 وَالْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَآلِهِمُ أَجْمَعِينَ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا
 إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَهُوَ حَسْبِي، تَرَكَابِ الْعَاقِبَةِ حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى
 ، وَعُذْرُهُ وَحُسْنُ تَوْفِيقِهِ ،

بِإِذْنِ عَلِيِّ بْنِ كَاتِبَةِ الْعَبْدِ الْمَفْقَرِ إِلَى رَحْمَةِ زَيْدِ الْعَلِيِّ
 أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمْرَةَ الْجَبَلِيِّ
 ، غَامِلُهُ اللَّهُ تَعَالَى

، بِلَطْفِهِ ،
 وَغَفَرْلَهُ وَلِوَالِدَيْهِ مَنْ قَرَأَهُ أَوْ كَتَبَهُ أَوْ نَظَرَ فِيهِ وَدَعَا بِالرَّحْمَةِ
 ، وَالْمَغْفِرَةِ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ،
 وَوَاتَّقِ الْفِرَاقَ مِنْ تَعْلِيقِهِ فِي الْمِرَاسِمِ صَبَاحًا حَتَّى تَامَ عَشْرُ
 رَجَبٍ الْبَارِئَةِ عَشْرَةَ عَشْرَةَ ، وَتَمَّانَ مَا يَرِ احْسِنُ اللَّهُ تَعَالَى خَاتَمَهَا
 ، مِنْهُ وَكَرَّمَهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

والسنة الفقه الامام الراوية ابو محمد عبد الله بن محمد بن
ابن عبد الله الزركي الاشعري رحمه الله الحمد لله الذي اذك
بالوقوف رفات الحيازة كرسيا منته ظهور الاكاسنة وقصير بعينه
امال الاضاحه الذي اذ بعليهم خمسة الدين واخذهم بيد القاهره
فعلهم تطلعات الحيازة وصيرهم ياروقنا الى وفقه السافه
فاجبوا قد خسر والارثا اوله تخلصوا اعلى من الاحرف مضمونه وله
لا يخبره صاحبها ولا يتبع صاحبها ولا يتتبع الاثما ولا اوصالها
لرغمهم ما حضاوا من المعامل والحضوت ولا حرسهم ما بعثوه من
للمراسم والعبوت ولا اذك من ريسهم الميون ما اذكوه من
عاقب مضمون وذهب بخزون بل غدهم بكنه الشديك
وصبحه بخيشه المهدد وان قد فيهم ما كتبت عليهم من الوعيد وقام
من ليز للمهود الى كسولهم اللجود وصيرهم بين حجرها المصوب
ويجربها المعصود اظلم الهوام وطرح اللود نظر اليهم بعينه
الشوفا وارنيل علم كيبته اجر شاة اوله زتم الفعسنا
واذك من تغاير الوفاة وانطق العويل منهم السنة حراسا
وهيرهم حردنا اذ كرس علم من الزمان ولا يندى نزوا عر الا اريد
الاراك والاسود والى الى احماسه والارماك والارافم
طال صلايا وسنننا المين وضيق الحياك دخلوا برمع عن
مخلات تحت لار والار لا اشفال ولا عتق نقاب ولا افسح
عنه وقها كرس لوليت عدها الى كل من كرس اوله ابرهم برك
صيروه العانية واخذهم اعدته الاسبه وملك بهم مدن
ارهم الحاله والفرون الما ضده اهل حتى حرمهم من اعد او ترى

الورقة الاولى من مخطوطة مكتبة شستريكي - دبلن - ايرلندا

الاصحاح الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
وَعَبَّرَ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

وَمِنْ زِينَةِ الْأَدَبِ نَالَ الْعَقِيْبَةَ الطَّيْبَةَ الْمُحَدَّثَةَ الْفَاصِلُ الْوَزْعُ الزَّائِدُ
الْأَشْمَلُ وَالرَّسْمُ عَشْرُ الْعَالَمِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَقِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْدِيُّ
وَمِنْ مَوَاهِبِهِ وَقِيلَ لَهُ رُبْعُ عَشْرَةَ وَتَوَلَّى جُمُعَةَ رُبْعِ الْعَامِ سِتْمَاةً وَبِأَسْمَاءِ
وَأَسْمَاءِ رُبْعِهِ الْإِسْمَاعِيلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَالْحَقُّهُ رَضْوَانُهُ هـ
الَّذِي لَرَأَيْتُمْ خَلْقَهُ الدَّايِرَةَ وَأَخَذْتُمْ بِدِي الْفَاهِرَةِ
طَهَّرُوا الْأَكْثَرَ مِنْ خَيْبِ سَمِيئَةٍ أَمَا يَا بَيْتِ بَصْرَةَ
فَقَدْ وَهَرُ الْخَالِ الْكَاغِرَةَ وَصَيَّرْتُمْ بِأَرْهَاتِ الْوَقْفَةِ
الشَّاهِدَةَ فَأَضْمُوا فِدْخَسْرُوا الدُّنَا وَأَمْ يَجْصَلُوا عَلَى شَرِّ
مِنِ الْأَفْرَةِ الْمُصِيبَةِ وَاللَّهِ لَا تُخْبِرُ مَصَابِرَهَا وَلَا تُنَجِّعُ
فَسَابِرَهَا وَلَا تُنْقَضُ الْأُمُورُ وَلَا أَوْصِيَابُهَا أَمْ يَمْتَعِبْتُمْ مَا
حَصَلُوهُ مِنَ الْمَقَافِلِ وَالْحَصُونِ وَلَا حَرَسْتُمْ مَا بَعَثُوا مِنْ
الْحَرَسِ وَالْعَبُورِ وَلَا قَالَهُمْ مِنْ وَبَيْنِ الْمَنُونِ مَا دَخَرُوهُ
مِنْ عِلْنِ مَصُونِ وَدَهِيٍّ مَخْرُودِ بَلْ صَدَّ عَنْهُمْ نَوْكِيهِ

الاصحاح الثاني
الاصحاح الثاني
الاصحاح الثاني

الورقة الاولى من مخطوطة مكتبة ليدن - هولندا

الشديدة وصبرهم في شد الأرباب وأتقوا فيهم ما كنت
 عليهم من العبودية فقلهم من ليل العبودية إلى عيشونه
 العود وأصبرهم بين حجرها المنضود وأخذها العفود
 أكلا للمولم ولما اللدود تطوا لهم بعينه الشوشاء وأقل
 عليهم كينيتة الحزنا فأذل عنهم العفتاء وأدال من
 نعيم ينشاء وأطفي بالعبود منهم السنة خرساء وصبرهم
 حديثا يذكر على من الرمان ولا ينشاء نزلوا عن الأرباب والكل
 والاشرة والجمال إلى الجحامة والرمالك والآرام والصلال
 وبنينا العيش ضيق الجراك وكلوا بزيع غير حلال
 تحيث لا زوال ولا انتفالك ولا عتة نغال ولا كتبع فيها
 كل مقال ولا يكتنف عنده إلى كل من قال أرسل ربك
 عليهم جنود العاشية وأخذهم أخذته الراسية وسلك
 بهم متلك الأيم الكالية والقرون الماضية ^{راوية الشية} فقل محشر
 منهم من أمدل تدرهم من أقبه وبقية قبل وفي أمثالهم
 حديثا من المزمور من غاريس ومن بني قنيطر يسبونك

اما سمعت مما يكفون من اذنا وحيال النار في النار
 حتى اذا ما علوا على شواهد صبا بعضنا اسفل النار
 اما سمعت بزوم يسوغه ما صديده ولا تسوغ في النار
 بسقون منه كور شملت تنفعا ترى يا معايم رميا على النار
 يشوي الوجوه وجوها البشطاء بين الشارب شرابا في النار
 ولا ينامون ان طاق المنام بهم ولا تمام لاهل النار في النار
 ان يسبقوا اولنا اشرهم وان يستغشوا ملاعق النار
 وان زادوا اخر صغار دعاء جهم بمنع النار مدحورا الى الشارب
 نعم الى النار مدفعون بالنار وهم الى النار مصرون للشارب
 ما ان محققهم من قدامهم ولا تسوغهم ستوره الشارب
 وهذه صدقنا كما اصابها من ذبيحنا وهي للخليد في النار
 ولو يكون لا وقرعنا بهم في النار هوز فام نعم النساء
 في الهى ومن احكامه سبقت في الغريب من الخائب والنار
 زحان يارب في صغرى فوضعنا ما وجدك الى صبرا النار
 ولا على حريش ان تزدن لها كين صبرا يا مولانا على الشارب

الورقة الاخيرة من مخطوطة مكتبة ليدن - هولندا

قَاتِلِي عَمْرٍو نَعْتِ بِرِيسِكُمْ وَالْاَمَامِ سَيِّدِ الْاَشَارِ
 وَحَمْنِ تَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ عَذَابِ الدَّيْرِ وَتَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ بِجَبِيحِ
 الْوَجُودِ فَكَيْفَ الْحَسْرَاتُ وَاللُدُودُ وَمِنْ عَضْبِهِ النَّيْلُ لَا يَسْتَيْطِ
 سَمِعُهُ نَكَيْتُ نَزْوَاهُ وَوَقَعُهُ وَتَسْأَلُهُ رَحْمَتَهُ الَّتِي تَعْلَمُكَ
 مِنْهَا يَا قَعَالِنَا وَبِتَبَاعُدِهَا يَبْتَغِي عَمَلِنَا بِمَنْتِهِ وَطَوْلُهُ لَا
 رَيْبَ فِيهِ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ وَصَلَوْتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ
 النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَعَلَى آلِهِ وَهَجِيرِهِمْ وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَكُتِبَ
 وَشَرَفَ وَعَطَّرَهُ

قوله

ثُمَّ الْكُتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى
 آلِهِ وَهَجِيرَتِهِ يَا وَصِيًّا تَسْلَمُ أَكْبَرُ الْأَسْمَاءِ لِلدِّينِ
 حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْقَوْلُ وَالْقَوْلُ لَا يَأْتِيهِ اللَّهُ لِلْعَالِ الْعَظِيمِ



مكتبة
 دارالعلم
 دارالكتاب
 دارالكتاب
 دارالكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقتي

قال الشيخ الإمام الأوحى الزاهد أبو محمد عبدالحق بن عبد الرحمن ابن عبدالله الأزدي الإشبيلي المالكي رضي الله عنه .
الحمد لله الذي أذل بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر بصدمته ظهور الأكاسرة ، وقصر بيغته آمال القياصرة^(١) ، الذي أدار عليهم حلقة الدائرة ، وأخذهم بيده القاهرة ، فقذفهم في ظلمات الحفرة ، وصيرهم بها رهنا إلى وقفة الساهرة^(٢) ، فأصبحوا قد خسروا الدنيا ولم يحصلوا على شيء من الآخرة .
مصيبتهم والله لا يجبر مصابها ، ولا يتجرع صابها ، ولا تنقضي آلامها ولا أوصابها .

لم يمنعهم ما حصنوه من المعازل والحصون ، ولا حرسهم ما بعثوه من الحرس والعيون ولا فداهم من ريب المنون ما ادخروه من علق مصون وذهب مخزون .

بل صدمهم بركنة الشديد ، وصبحهم بجيشه المديد . وأنفذ فيهم ما كتب عليهم من الوعيد .

نقلهم من لين المهود إلى خشونة اللحود ، وصيرهم بين حجرها المنضود وجندها المعقود أكلا للهوام وطعما للدود .

نظر إليهم بعينه الشوساء^(٣) وأرسل عليهم كتيبة الخرساء ، فأذل عزتهم

(١) مفتتح كتاب ذكر الموت من إحياء علوم الدين للغزالي ٤/٤٨٨ مع تصرف قليل .

(٢) من : فقذفهم الى هنا سقط من ز .

(٣) الشوساء : الشوس : النظر بمؤخر العين تكبرا أو تغظا . يقال رجل أشوس ، وامرأة شوساء .

القعساء^(٤)، وأبدل من نعمتهم يؤسا، وأنطق بالعويل ألسنة خرسا، وصيرهم حديثا يذكر على مر الزمان ولا ينسى .

نزلوا عن الأرائك والكلال^(٥) والأسرة والحجال^(٦) إلى الحجارة والرمال والأرقام والصلال، وشظف العيش وضيق المجال، وحلوا بربع غير محلال، بحيث لا زوال ولا انتقال، ولا عثرة تقال، ولا يسمع فيها مقال، ولا يلتفت عندها إلى من قال .

أرسل عليهم ربك جنوده العاتية، وأخذهم أخذته الرابية، وسلك بهم مسلك الأمم الخالية والقرون الماضية، فهل تحس منهم من أحد، أو هل ترى لهم من باقية، وفيهم قيل وفي أمثالهم:

حدث حديث القوم من فارس
ومن بني الأصفر^(٧) أعجب بهم
والأقدمين الأعظمين الألى
من تبع العرب ومن قيصر
من كل قوم^(٨) شامخ أنفه
وإن نسيت اليوم شيئا فلا
واذكر ملوك الأرض من بعدهم
من كل منصور اللوا أروع
مجتمع الشمل على عزة
قد زلزل الأرض وراع الورى
وذلل الخلق بسلطانه
انظر إليهم هل ترى منهم

ومن بني قبط ويونان
وسيد الأتراك خاقان
من حمير أبناء قحطان
الروم وكسرى آل ساسان
وكل فرعون وهامان
تنس نبطا أخت كلدان
من عرب صيد وعجمان
سليل أطواق وتيجان
شيدت بأساس واركان
من جيشه الضخم بطوفان
كأنه رَبُّ لهم ثان
غير أحاديث بأفنان

(٤) القعساء: الثابتة .

(٥) الكلال: جمع كلة وهي ما نسميه الناموسية .

(٦) الحجال: جمع حجله وهو بيت يزين بالستور للعروس .

(٧) بني الأصفر: الروم .

(٨) قوم: القرم السيد العظيم وهو في الأصل الفحل من الابل إذا ترك عن الركوب والعمل، وشبه به العظيم من الرجال .

وانظر إلى الموت وأعماله
وأبصر القوم وماذا لقوا
قد صفعتهم يده صفعة
ودك في الأرض بيتجانهم
من حجر صلد ورخو ومن
وأنزلو باطن الثرى بعدما
واطعم الديدان لحما نهم
فكم هناكم من فتى ناعم
ومن هزير^(٩) مرح في الوغى
كانوا كذا ثم اغتدوا عبرة
ولم يدافع عنهم جحفل^(١٠)
ولا بيوت ملئت كلها
بل مرّ ذاكم كله مسرعا
وأصبح الملك لمن ملكه
فسبحان من تفرد بالعزة والكبرياء، وتوحد بالديمومة والبقاء، وطوق
عباده بطوق الفناء، وفرقهم بما كتب عليه من السعادة والشقاء، وجعل الموت
مخلصا لأوليائه السعداء، ومهلكا لأعدائه الأشقياء.

خلق خذلانا وقدر توفيقا، وأنهج سبيلا وأوضح طريقا، فهدى إليه فريقا
وأضل عنه فريقا. لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فسبحان الذي بيده ملكوت
كل شيء، وإليه ترجعون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من وفق لها في الأزل،
وكتب له بها في القسم الأول، ففتح لها كل باب، وهتك دونها كل حجاب،
وخلصها من الشبهة والارتباب، وظهرت عليه فيها نعمة العزيز الوهاب الغفور
التواب، ملك الملوك ورب الأرباب.

(٩) هزير: اسد، اراد به الرجل الشجاع.

(١٠) جحفل: جيش عظيم.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المرفوع عليه علم التحقيق، المختص
 بخصائص التوفيق، الداعي إلى أنهج سبيل وأوضح طريق .
 صلى الله عليه صلاة تزيده شرفا، وترفعه زلفى، وتوردنا مورده الذي
 عذب وصفا. وعلى آله الطيبين وصحابته الأكرمين والتابعين لهم بإحسان إلى
 يوم الدين، وسلّم وكرّم وشرفّ وعظّم .
 أما بعد فإن الموت أمر كُبار لمن أنجد^(١١) وأغار، وكأس تدار فيمن أقام أو
 سار، وباب تسوقك إليه يد الأقدار، ويزعجك فيه حكم الأضرار، ويخرج بك
 إما إلى الجنة وإما إلى النار.

خير- علم الله - يَصُمّ الأسماع ويغير الطباع، ويكثر من الآلام والأوجاع .
 واعلموا أنه لو لم يكن في الموت إلا الإعدام وانحلال الأجسام ونسيانك
 أخرى الليلي والأيام، لكان والله لأهل اللذات مكذرا ولأصحاب النعيم مغيرا،
 ولأرباب العقول عن الرغبة في هذه الدار زاجرا ومنفرا. كما قال مطرف بن
 عبد الله بن الشخير:

إن هذا الموت نغص على أهل النعيم نعيمهم، فأطلبوا نعيما لاموت فيه،
 فكيف ووراء يوم يُعدم فيه الجواب، وتدهش فيه الألباب، وتفنى في شرحه
 الأقالام والكتاب، ويترك النظر فيه والاهتمام به الأولياء والأحباب .
 واعلموا رحمكم الله أن الناس في ذكر الموت على ضروب فمنهم المنهمك
 في لذاته المثابر على شهواته، المضيع فيها مالا يرجع من أوقاته، لا يخطر الموت له
 على بال، ولا يحدث نفسه بزوال، قد أطرّح أخراه واكبّ على دنياه، واتخذ إلهه
 هواه فأصمّه ذلك وأعماه، وأهلكه وأرداه .

فإن ذكر له الموت نفر وشرد، وإن وعظ أنف وبعد وقام في أمره الأول
 وقعد . قد حاد عن سواء نهجه . ونكب عن طريق فلجه^(١٢) وأقبل على بطنه
 وفرجه، تبت يدها وخاب مسعاه وكأنه لم يسمع قول الله عز وجل ﴿كل نفس

(١١) انجد: دخل في نجد وهو الأرض المرتفعة . وأغار: دخل في غور وهو الأرض المنخفضة .
 والمراد لكل إنسان .

(١٢) نكب عن طريق فلجه: ابتعد عن الطريق الصحيح .

ذائقة الموت ﴿١٣﴾ ولا سمع قول القائل فيه وفي أمثاله حيث قال :

ياراكب الروع للذاته كأنه في أُنِّ (١٤) عَيْرٌ
وآكلا كل الذي يشتهي كأنه في كلاً ثورٌ
وناهضا إن يدعُ داعي الهوى كأنه من خفة طيرٌ
وكل ما يسمع أو ما يرى كأنها يعنى به الغيرُ
إن كؤوس الموت بين الورى دائرة قد حثها السيرُ
وقد تيقنتَ وإن ابطأت ان سوف يأتيك بها الدورُ
ومن يكن في سيره جائرا تالله ما في سيرها جورُ

ثم ربما أخطَرَ الموت بخاطره، وجعله من بعض خواطره، فلا يبيح منه إلا غما، ولا يثير من قلبه إلا حزنا، مخافة أن يقطعه عما يؤمل أو يفطمه عن لذة في المستقبل، وربما فرَّب فكره منه ودفع ذلك الخاطر عنه. ويا ويحه كأنه لم يسمع قول الله عز وجل: ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾ (١٥) ولا قول القائل :

فِرّ من الموت أو اثبت له لا بد من أنك تلقاه
واكتب بهذي الدار ما شئتَه فإن في تلك ستقراه

وكذلك من كان قلبه متعلقا بالدنيا، وهمه فيها ونظره مصروفا إليها، وسعيه كله لها، وهو مع ذلك من طلابها المحرومين وأبنائها المكذوبين (١٦)، لم ينل منها حظا ولا رقى منها مرقى، ولا نجح له فيها مسعى، إن ذكر له الموت تصامم عن ذكره ولم يمكنه من فكره، وتمادى على أول أمره، رجاء أن يبلغ ما أمل، أو يدرك

(١٣) آية ٣٥ سورة الأنبياء.

(١٤) الأُنِّ: جمع أُنِّ وهي الحمارة.

(١٥) آية ٨ سورة الجمعة.

(١٦) المكذوبين: المتعبين بفتح العين.

بعض ما تخيل، فعمره ينقص وحرصه يزيد، وجسمه يخلق وأمله جديد، وحتفه^(١٧) قريب ومطلبه بعيد.

يحرص حرص مقيم، ويسير إلى الآخرة سير مجد، كأن الدنيا حق اليقين، والآخرة ظن من الظنون. وفي مثل هذا قيل:

تحرص يا ابن آدم حرص باقٍ وأنت تمر ويحك كل حين
وتعمل طول دهرك في ظنون وأنت من المنون^(١٨) على يقين

وهذا إذا ذكر الموت أو ذكر به لم يخف أن يقطع عليه مُمهاً من الأغراض قد كان حصله، ولا عظيمًا من الآمال في نفسه قد كان أدركه، لأنه لم يصل إليه ولا قدر عليه، لكنه يخاف أن يقطعه في المستقبل عن بلوغ أمل يحدث به نفسه ويخدع به جسسه، وهو يرى فيه يومه كما قد رأى فيه أمسه.

قد ملأ قلبه بتلك الأحاديث المشغلة والأمانى المرذلة، والوساوس المتلفة، قد جعلها ديدنه^(١٩) ودينه، وإيمانه ويقينه.

وربما ضاق ذرعه بالدنيا وطال همه فيها من تعذر مراده عليه وقلة تأتية^(٢٠) له، فتمنى الموت إذ ذاك ليستريح بزعمه، وهذا من جهله بالموت وبما بعد الموت. والذي يستريح بالموت غيره، والذي يفرح به سواه، إنما الفرح من وراء الصراط، والراحة بعد المغفرة.

توفيت امرأة كان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحونها ويضحكون معها، فقالت عائشة رضي الله عنها: لقد استراحت فقال رسول الله ﷺ: إنما يستريح من غفر له. ذكره أبو بكر البزار في مسنده.

فلا يزال هذا البائس يتحمل من الدنيا بؤسها، ويتلقى نحوسها ويلبس

(١٧) الختف: الموت.

(١٨) المنون: الموت.

(١٩) رديته: دأبه وعادته.

(٢٠) تأتية: إمكانه.

لكل شدة لبوسها . وهويتعلل بعسى ولعل . ويرى جنده الأقل ، وحزبه الأقل ، وناصره الأذل فلا يرعوي^(٢١) ولا يزدجر ، ولا يفكر ولا يعتبر ، ولا ينظر ولا يستبصر حتى إذا وقعت رايته وقامت قيامته ، وهجمت عليه منيته ، وأحاطت به خطيئته ، فانكشف له الغطاء ، وتبدت له موارد الشقاء ، صاح واخبيته ! واثكل أماه ! وأسوء منقلباه !

هيهات هيهات ، ندم والله حيث لا ينفعه الندم ، وأراد التثبيت بعدما زلت به القدم ، فخر صريعا لليدين وللنم ، إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم^(٢٢) فنعوذ بالله من الحرمان ، ومن ضحك العدو وشاة الشيطان .

وهذا والذي قبله إن لم يكن لهما عناية أزلية ، وسابقة أولية فيمسك عليهما الإيمان ، ويختم لهما بالاسلام ، وإلا فقد هلكا كل الهلاك ، ووقعا بحيث لا دراك ، ولا مخلص ولا انفكاك .

فنعوذ بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء بفضله ورحمته .

ورجل آخر - وقليل ما هم - من أزيل من عينه قذاها ، وكشف عن بصيرته عماها ، وعرضت عليه الحقيقة فرآها ، وأبصر نفسه وهوها فزجرها ونهاها ، وأبغضها وقلاها^(٢٣) ، فلبى المنادي وأجاب الداعي ، وشمر لتلافي ما فات ، والنظر فيما هوآت ، وتأهب لهجوم الممات ، وحلول الشتات ، والانتقال إلى محلة الأموات .

ومع هذا فإنه يكره الموت أن يشهد وقائعه أو يرى طلائعه ، أو يكون ذاكرا حديثه أو سامعه ، وليس يكره الموت لذاته ، ولا لأنه هادم لذاته ، ولكن يخاف ان يقطعه عن الاستعداد ليوم المعاد ، والاكتماب ليوم الحساب ، ويكره ان تطوى صحيفة عمله قبل بلوغ أمله ، وأن يبادر بأجله قبل اصلاح خلله وتدارك زلله فهو يريد البقاء في هذه الدار لقضاء هذه الأوطار^(٢٤) ، والإقامة بهذه المحلة بسبب هذه العلة .

(٢١) يرعوى : يرجع .

(٢٢) ام قشعم : كناية عن الموت .

(٢٣) قلاها : هجرها وتركها .

(٢٤) الأوطار : جمع وطر وهو الحاجة والمطلب .

كما روى عن بعض العالمين وقد بكى عند الموت، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: والله ما أبكي لفراق هذه الدار حرصاً على غرس الأشجار وإجراء الأنهار، لكن على ما يفوتني من الادخار ليوم الافتقار، والاكساب ليوم الحساب.

قال في هذا او معناه:

أهون بداركم الدنيا وأهلها
الله يعلم اني لست وامقها (٢٥)
لكن تمرغت في ادناسها حِقَباً
أيام أسحب ذيلي في ملاعبها
وكم تحملت فيها غير مكرث
فقلت أبقي لعلي أهدم ما
ومن ورائي عقاب لست أقطعها
يا ويلتي وبحار العفوز آخرة
وهذا إذا مات فيالله دره من ميت، ما أفضل حياته وأطيب مماته، وأعظم

سعادته وأكرم وفادته، وأتم سروره وأكمل حبوره (٢٦)

واعلم أن هذا لا يدخل تحت قوله عليه الصلاة والسلام: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه» لأن هذا لم يكره لقاء الله تعالى لذات اللقاء، إنما كره أن يقدم على الله عز وجل متدنساً بأوضاره (٢٧)، ثقيل الظهر بأوزاره، ملآن من عاره وشناره (٢٨) فأراد أن يتطيب للقاء ويستعد لفصل القضاء.

قال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هارون العابدة: أتحبين أن تموتي؟ قالت: لا قلت: ولم؟ قالت: والله لو عصيت مخلوقاً لكرهت لقاءه، فكيف بالخالق جل جلاله؟!!

(٢٥) وامقها: الوامق: الناظر الى الشيء.

(٢٦) الحبور: السرور.

(٢٧) الأوضار: جمع وضرو وهو وسخ الدسم.

(٢٨) الشنار: أقيح العيب.

وقال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم أخراكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال: كيف القدوم على الله عز وجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين أما المحسن فكالغائب يأتي أهله فرحاً مسروراً، وأما المسيء فكالعبد الأبق (٢٩) يأتي مولاه خائفاً محزوناً.

قال أبو بكر الكتاني: كان رجل يحاسب نفسه، فحسب يوماً سنينه فوجدها ستين سنة، فحسب أيامها فوجدها واحداً وعشرين ألف يوم وخمسة عشر يوماً، فصرخ صرخة وخر مغشياً عليه، فلما أفاق قال: يا ويلتاه! أنا آتي ربي بواحد وعشرين ألف ذنب وخمسة عشر ذنب؟!!

يقول هذا لو كان ذنب واحد في كل يوم، فكيف بذنوب كثيرة لا تحصى؟!!

ثم قال: آهِ عليّ، عمرت دنياي وخربت أخراي، وعصيت مولاي، ثم لا أشتهي النقلة من العمران إلى الخراب؟! وكيف أشتهي النقلة إلى دار الكتاب والحساب والعتاب والعذاب، بلا عمل ولا ثواب؟! وأنشد:

منازل دنياك شيدتها وخربت دارك في الآخرة
فأصبحت تكرهها للخراب وترغب في دارك العامرة

ثم شهق شهقة عظيمة، فحركه فإذا هو ميت. على أن هذا الحديث «من كره لقاء الله كره لقاء الله» قد جاء مفسراً، فعن عائشة رضي الله عنها:

قال رسول الله ﷺ: من أحب لقاء الله أحب لقاءه، ومن كره لقاء الله كره لقاءه، فقلت: يانبي الله أكرهية الموت؟ فكلنا نكره الموت؟ قال: ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله، فأحب الله

لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه وعقوبته كره لقاء الله فكره الله لقاءه. (٣٠)

ذكره مسلم بن الحجاج.

وقال البخاري في هذا الحديث: ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ بـرضوان الله وكرامته. فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه.

ورجل آخر هو من القليل قليل، قد عرف الله تعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العلاء، وشاهد ما شاهد من كمال الربوبية وجمال الحضرة الإلهية فملأت عينه وقلبه، وأطاشت عقله ولبُّه، فهو يحن إلى ذلك المشهد، ويحوم على ذلك المورِد، ويستعجل إنجاز ذلك الموعد، وقد علم أن الحياة حجاب بينه وبين محبوبه، وستر مسدل بينه وبين مطلوبه، وباب مغلق يمنعه من الوصول إلى مرغوبه.

فلو أصاب سبيلا إلى هتك ذلك الحجاب هتكه، أو رفع ذلك الستر رفعه، أو كسر ذلك الباب حطمه وكسره، فعذابه في الحياة، وراحته في المات. كما يروى أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه لما نزل به الموت قال: حبيب جاء على فاقة.

وقد قيل: إن الموت جسر يوصل الحبيب إلى الحبيب.

وأنشده بعضهم:

يا حبذا الموت وأهواله	وسكرة منه تلي سكره
وزفرة في اثرها زفرة	كأنها في كبدي جمرة
وروعة تقطع مني الحشا	كأنها في أضلعي شفرة
يا حبذا يا حبذا كل ما	لاقيت من ضر ومن عسره
أهون به ثمت أهون به	ولو غدا مثل الحصى كثره

(٣٠) رواه البخاري في الرقاق ٣٠٨/١١، ومسلم في الذكر والدعاء رقم ٢٦٨٣. والترمذي في الجنائز رقم ١٠٦٦. انظر جامع الأصول ٥٩٥/٩ و٥٩٦.

إذ كان ذاكم مُعقِبي نظرة في وجه ذي العزودي القدره (٣١)
يا لأمانى تمنيتها تفقد نفسي دونها حسرة
والموت جسر للقاء المنى فليعمل الغافل ما سره (٣٢)
ويروى عن علي بن الفتح أنه رأى الناس في يوم عيد يتقربون بقرايهم -
يعني بضحاياهم - فقال: يا رب وأنا اتقرب إليك بأحزاني . ثم غشي عليه ، فلما
أفاق قال : إلهي إلى كم ترددني في هذه الدنيا؟! فمات من ساعته .
ومقدمات هذا وأمثاله تدل على ما وراءها من الوصال والاتصال والأنس
بذلك الجلال والجمال .

وآخر قد شاهد ما شاهد ذلك ، وربما زاد عليه ، ولكنه فوض الأمر إلى خالقه ،
وسلم الحكم لبارئته ، فلم يرض إلا ما رضي له ، ولم يُرد إلا ما أريدَ به ، ولا
اختار إلا ما حكم فيه ، ان أبقاه في هذه الدار أبقاه ، وان أخذه اليه أخذه .

قال أحمد بن أبي الحواري : قال أبو سليمان الداراني :

الناس رجلان : رجل أحب الله تعالى ، فأحب الموت شوقاً إلى لقاء الله ،
ورجل أحب البقاء لإقامة حق الله تعالى .

قال : فوثب اليه غلام لم يحتلم فقال : ورجل ثالث! أو قال ورجل آخر ،
فقال أبو سليمان : ومن هو يابني (٣٣)؟ قال : من لم يختر هذا ولا هذا اختار ما اختار
الله عز وجل له . فقال أبو سليمان : احتفظوا بالغلام فإنه صديق .

واجتمع يوماً وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن اسباط رحمهم
الله تعالى ، فقال الثوري : كنت أكره موت الفجأة ووددت اليوم أني مت . فقال
له يوسف بن اسباط : لم؟ قال : لما اتخوف من الفتننة في الدين . فقال يوسف :
لكني أحب الحياة وطول البقاء . فقال له سفيان : لم؟ قال : لعلي أن أصادف يوماً
أتوب فيه وأعمل صالحاً .

(٣١) الى هنا سقط من ش .

(٣٢) في زول : فيثبت المرء لها جسره .

(٣٣) يابني : ليس في زول .

فقيل لوهيب: اي شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئا، أحبُّ ذلك الي أحبُّه الى الله عز وجل . فقَبِلَ الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة .

وقال علي بن جهضم عن علي بن عثمان بن سهل: دخلت على عمرو بن عثمان وهو في علته التي توفي فيها، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: أجد سري واقفا مثل الماء لا يختار النقلة ولا المقام .

يعني مثل الماء في الإثناء أو القرار من الأرض . يقول لا يختار الحياة ولا الموت . وقال القائل في هذا المعنى :

كل ما يفعل الحبيب حبيب والذي شاء بي فشيء عجيب
إن سكون اراد بي فسكون أو وحيب اراد بي فوجيب
وإذا ما أراد موتي فموتي أو حياتي لكل ذلك أجيب
كل ما كان من قضاء فيحلوه بفؤادي نزوله ويطيب
فهذا إذا مات لا يُسأل عن حاله ولا يقال ما فعل به؟

ومنهم من يتمنى الموت ويشتهيها، ويسأله ربه تعالى ويرغب إليه فيه، وقد علم أن وراءه يوما ثقيلا وحبسا طويلا، ومقاما يقوم فيه ذليلا، لكن لما رأى نفسه منصوبا للمحن معرضا للفتن، مرتها بما هو به مرتين، وأبصر تفريطه في الزاد ليوم المعاد، وفي الاستعداد ليوم الشهادة، وخاف أن يقطع عن سبيل المؤمنين ويختلج عن طريق المسلمين، تمنى الموت لينجو من هذا الخطر، ويسلم من هذا الغرر، وأن يقدم على الله عز وجل بالإيمان كائنا منه بعد ذلك ما كان . وهذا إن شاء الله إذا مات خرجت له البشرية بالأمان، وأن يحتل في جوار الرحمن حيث شاء من دار الكرامة والرضوان .

واعلم أن هذا لا يدخل تحت قوله عليه السلام: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به» . فإنه عليه السلام إنما أراد الضرر الدنيوي الذي ينزل بالإنسان من محن الدنيا في النفس والأهل والمال . وهذا إنما تمناه مخافة أن ينزل به الضرر الأخروي، وأن يقطع بالمعاصي عن الله، وأن يصد بالفتن عن سبيل الله .

وبالجملة فالموت طريق نجاة يركبها المؤمنون، ومورد سلامة يردده المسلمون، لقوا فيه مالمقوا، وسقوا منه ما سقوا كل ذلك يهون، لما يفضي بهم إليه من السعادة الأبدية، والحياة السرمدية .
نسأل الله جميل الخاتمة، وحسن العاقبة، ومردًا غير مخز ولا فاضح برحمته لا رب سواه .

والأحاديث التي وردت في النهي عن تمني الموت صحيحة مشهورة .
ذكر مسلم بن الحجاج رحمه الله من حديث أنس بن مالك قال :
قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لا بد متمنيا فليقل اللهم احيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي (٣٤) » .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا (٣٥) » .

وذكر البخاري من حديث أبي هريرة أيضا أن رسول الله ﷺ قال :
« لا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسنا فلعله أن يزداد ، وإما مسيئا فلعله أن يستعذب (٣٦) » .

وذكر أبو بكر البزار من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ :
« لا تتمنوا الموت فإن هول المطلع شديد وإن من السعادة أن يطول عمر العبد حتى يرزقه الله الإنابة » .

وسأذكر لك إن شاء الله جملة كافية مما ورد في الموت ، ومما يعين على ذكره والفكرة فيه ، وذكر الصالحين له ، وكلامهم عند نزوله مع كلام غيرهم من

(٣٤) رواه مسلم رقم ٢٦٨٠ في الذكر والدعاء ، والبخاري ١٠٧/١٠ و١٠٨ في المرضى .
والترمذي رقم ٩٧١ في الجنائز . وأبو داود رقم ٣١٠٨ في الجنائز . والنسائي في الجنائز .
(جامع الأصول ٢/٥٥٤) .

(٣٥) رواه مسلم رقم ٢٦٨٢ . والبخاري ١٠٩/١٠ والنسائي في الجنائز . نفس المرجع .

(٣٦) رواه أيضا النسائي . انظر جامع الأصول ٢/٥٥٥ . ومعنى يستعذب : يستقبل من شيء فعله أو قاله .

المغترين والجهلة المخدوعين، وما وراءه من السؤال والحساب، والثواب والعقاب، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولعلك تظن بقولي هذا وبالجملة «فالموت طريق نجاة يركبها المؤمنون» الكلام إلى آخره - أني إنما أردت بذلك تهوين الموت وتسهيل كربه، وتحقير خطبه والازدراء بشأنه وقلة المبالاتة به. كلا ومن كتبه على البشر، وجعله عبرة من العبر، وإحدى آياته الكبر ما قلت ذلك لهذا، وإنما قلته للحالة التي يؤول المؤمنون إليها ويقيمون عليها، ويكرمونها ويخلدون فيها، فذلك يهون الموت وما هو أعظم من الموت، بل الإقامة في سكراته وتجرع مراراته آلافا من السنين، وأضعاف ما تعدّه مئين.

وإلا فالموت هو الخطب الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وإنه الحادث الهادم للذات، والأقطع للراحات، والأجلب للكريات.

وإن أمرا يقطع أوصالك، ويفرق أعضائك، ويفتت أعضادك ويهد أركانك، هو الأمر العظيم والخطب الجسيم، وإن يومه هو اليوم العقيم. وما ظنك رحمك الله بنازل ينزل بك فيذهب رونقك وبهاءك، ويغير منظره ورواءك^(٣٧)، ويمحو صورة جمالك، ويمنع من اجتماعك واتصالك، ويردك بعد النعمة والنصرة، والسطوة والقدرة ٧/أ والنخوة والعزة إلى حالة يبادر فيها أحب الناس لك وأرحمهم بك وأعطفهم عليك، فيقذفك في حفرة من الأرض قريبة أنحاؤها، مظلمة أرجاؤها^(٣٨)، محكم عليك حجرها وصيدانها متحكم فيك هوامها وديدانها.

ثم بعد ذلك يتمكن منك الإعدام، وتختلط بالرغام^(٣٩)، وتصير ترابا تطؤه الأقدام.

(٣٧) الرواء: الحسن بضم الحاء.

(٣٨) الأرجاء: النواحي.

(٣٩) الرغام: التراب.

وربما ضُرب منك إناء فخار أو أحكم منك بناء جدار، أو طلي منك محبس ماء أو موقد نار، كما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أتى بإناء ماء ليشرب منه فأخذه بيده ونظر إليه، وقال كم فيك من عين كحيل وخذ أسيل(٤٠)؟!

وكان بقرطبة امرأة صالحة مذكورة بالخير معروفة، اسمها عزيزة بنت القلفيطي، وكانت لها رؤيا صادقة، فرأت فيما يرى النائم كأنها خارجة على باب الضاغط بقرطبة عن يسار الخارج بنيانا من أعضاء بني آدم وشعورهم، ولهم صياح وضجيج، ورجل طويل واقف وعليه ثياب خضرة نيرة، ويداه على عينيه، وهو يقول عينايا يا قوم في الحائط، فأخبرت بهذا الرؤيا أبا بكر بن مؤمن رحمه الله تعالى، فخرج إلى الموضع، فوجد فيه مسجدا ودورا قد بنيت في طرف مقبرة كانت هنالك، تعرف بمقبرة عباس.

وبنيت تلك الدور والمسجد لمصلحة رأى الجيران في ذلك
.. (٤١) ذلك، حدثني بهذه الحكاية صاحبنا الوجيه أبو الحسن بن أبي بكر بن مؤمن عن أبيه، وعن المرأة أيضا وقد سمعت أيضا الحكاية قبل هذا من أبي الحسن بن كامل الصوفي ومن غيره من أصحابه.

ويحكى أن رجلين تنازعا وتخاصما في أرض، فانطق الله عز وجل لبنة في حائط من تلك الأرض، فقالت: يا هذان إني كنت ملكا من الملوك، ملكت كذا وكذا سنة، ثم مت وصرت ترابا، فبقيت كذلك ألف سنة، ثم أخذني خزاف - يعني فخارا - فعمل مني إناء، فاستعملت حتى تكسرت، ثم عدت ترابا فبقيت ألف سنة، ثم أخذني رجل فضرب مني لبنة فجعلني في هذا الحائط، فقيم تنازعكما؟ وقيم تخاصمكما؟! .

وهذا التغيير إنما يحل بجسدك وينزل بيدك، لا بروحك، لأن الروح لها حكم آخر، وما مضى منك فغير مضاع، وتفترقه لا يمنعه من الاجتماع. (٤٢)

(٤٠) أسيل: لين أملس.

(٤١) ثلاث كلمات غير مقروءة.

(٤٢) حكاية عزيزة بنت القلفيطي هذه انفردت بها نسخة ل. ولا توجد في النسخ الثلاث الأخرى.

قال الله تعالى : ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ (٤٣).
 والحكايات في هذا الباب أكثر من هذا، والكلام فيه متسع .
 وقد دونت في الموت الأخبار، وصيغت فيه الأشعار، وضربت بشدته
 الأمثال، وكثر فيه القيل والقال، وعملت بسببه أعمال وأعمال . قال بعضهم :
 قالوا صف الموت يا هذا وشدته فقلت وامتد مني عندها الصوت
 يكفيكم منه أن الناس إن عجزوا عن وصف ضربهم قالوا هو الموت
 وقد أمر عليه الصلاة والسلام بذكر الموت وأعاد القول فيه، تهويلاً لأمره
 وتعظيماً لشأنه .

ذكر النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :
 « أكثروا ذكر هادم اللذات، الموت (٤٤) » .
 وهذا كلام مختصر وجيز، وقد جمع التذكرة، وأبلغ في الموعظة، فإن من ذكر الموت
 حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة، ومنعه من تمنيتها في المستقبل، وزهده فيما
 كان منها يؤمل .

ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ
 وتزويق الألفاظ . وإلا ففيما ذكر من قوله عليه الصلاة والسلام : « أكثروا من ذكر
 هادم اللذات، الموت » ما يكفي السامع له، ويشغل الناظر فيه . (٤٥) .

ويروى عن عطاء الخراساني أنه قال :

مر رسول الله ﷺ بمجلس قد ارتفع فيه الضحك فقال : « شوبوا (٤٦) »
 مجلسكم بذكر مكدّر اللذات . قالوا : وما مكدّر اللذات ؟ قال : الموت .
 وخرج يوماً عليه الصلاة والسلام إلى المسجد، فإذا قوم يتحدثون
 ويضحكون، فقال : اذكروا الموت، أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم
 لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .

(٤٣) آية ٤ من سورة ق .

(٤٤) رواه النسائي ٤/٤ في الجنائز . جامع الأصول ١١/١٤ .

(٤٥) تذكرة القرطبي ص ٨ .

(٤٦) شوبوا : امزجوا، اخلطوا .

وعن ابن عمر قال: اتيت رسول الله ﷺ عاشر عشرة، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله من أكيس (٤٧) الناس، قال: أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم له استعدادا. قبل أن ينزل به أولئك الأكياس (٤٨) ذهبوا بشرف الدنيا وكرم الآخرة.

وقال عليه الصلاة والسلام: أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد (٤٩).

ويروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: تركت فيكم واعظين ناطقا وصامتا، فالناطق القرآن والصامت الموت.

ويروى أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به. وهذه الأحاديث رويتها من طريق أبي بكر البزار، والقاضي أبي الحسن بن صخر، وأبي علي الغساني، وغيرهم.

وقال أبو الدرداء: من أكثر ذكر الموت قل فرحه، وقل حسده.

وقال بعض أصحاب الحسن: كنا ندخل على الحسن فما هو إلا النار والقيامة والآخرة وذكر الموت.

وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت، مات كل عضو منه على حدته وقال التيمي رحمه الله: شيئا قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الوقوف بين يدي الله عز وجل.

وقال مطرف بن عبد الله: رأيت في ما يرى النائم كأن قائل يقول في وسط جامع البصرة: قطع ذكر الموت قلوب الخائفين، فوالله ما تراهم إلا والهين محزونين (٥٠).

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد.

(٤٧) أكيس: أظن وأذكي.

(٤٨) الأكياس: جمع كَيْسٍ بتشديد الياء وهم العقلاء الأذكياء.

(٤٩) هذا الحديث سقط من ل.

(٥٠) الإحياء: ٤٥١/٤ والواهين: جمع واله وهو شديد الحزن.

وقال لعتبة: أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك^(٥١).

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد! من ذا الذي يصلي عنك بعد الموت؟! من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟! من ذا الذي يُرضي عنك ربك بعد الموت؟!

ثم يقول: أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ ويا من الموت موعده، والقبر بيته، والثرى فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله؟! ثم يبكي حتى يسقط مغشيا عليه^(٥٢). ويروى أن عيسى عليه السلام كان إذا ذكر عنده الموت والقيامة يقطر جسده دما.

وعن داود عليه السلام أنه كان إذا ذكر عنده الموت والقيامة بكى حتى تنخلع أوصاله، فإذا ذكرت الرحمة رجعت.

وكان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يجمع الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، فيكون حتى كأن بين أيديهم جنازة. وأنشد بعضهم:

يا باكيا من خيفة الموت
وناد يالهففى على فسحة
ضيعتها ظالم نفسي ولم
ياليتهاعادت وهيئات أن
فخل عن هذي الأماني ودع
وبادر الأمر فما غائب
كم شائد بيتا ليغنى به
وأعلم أن كثرة الموت تردع عن المعاصي، وتلين القلب القاسي وتذهب الفرح بالدنيا وتهون المصائب فيها، وإن من لم يخففه في هذه الدار، ربما تمناه في

(٥١) الإحياء ٤/٤٥١.

(٥٢) تذكرة القرطبي ص ٩.

الآخرة فلا يؤتاه، وسأل فيه ولا يعطاه .

وكتب رجل إلى بعض إخوانه :

يا أخي احذر الموت في هذه الدار، من قبل أن تصير إلى دار تتمنى الموت فيها فلا يوجد، ويطلب فيها فلا يدرك .

ويروى أن امرأة شكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة في قلبها، فقالت لها: اكثري من ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت، فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة .

وقال الحسن : فضح الدنيا والله هذا الموت، فلم يترك فيها لذي لب (٥٣) فرحا .

وقال : ما رأيت عاقلا قط إلا وجدته حذرا من الموت حزينا من أجله .

وقال كعب الأحبار: من ذكر الموت هانت عليه المصائب .

وقال حامد اللفاف : ويح ابن آدم إن أمامه ثلاثة أشياء : موت كريبه

المذاق، ونار أليمة العذاب، وجنة عظيمة الثواب .

وأعلم أن الموت لن يمنعه منك مانع، ولا يدفعه عنك دافع وإن فيه لزجرا للبيب، وشغلا للأريب، ومنبهة للنائم، وتنشيطا للمستيقظ . وانه للطالب المدرك، والمتبع اللاحق، والمغير الذي يبعث الطليعة ويعجل الرجعة، ويسبق النذير العريان . لا يرده الباب الشديد، ولا البرج المشيد، ولا اللجب العرمم (٥٤) ولا البلد البعيد .

وروى خيثمة عن سليمان بن مهران الأعمش قال وحَدَّثَ به غيره أيضا - إن رجلا كان جالسا مع نبي الله سليمان عليه السلام، فدخل عليه داخل، فجعل ينظر إلى الرجل الجالس مع سليمان، ويديم النظر إليه . فلما خرج قال له الرجل : يا نبي الله من هذا الرجل الداخل عليك؟

قال : ملك الموت . قال : يا نبي الله لقد رأيتك يدوم النظر إلي ويشخص فيّ وإني لأظنه يريدني . قال : فما تريد؟ قال : يا نبي الله أريد أن تأمر الريح فتأخذني فتلقيني في أبعد جزائر البحر، فإنه قد أطاش عقلي وأذهب لبي ونقض كل عضو

(٥٣) اللب : العقل .

(٥٤) العرمم : الكثير .

في بدني .

فأوحى الله تعالى إلي سليمان أو ألقى في نفسه أن يفعل ذلك ، فأمر الريح فأخذته فألقته حيث أراد . فما استقر بالأرض حتى نزل عليه ملك الموت فقبض روحه ، ثم رجع إلى سليمان فقال له سليمان : رأيتك تديم النظر إلى جليسي . قال : نعم كنت أتعجب منه ، لأنني أمرت بقبض روحه في أبعد بلاد الهند في ساعة قريبة من الوقت الذي كان عندك فما هو إلا أن خرجت ، قيل لي انزل عليه فإنه بها فنزلت عليه فوجدته بها ، فقبضت روحه . وأنشد بعضهم :

ما أنت والرشأ الأحوى^(٥٥) تغازله والركب تسأل عنه بانه الواد
وقد أظلك جيش للردى لجب كالبحر يوصل أمدادا بأمداد
من كل داهية لو أنها مثلت شخصا لأظلم منها كل وقاد
لا يمنع المرء منها رأس شاهقة ولا يرد شباها^(٥٦) نسج زراد
وأنت غاد على ظهر الطريق وما لديك من ناصر يرجى ولا فاد
كأنني بك مصروعا لوطأته هذا أو ان مغار الفارس العاد
قم قد أتيت ولا منجي ولا وزر للويل أصبحت من ركض وانشاد
صح بالندی وبالقصر المشيد عسى هيهات هيهات كان القصر والناد
يا راقدا وعيون الموت ساهرة لقد أعرت لأمر غير رقاد
واعلم أن في النظر إلى الميت ومشاهدة حاله ، وسكراته ونزعاته وتأمل صورته بعد مماته ما يقطع عن النفوس لذاتها ، . ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمنع الأجفان من النوم ، والأبدان من الراحة ، ويبعث على العمل ، ويزيد في الاجتهاد والتعب .

يروى أن الحسن البصري رحمه الله دخل على مريض يعوده ، فوجده في سكرات الموت ، فنظر إلى كربه وعلته ، وشدة ما نزل به ، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم ، فقالوا له : الطعام يرحمك الله ، أتأكل ؟ فقال :

(٥٥) الرشأ : ولد الظبية . والأحوى : الذي به حوة وهي سواد يضرب إلى الخضرة او حمرة إلى السواد . والمراد هنا المرأة الجميلة .

(٥٦) شباها : اشتعالها والمراد شدتها وكأنها نار مشتعلة .

يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم ، فوالله لقد رأيت مصرعا لا أزال أعمل له حتى ألقاه .

وقال بعض العلماء : أي عيش يطيب وليس للموت طيب؟! .

وقال بعض الزهاد : لنا من كل ميت عظة بحاله ، وعبرة بهاله .

وقال ابن مسعود : كفى بالموت واعظا ، وباليقين غنى وبالعبادة شغلا .

واعلم أن الموت وإن كان هو المصيبة العظمى ، والرزية الكبرى ، فأعظم

منه الغفلة عنه ، والإعراض عن ذكره ، وقلة التفكر فيه ، وترك العمل له ، وإن

فيه وحده لعبرة لمن اعتبر ، وفكرة لمن تفكر .

وفي خبر مروى عن النبي ﷺ : «لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما

أكلتم منها سمينا» (٥٧) .

ويروى أن رجلا من الأغنياء نزل به داء في وجهه ، فعجز أطباء بلاده عن

معالجته ، ولم يجدوا سبيلا إلى شفائه ، فخرج يضرب في الأرض ويحترق البلاد ،

ويطلب علاجا لدائه ، وفرجا لبلائه ، فدل على طيب حاذق ببلاد الهند ، فقطع

إليها الفاوز (٥٨) البعيدة ، وركب إليه البحار الخطرة ، واللجج الهائلة ، حتى

وصل إليه بعدما كاد أن يهلك فدخل عليه فوجد رجلا ملقى على فراشه جلده

على عظم ، فسلم عليه ، فأحسن الرد وأظهر البشر ، وسأله عن ٩/أ حاله ومن

أي البلاد هو ، وما الذي جاء به فأخبره خبره ، وأنه إنما جاء يلتمس معالجة دائه .

فقال له : كم معك من المال؟ وما جئت به من البضاعة؟ فأخبره . فقال له : آخذ

منك نصف ما معك وأعالجك حتى تستريح؟ فأجابه إلى ذلك ودفع إليه نصف

ما عنده ، فعالجه ولا طفه حتى ذهب عنه الألم وجميع ما كان بوجهه ، ولم يبق به

شيء ، إلا أن موضع الداء بقي أسود دون ألم يجده فيه . فقال له : لقد بريء

داؤك وذهبت علتك ، وقد استوجبت ما أخذته منك . فقال له : أيها الفاضل أو

ما ترى الموضوع قد بقي أسود مخالفا لونه لوني؟ وكيف يكون هذا البرء؟ وكيف

تكون هذه الصحة؟ وكيف تستوجب ما أخذته مني؟

(٥٧) تذكرة القرطبي ص ٤ .

(٥٨) الفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء سميت بذلك تباؤلا .

فقال له : لم أشارتك على نقاء اللون وبياض البشرة ، وإنما شارطتك على ذهاب الألم وحسم الداء ، ولست أنظر لك فيما تريده من إزالة هذا السواد إلا بأن تدفع إلي النصف الثاني من مالك .

فقال له : أيها الفاضل أنا رجل غريب بعيد الدار، ناءٍ عن الأهل ، وإذا دفعت لك النصف الثاني بقيت منقطعاً بي عن أهلي ووطني ، فقيراً بأرض غربة ، عالة على من لا يعرفني .

فقال له : لا بد لك من أن تعطيني ما قلت لك ، وإلا لم أنظر لك في شيء مما تريد .

فلما رأى الرجل أنه لا يجيبه إلى معالجته والنظر في أمره حتى يعطيه ما سأل ، أجابه إلى ما أراد ، ودفع إليه النصف الثاني ، فعالجه حتى ذهب عنه سواده .

فلما برىء قال له : أبقى لك شيء ؟ فقال لا ، قال فاستوجبت ما أخذته منك ؟ قال نعم .

فقال له : يا هذا إني لم آخذ مالك رغبة فيه ولا لأستأثر به دونك ، ولكن أردت أن أدري مقدار نفسك عندك ، وأيهما أحب إليك ، المال أم هي . فقد رأيت ، وهذا مالك كله مردود عليك ، لا والله لا آخذ منه درهما واحداً ، فردّه عليه ، ثم قال له : ما نحلّكم التي تنتحلون ؟ وما شريعتكم التي بها تتشرعون ؟ فقال له : نحن مسلمون . فقال : وما مسلمون ؟ فقال : نحن أمة محمد ﷺ قال : وما محمد ؟ قال : رجل من العرب ثم من قريش بعثه الله تعالى إلينا رسولا ، واختاره صفياً أميناً ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وذكر لنا أن بين أيدينا يوماً يبعث فيه الأموات ، ويجازي فيه بالسيئات والحسنات .

فقال له : وكيف انتم في اتباعه ؟ قال : إنا لنسلك في غير (٥٩) هديه ، ونترك كثيراً من أمره .

قال : والله يا هذا ما أقول بما تقولون ، وما ردني كما ترى جلدة على عظم إلا الفكرة في الموت خاصة ، وفيما هو ، فكيف لو قلت بما تقولون مما بعد الموت من

(٥٩) غير: سقطت من ل.

الحساب والعقاب، والجزاء والثواب؟ ما رأيت أقل عقولا منكم .
ثم دفع إليه ماله وانصرف .

حدثني بهذه الحكاية أبو عمرو الشريف رحمه الله تعالى .
وهذا الكلام الأخير منها في ذكر الموت وغيره شككت هل ذكره في الحكاية
أم لا . ولكني قد سمعته من غيره .

ويروى أن أعرابيا كان يسير على جبل له ، ٩/ب فخر الجمل ميتا ، فنزل
الأعرابي عنه وجعل يطوف به ويتفكر فيه ويقول :

ما لك لا تقوم؟ مالك لا تنبعث؟ هذه أعضاؤك كاملة، وجوارحك
سالمة، ما شأنك، ما الذي كان يحملك، ما الذي كان يبعثك، ما الذي
صرعك، ما الذي عن الحركة منعك؟ ثم تركه وانصرف متفكرا في شأنه،
متعجبا من أمره .

وأنشدوا في هذا المعنى (٦٠) :

ومجرر خطية ^(٦١) يوم الوغى	منسابةً من خلفه كالأرقم
تتضاءل الأبطال ساعة ذكره	وتبيت منه في إباءة ضيغم
شرس المقادة لا يزال ربيئة	فمتى يحس بنار حرب يقدم
تقع الفريسة منه في فوهاء ^(٦٢) إن	يطرح بها صم الحجارة يحطم
ظمان للدم لا يقوم برّيه	إلا المروق في الجسوم من الدم
جاءته من قبل المنون إشارة	فهوى صريعا لليدين وللقم
ورمى بدحكم درعه وبرمحه	وامتد ملقى كالفتيق ^(٦٣) الأعظم
لا يستجيب لصارخ إن يدعه	أبدا ولا يرجى لخطب معظم
ذهبت بسالته ومرغرامه	لما رأى خيل المنية ترتم
يا ويحه من فارس ما باله	ذهبت فروسته ولما يكلم

(٦٠) القرطبي ص ٤ . وقد ذكر أن الأبيات انشدت في بعض الشجعان مات حتف أنفه .

(٦١) خطية : رماح منسوبة الى الخط وهو بلد عرف بصنع الرماح .

(٦٢) فوهاء : الفرس الفوهاء واسعة الفم ، مذكورها أفوه .

(٦٣) الفتيق : الجمل الضخم ، او الغرارة .

هذي يدها وهذه أعضاؤه
هيهات ما خيل الردى محتاجة
هي ويحكم أمر الأله وحكمه
يا حسرة لو كان يقدر قدرها
خبر علمنا كلنا بمكانه
وكأننا في حالنا لم نعلم
ككيف إذا أضاف إلى الفكرة في الموت، الفكرة فيما بعد الموت، وفي حال
الميت ومآله. وما يجازي به من أقوال وأفعال، وفي أي متجرفاته، وأي بضاعة
فرط فيها، وأي علق نفيس من العمر ضيَّعه؟!

هنالك تطيش الألباب، وتذهل العقول، وتخرس الألسن، وتنبذ الدنيا
بالعراء وتطرح بجميع ما فيها بالوراء.

وقال ابن السماك رحمه الله تعالى: إن الموتى لم يبكوا من الموت، ولكنهم
يكونون من حسرة الفوت، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها، ودخلوا دارا لم يتزودوا
لها، فأية ساعة مرت على من مضى؟ وأية ساعة بقيت علينا؟ والله إن المتفكر في
هذا لجدير أن يترك الأوطان، ويهجر الخلان، ويدع ما عز وما هان.

ويروى أن ملكا من ملوك بني اسرائيل كان كلما ولد له ولد فبلغ مبلغ
الرجال وعقل ما يعقله الرجال، لبس مسوحوه وتعلق برؤوس الجبال، وسلَّك
بطون الأودية، يعبد الله عز وجل، فلم يزل ذلك دأبه حتى ولد له ولد، فشب
إلى أن ولد له ولد، فجمع رجاله وخاصته وقال: تعلمون ما كان من أمر بني،
وأنه ليس منهم واحد بقي معي ولا التفت إلي، وإنه ليس يصلح لكم ولا
يستقيم أمركم إلا بأن يليكم واحد من ولدي، وإني أخاف إن لم يكن ذلك أن
تهلكوا ١٠/ أهلاكي، فخذوا ولدي هذا فربوه، وقوموا بأمره، فإذا شب وعقل
فزينا له الدنيا، وعظّموا قدرها عنده.

ثم أمر فبني له قصر عظيم فرسخا في فرسخ، وجمع له المراضع، وأكثر له
من الحواضن، ووكل به رجالا من عقلاء أصحابه ووجوه دولته.
وأمر إذا فهم وعقل - أن لا يخرج من ذلك القصر، ولا يذكر عنده الموت، ولا
يبصر ميتا في موضع يكون فيه، مخافة أن يسمع بالموت أو يرى ميتا فيسأل عنه

يفسر له ، فتتنغص عليه لذته ، وتتكدر عليه حياته ، ويزهد في الملك ويسلك مسلك إخوته ويلحق بهم ويحذو حذوهم .

فبقي الغلام على ذلك لا يذكر عنده موتا ولا يسمعونه حديثا ميتة ولا يطلعونه عليه ، ولا يذكر عنده إلا الدنيا وتعظيمها والفرح بها والإقبال عليها ، وتعظيم آباءه الملوك ، وأجداده العظماء ، والترغيب في الاقتداء بهم ، والمشي على طريقهم والاستئنان بسنتهم .

إلى أن شب الغلام وعقل ما يعقله الناس ، فمشى ذات يوم في ذلك القصر وطاف في أرجائه ، وقد أهدق به خاصته والموكلون به ، فانتهى إلى سور القصر ، فقال : ما وراء هذا السور؟ وما خلف هذا الحائط؟ فقالوا له : وراءه الأرض الواسعة والبلاد الكثيرة ، والجمل الغفير من الناس ، وكل ذلك لك وللملك أبيك . فقال أخرجوني حتى أنظر وأرى . فأبوا حتى يشاوروا أباه ، فشاوروه وأخبروه بأنه يريد أن يخرج ويرى الناس ، وظنوا أنه يحكمهم .

فأذن لهم فأخرجوه ، فرأى ونظر ، فأول ما وقع بصره من الناس على شيخ كبير قد سال لعبه من فيه ، وسقط حاجباه على عينيه من الكبر .

فقال : ما هذا؟ فقالوا : شيخ كبير . فقال : وما شيخ كبير؟ قالوا كأن شابا فعمرو وعاش حتى أصابه الهرم فعمل به ما ترى . قال : وما الهرم؟ قالوا : الكبر وطول العمر يعيش إلى أن تقل طاقته وتضعف حركته حتى لا يقدر أن يمسك لعبه في فيه ، مع علل أخر تعتريه من طول الحياة .

قال : أويصيبكم هذا أو هو شيء يصيب قوما دون قوم؟ قالوا : هو ليس مختصا بأحد دون أحد ، بل يصيب كل من طال عمره ، قال : ويصيبني أنا مع ما أنا فيه من النعيم وضروب اللذات وبلوغ الشهوات؟ قالوا نعم ويصيبك أنت إن طالت بك الحياة . فقال : أف لعيش يكون آخره هذا .

ثم رجع إلى قصره ، وقد تكدر عليه بعض نعيمه ، وتتنغص عليه بعض ما كان فيه . فعالجوه بكل هو وكل باطل ، حتى استخرجوا من قلبه ما كان وقع فيه من أمر الهرم والكبر .

فأقام عاما، ثم أمرهم أن يخرجوه ثانية، فأبوا عليه وخافوا من أبيه. ثم إنه عزم عليهم فأخرجوه، فأول من رأى من الناس شاب به جذام أو غيره من الأدواء. فقال: ما هذا ومم يكون؟ فقالوا هذا فساد في المزاج، وتحريك في الأخلاط فيتولد عنه هذا وغيره. قال أهذا وحده أصابه أم كلكم يخاف أن يصيبه هذا الداء؟ ١٠/ب قالوا: ما عند أحد أمان، كل أحد خائف من هذا الداء ومن غيره، فإن الدنيا دار أمراض وأسقام ورزايا وبلايا.

قال: وأنا أخاف؟ قالوا وأنت، قد أخبرناك أنه ليس لأحد أمان على نفسه، قال: فأصابه من الغم أكثر مما أصابه في المرة الأولى. فرجع ورجعوا، ولم يزالوا يشغلونه بضروب المحابِّ وأصناف الملائد حتى أخرجوا من قلبه ما كان وقع فيه أو كادوا.

وأقام كذلك حولا، ثم قال: أخرجوني، فأخرجوه فنظر فإذا برجل ميت يحمل، قال: ما هذا؟ قالوا ميت. قال: وما ميت؟ قالوا رجل مثلنا نزل به قضاء إلهي وحادث سماوي فأطفأ شرارته، وأخمد حرارته، وردده حجرا من الحجارة، وجمادا من الجمادات، فقال: علي به حتى أراه، فجاءوا به، وكشف له عنه.

فقال: كلموه. فقالوا: إنه لا يتكلم.

فقال: أجلسوه. فقالوا: إنه لا يجلس.

فجعل ينظر إليه ويتفكر فيه، ثم قال: وهذا وحده خص بهذا الحادث أو انتم كلكم ينزل بكم مثل ما نزل بهذا؟

قالوا: كلنا فيه سواء، وكلنا ينزل به هذا الحادث. قال: وأنا؟ قالوا:

وأنت، وقد أخبرناك. قال: لا يدفع عني أبي؟ قالوا: ولا يدفع عنك أبوك ولا يدفع عن نفسه. فقال: إن نعيما يصير آخره إلى هذا الجدير أن يتكدر، وإن قلبا يحظر به ذكر هذا لحقيق أن يتفطر.

قال: وما تصنعون به؟ قالوا: نحفر له حفرة في الأرض، ونرد عليه التراب إلى يوم النشور والعرض. قال: وما النشور والعرض؟ قالوا: هو يوم يبعث فيه الأموات، وتظهر فيه المخبات، ويكون... ويكون... قال: ولا بد منه؟ قالوا: لا بد منه. فقال: وهذه أشد.

فعمل الكلام في نفسه عمله، وأخذ الكلام في قلبه مأخذه فتغير وجهه، وضعف جسمه، وشحب لونه، وأقصر عما كان فيه من تلك الراحة وتلك البطالات.

فأخبر أبوه بخبره، ووصف له حديثه، فقال: أو قد فعلها؟ قالوا: نعم. فداراه أبوه بكل شيء، فلم ينفع فيه شيء، وهون عليه الأمر فلم يهن، وسلاه فلم يتسل. فقال له أبوه: لا جرم والله لأدعئك تلحق بإخوتك. فبعث إليه ثيابه من المسوح فلبسها وخرج في جوف الليل، فتعلق بالجبال، ولحق بإخوته فتعبد معهم. وكان يقول في مناجاته: اللهم إني أسألك أمرا ليس إليّ قد سبقت به المقادير. لوددت أني كنت الطير في الهواء، أو السمك في الماء، ولم أكن شيئا مذكورا مخافة الحساب والعقاب.

واعلم رحمك الله أن كثرة الاشتغال بالدنيا، وإفراغ المجهود فيها، والميل بالكلبة إليها، وحلاوة أحاديثها، ولذة أمانيتها، تمنع حرارة ذكر الموت! أن ترد على القلب وأن تلج (٦٤) فيه، لأن القلب إذا امتلأ بشيء لم يكن لشيء آخر فيه مدخل ولا لسواه فيه مجال. ألا ترى أن الإناء إذا ملأته بشيء لم يمكنك أن تدخل عليه شيئا آخر؟ ووجهك إذا صرفته إلى موضع صرفته عن موضع آخر. ومتى دام القلب على هذا لم يكن لذكر الموت فيه تأثير ولا لترداده عليه حلاوة (٦٥) ١١/أ وكيف يؤثر فيه وهو لا يجد مكانا ينزل فيه، ولا موضعا يتعلق به، قد ملأه حب الشهوات الفانية، واللذات المنصرمة، فهو شبعان ريان حيران سكران، أصم أعمى. إن عرض عليه طريق هدى لم يره، أو نودي باجتئاب رديء لم يسمع.

فإذا أراد صاحب هذا القلب سماع الحكمة، والانتفاع بالموعظة لم يكن له بد من تفرغ، ليجد التذكر فيه منزلا، وتلقى الموعظة فيه محلا قابلا، فلا يزال يتعاهده ويتفقد بالأذكار والأفكار، والنظر والاعتبار، آناء الليل وأطراف النهار، لئلا يرجع إلى ما كان عليه من الرين (٦٦)، ويعود إلى حالته الأولى من

(٦٤) تلج: تدخل.

(٦٥) حلاوة: في زجلاء.

(٦٦) الرين: الطبع والدنس.

الغين (٦٧).

وإن لم يقدر على تفرغه بمرة فرغ منه ما أمكن، وجعل مكان ما أزاله ضده، فيجعل مكان الغفلة ذكرا، ومكان الفرح حزنا، ومكان الاغتراب ندما، ومكان السهوتيقظا، ولا يزال هكذا يزيل شيئا ويجعل مكانه ضده، ويستعين بجعل هذا على إزالة هذا، وبإزالة هذا على جعل هذا، وبالله تعالى يستعان على كل ما يحاول، وبمنه وتيسيره سبحانه يتناول كل ما يتناول، لا رب غيره ولا معبود سواه.

وأعلم - رحمك الله - أن مما يعينك على الفكرة في الموت ويفرغك له، ويكثر اشتغالك به، تذكُّر من مضى من إخوانك وخلانك وأصحابك وأقربائك الذين مضوا قبلك، وتقدموا أمامك، كانوا يحرصون حرصك، ويسعون سعيك، ويأملون أمملك، ويعملون في هذه الدنيا عملك، وقصت المنون أعناقهم، وقلعت أعراقهم، وقصمت أصلابهم، وفجعت فيهم أهليهم وأحباءهم، فأصبحوا آية للمتوسمين (٦٨)، وعبرة للمعتبرين.

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جمعا؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: فأخذ بيدي وأتى بي واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رؤوس وعظام وخرق بالية وعذرات، فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم، وتأمل كأملككم، ثم هي اليوم عظام لا جلد عليها، ثم هي صائرة رمادا. وهذه العذرات (٦٩) ألوان أطعمتهم، اكتسبوها من حيث اكتسبوها، ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها (٧٠)، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم (٧١) فأصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن كان باكيا على الدنيا فليبك، قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا.

(٦٧) الغين: لغة في الغيم.

(٦٨) المتوسمين: توسم الرجل الشيء، تفرسه وتعرفه.

(٦٩) العذرات: جمع عذرة وهي الغائط.

(٧٠) يتحامونها: يبتعدون عنها.

(٧١) الرياش: الفاخر من اللباس والمتاع.

رويت هذا الحديث من طريق أسد بن موسى .

ويتذكر أيضا ما كانوا عليه من حدة الجلباب ، ونضرة الإهاب ، وما كانوا يسحبونه من أردية الشباب ، وأنهم كانوا في ظلال النعيم يتقلبون ، وعلى أسرة السرور يتكثون ، وبما شاءوا من محابهم يتنعمون ، وفي أمانهم يقومون ويقعدون ١١/ب لا يتحدثون بزوال ، ولا يهمون بانتقال ، ولا يخطر الموت لهم ببال .

قد خدعتهم الدنيا بزخرفها ، وخلبتهم برونقها ، وحدثتهم بأحاديثها الكاذبة ، ووعدتهم بمواعيدها المخلفة ، لم تزل تقرب لهم بعيدها ، وترفع لهم مشيدها ، وتلبسهم غضها (٧٢) وجديدها ، حتى إذا تمكنت منهم علائقها ، وتحكمت فيهم رواشقتها ، وتكشفت لهم حقائقها ، ورمقتهم (٧٣) من المنية رواقها ، فوثبت عليهم وثبة الحنق ، وأغصتهم غصة الشرق ، وقتلتهم قتلة المختنق .

فكم عليهم من عيون باكية ، ودموع جارية ، وخذود دامية ، وقلوب من الفرح والسرور لفقدهم خالية .

وأشددوا في هذا المعنى :

يميل على حكم الصبا ويميدُ
خلوبا ألباء (٧٤) الرجال تصيدُ
وللمرء منها قائم حصيدُ
فينقص من أطماعه ويزيدُ
وتفعل تدني الشيء وهو بعيدُ
فراح بها المغررو وهو حصيدُ
وعاد حديثا ي قضي ويبيدُ
ولا طلعت فيه عليه سعودُ
وتدمي جفون إثره وخذودُ

وربان من ماء الشباب إذا مشى
تعلق من دنياه إذ عرضت له
فأصبح منها في حصيد وقائم
خلا بالأماني واستطاب حديثها
وأدنت له أشياء وهي بعيدة
أتيحت له من جانب الموت رمية
وصار هشيما بعد أن كان يانعا
كأن لم ينل يوما من الدهر لذة
ليبكي عليه زهوه وشبابه

(٧٢) الغض : النضر الطري .

(٧٣) رمقه : أطال النظر اليه .

(٧٤) ألباء : جمع لبيب وهو الرجل العاقل .

تبارك من يُجري على الخلق حكمه فليس لشيء منه عنه محيدٌ
 يا لله مصرعهم كم فيهم من مجرر ذيل إعجابه، متطاول على أصحابه،
 متعاضم على أقرانه وأترابه، تجمع له الأمانى، وترتاح إلى وصله الغواني، إن
 بُصر لا يستبصر، وإن أمر لا يأتمر، وإن زُجر لا يكف ولا ينزجر، لا يسمع إلا
 داعي الهوى، ولا يستجيب إلا لمن إليه دعا، يلهو ويفرح، ويمزح ويمرح،
 ويبيت من دنياه مثل ما كان أصبح . قد أبدأ في أمره وأعاد، وأحكم غيه (٧٥)
 فأجاد، وأشاد من أمله ما أشاد، حتى إذا نال مراده أو كاد، صاحت به المنية
 صيحة الغضبان، وصدمة صدمة اللهفان، فهدت أركانه وكسرت أغصانه،
 وفرقت أنصاره وأعوانه، فأصبح قد باع النفيس بالدون، وأعطى الثمين
 بالثمنون، ومضى يعرض بنانه المغبون، لم يرح بئال، ولا حصل على طائل .
 فعوذ بالله من سوء الأقدار وسوء الاختيار.
 وأنشدوا:

جر ذيل التيه (٧٦) والغني
 ومر يرتاح إلى وصله
 لا ينثني عن خوف شيء ولا
 وبات من دنياه في مثل ما
 حتى إذا ما نال أو كاد أن
 صيح به في سربه (٧٧) صيحة
 وإنفذ الأمر على رغمه
 ولم يرح من ذاك إلا بما
 تبارك الله وسبحانه
 وقال من مثلي في الحي
 ما شاء من زينب أو مي
 يسمع إلا داعي الغني
 أصبح من نشر ومن طي
 ينال منها جرعة الري
 ضعضع منه كل ما شي
 وأنجز الوعد بلا لي
 راح الذي يقبض في الفبي (٧٨)
 ما أقرب الموت من الحي
 وبالله كم هنالك من ملك طويل النجاد رفيع العماد، عظيم الأجناد كثير

(٧٥) الغني: الضلال.

(٧٦) التيه: الاعجاب بالنفس.

(٧٧) السرب: الطريق، البيت.

(٧٨) الفبي: الظل.

الأمداد، قد ملك البلاد وقهر العباد، ووصل من دنياه إلى كثير مما أراد، قعد ونهض، وأبرم ونقض، وجعل أمره المفترض وحكمه الذي لا يرد ولا ينقض، ودلّما حرق وهدم، وكسر وحطم وزلزل ودمدم، واسترحم فلم يرحم. ومضى على ما شاء من رأيه وصمّم.

بنى المدائن والحصون، وأكثر من ماله المخزون، واستعد لما قد يكون أو لا يكون، حتى إذا استحكمت له الأمور، وأطال الفرح والسرور، وزخرف الدساكر والقصور، وظن أن قد ساعده فيما بقي من أمله المقدور، قلبت له الدنيا ظهر المجن، وكسته من خطبها ما أجنّ، وسقته من كزيها ما يسكر به ويجنّ، نظرت بعينها الشوساء^(٧٩) إليه، وقبضت ما كان في يديه، وأتت بنيانه من قواعده فألقته عليه، فأصبح وقد هدم ذلك البنيان، وسقط ذلك الإيوان، وتبددت تلك المقاتلة والفرسان، وتفرقوا شذر^(٨٠) مذر بكل مكان، وأصبح كل ما كان كأنه ما كان، وقيل ملك في سالف الزمان ملك يقال له فلان بن فلان، لم يحصل مما ملك من البلاد، ولا ما ادخر من المال وأعد من العتاد، إلا على حنوط وكفن، وحفرة ضيقة العطن، يجتبس فيها ويرتهن، بكل ما عمل من قبيح أو حسن.

وأنشدوا:

ياباني القصر الكبير	بين الدساكر والقصور
ومجرد الجيش الذي	ملأ البسيطة والصدور
ومدوّخ الأرض التي	أعيت على مر الدهور
أما فزعت فلا تدع	بنيان قبرك في القبور
وانظر إليه تراه كي	ف إليك معترضا يشير
واذكر رقادك وسطه	تحت الجنادل والصخور
قد بددت تلك الجيو	ش وغيرت تلك الأمور
واعترضت من لين الحريد	رخشونة الحجر الكبير
وتركت مرتنا به	لا مال ويك ولا عشير

(٧٩) الشوساء: العين التي تنظر بغیظ وتكبر.

(٨٠) شذر مذر: اي تفرقوا في كل وجه.

حيران تعلن بالأسى
ودعيت باسمك بعدما
ولأنت أهون فيه من
إن لم يُجَد بالعفو من
هذا هو الحق اليقيني

لهفان تدعو بالثبور
قد كنت تدعى بالأمير
جُعِل على نتن يدور
يعفون عن الذنب الكبير
من وكل ذاك هو الغرور

وأنشدوا أيضا :

أباد ذا الدهر أملاكاً وما ملكوا
أدار دورته في أرضهم فعدت
رمي بهم حيث لا قيعان تمسكهم
هوت هويّ ثقيل الصخر أمهم
غدت رؤوسهم من تحت أرجلهم
يابطشة من حكيم ما بها مهل
جروا إلى اللهوملأى من أعتهم
حطوا بدار البلى في منزل حرج
لطال ما نقضوا ملكاً وما هدموا
مروا وما بلغوا كل الذي طلبوا
أضحاهم اليوم صرف الدهر إذ هلكوا
وأنشدوا أيضا :

وإدار مستعقبا عليهم الفلك
كالراح (٨١) ليس بها لناظر نبك (٨٢)
ولا مرارا بها المرمي يمتسك
فلا حسيس ولا ركز (٨٣) ولا حرك
وزلزلت بهم الأطباق والدرك
وغضبة من عزيز ما لها درك
حتى إذا ما رأوا خيل الردى برکوا
وليتهم ويحهم فيهن لو تركوا
عزا وما هتكوا سترًا وما فتكوا
ولا قضوا وطراً من كل ما تركوا
كما أضلهم بالأمس إذ ملكوا

أفاض على الملك سرياله
وصاح فوافاه ما شاء من
وزلزلت الأرض من أجله

وجرر في العز أذياله
هزبر (٨٤) يعلل أشباله
وقال فكان الذي قاله

(٨١) الراح: جمع راحة وهي الأكف.

(٨٢) النبك: أصول الأشجار، والمراد أن أرضهم أصبحت خراباً.

(٨٣) الركز: الصوت الخفي.

(٨٤) الهزير: الأسد.

ولا بد يوماً له ان يصيح
ولا أحد مستجيب له
وتأتيه في سربه روعة
ويطرح فرداً بدار البلى
فكم قائل منه لا يبعدن
فقل للذي شاد سلطانه
تأهب لتصدع صدع الزجاج
وتحمل مما جمعت الأجاج (٨٥)
وإن ما نسيت فلا تنسين
هنالك تعلم عقبي الذنوب
يا بؤس الدنيا، شدا عن ثديها فطمتمهم، ومن سمها أطعمتمهم، وبيدها
الباطشة لطمتمهم، وفي ظلمات الأرض وغيابات الثرى طرحتهم فقلبت قائم
تلك الأعيان، وطمست تلك الوجوه الحسان، وأعمت تلك الأبصار، وأصمت
تلك الأذان، وأسالت الأحداق على الحدود والوجنات، وغسلت بالصديد
جميل القسمات، وملأت بالتراب اللهازم واللهوات (٨٧)، وكسرت تلك
الضواحك والرباعيات، وعبثت بجسوم أولئك الفتيان والفتيات .
لطالما أغربوا ضاحكين، وتقلبوا فاكهين، وباتوا على سررهم مطمئين
آمنين، فكم بها من لسان فصيح لطال ما أنشد. وخطب، وأرهب ورغب، ومدح
فأطنب (٨٨)، وكم بها الآن من فصيح لسان وعظيم بيان أخرسه الحدثان،
وتحكمت فيه الهوام والديدان .
وأنشدوا:

وذي بيان إذا ما قال أو خطباً أتى بسحر يزين القول والخطباً

(٨٥) الأجاج: الماء المالح .

(٨٦) السلسال: الماء العذب .

(٨٧) اللهازم: جمع لهزمة وهي عظم ناقة؛ في اللحي تحت الأذن، واللهوات: جمع لهاة وهي اللحم المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم .

(٨٨) أطنب: أطال .

أتى بسهولة من الألفاظ ممتنع
فلو تميع أضحي مشربا سلسا
رمته هذي المنايا وهي صائبه
فأخرسته فما يبدي بضاحكة
وبات مطرحا في قعر موحشة
أعطى يديه لدنياه بما طلبت

وكم هناكم من مسعر حرب قد لبس أوزارها، وأضرم نارها وأوصل إلى
القلوب أوراها، وأقام سوقها ورفع غبارها.

كم أغار من غارة شعواء، وفتك من فتكة شنعاء، وأثار من فتنة عمياء،
وصال بجنان، وطعن بسنان، وركض بحصان ولعب بفرسان وفرسان، وقال:
خذها وأنا فلان بن فلان.

هاهو اليوم قد خبل جناحه (٨٩) وتكسر سنامه (٩٠)، وأكبّ به حصانه، لأمه
الويل، وحسرة سوداء مثل الليل.
وأنشدوا:

ومقدام على الأهوال صدق
تبيت لذكره الأبطال سكرى
يرضّ فرائص (٩١) الفرسان رضا
طموح السيف لا يثنيه شيء
أشار الموت من بعد إليه
وكبّ حصانه ونبا شباه
وأنسي أن يقيم لواء روع
وإن أنت أطلت اعتبارك، وأمعتت استبصارك فكم بها من غادة قد هضم

(٨٩) الجنان: بفتح الجيم، القلب.

(٩٠) السنان: الرمح.

(٩١) الفرائص: جمع فريضة وهي اللحمة بين الجنبو الكنف ترتعد عند الفرع.

(٩٢) الثبور: الهلاك.

وشاحها، ونور مصباحها، ومليء فتنة غدوها ورواحها، قد فتكت بذلك الأسد
الهمصور، واقتنصت ذلك الفارس المذكور.

أدلت إدلأها، وجرت أذياها، وأرسلت جماها، فعملت أعمأها، وسلبت
الملوك قلوبها وأموأها.

ما كان بأوشك من أن صارت جيفة من الجيف، تبعد وتصرف وتنكر ولا
تعرف، أحسن أحوأها أن تلف في سربأها، وتدفع لخمأها، فتطرح في شق من
الأرض قريب الطول والعرض، مظلم القعر إلى يوم القيامة والحشر. قضاء الله
النازل من سمأته، وحكمه في عبيده وإمأته.

وأنشء بعضهم:

عرج على القبر بدار البلى
حيث هوى بدر الدجى ساقطا
وحيث حلت داعيات الهوى
ياظبية بطن الثرى أسكنت
حقا تمطيت على رزمة (٩٣)
وطال ما بت على سندس (٩٤)
وجسمك الناعم حقا به
وطال ما أثر من قبل ذا
وثغرك (٩٥) العذب وياويلتي
ولو به عل قتل الهوى
وشعرك الجثل (٩٦) وعهدي به
قد عششت فيه بنات (٩٧) الثرى
ياحسرتا ثمت يا حسرتا

حيث منى نفسي مقبور
قد زال عن صفحتيه النور
أجمع مسموع ومنظور
وبيتها في القصر معمور
جنبك منها اليوم مكسور
بالذهب الإبريز مصفور
للرب تشقيق وتفطير
في لينة هم وتفكير
فيه من الديدان جهور
قبل لأضحى وهو منشور
فيه فتيت المسك منشور
ففيه تشعيث وتغيير
لو كان يغني اليوم تحسير

(٩٣) رزمة: صخرة عظيمة.

(٩٤) سندس: نوع من الحرير.

(٩٥) الثغر: الفم.

(٩٦) الجثل: الكثر الملتف الأسود.

(٩٧) بنات الثرى: الديدان وهولم الأرض.

ياتا التي أعجبها عطفها قبرك في الأقبور محفور
وكلنا ذاك ولكننا كل بهذي الدار مسحور

فأنت إذا تذكرت بهذه الأذكار، وأطلت لها الترداد والتكرار، وأعملت فيها النظر والاعتبار، ورأيت أنك واحد من المذكورين، ملك أو غير ذلك من أصناف الناس، ورأيت خلقك كخلقهم وصدقتك كصدقتهم، وأنه لا بد أن يصيبك من الموت ما أصابهم، وينزل بك منه ما نزل بهم، وأنت تشاهد بهذه الدار أنواع المصيبات وأجناس البليات، وضروبا من المهلكات، وأن الموت واحد وأسبابه كثيرة.

فمن رجل باشر الكفاح فتخللته الرماح، وتمكنت من رقبتة الصفاح (٩٨) وربما كان هذا أسهلهم مماتا وأكرمهم وفاة.

وإن قد طرح في أيدي أعدائه، وأسلم لبلائه، فقطعوه إربا إربا، وفصلوه عضوا عضوا.

وثالث ردوا مشارع العقاب إليه، وصبوا العذاب عليه وما مات حتى كان الموت أحب عائد إليه، وأكرم قادم يقدم عليه.

ورابع قد أمسى اكلة حوت في ظلمات البحار.

وخامس فريسة أسد في موحشات القفار.

إلى غير ذلك من الأمراض الصعبة، والآلام الشاقة وما تظنه وما لا تظنه، حتى إن الرجل ليغص بالطعام، ويشرق بالشراب، فيكون في ذلك حتفه، وتذهب فيه نفسه.

كما قال القائل:

وما طريق الموت في ذا الورى
وربما لذ لامريء شربة
واحدة بل جمعة (٩٩) لاجبه (١٠٠)
فانقلبت وهي له شاربته

(٩٨) الصفاح: صفحات السيوف.

(٩٩) جمعة: كثرة.

(١٠٠) لاجبة: شديدة.

وأَسباب الموت أكثر من أن أحصيتها لك، وأَعدها عليك، ولا تدري ما السبب الواصل إليك منها، ولا النصيب الذي قسم لك من جملتها، وإنك لا تدري متى يهجم عليك الموت فيقضمك، ولا متى ينزل بك فيحطمك، ولعله لا يمهلك حتى ينقضني نَفْسك.

فأنت إذا واطبت على هذا تمكن ذكر الموت من قلبك، وملكت القيادة من نفسك، ونظرت بعون الله عز وجل في أمرك، ومهدت المضجع من قبرك، وأعددت به الأنيس ليوم حشرِك.

وإلا فقد نبه من حذر، وأعذر من أندر، ولا لوم إلا على المقصر، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولعلك تقول: يا هذا قد أرعدت في ذكر الموت وأبرقت، وطولت فيه وعرضت، وعرضت في كلامك بمن عرضت، وأمرت بالتفكير فيه والاشتغال بذكره، وجمع الهمم له، وتقصير الأمل والخوف من انقضاء الأجل.

وأَي فائدة في ذكر الموت وأنواعه، وضيق العمر واتساعه، وهذا أمر قد فرغ منه وأعجزت الحيلة فيه؟

وكما تقول لي لا تكثر الاشتغال بأمر الرزق، ولا تغتم له ولا تتفكر فيه فإنه مقدر مفروغ منه، وما ترزق يأتيك، فكذلك الموت أيضا وأسبابه، والعمر ومدته، وكل ذلك أمر مقدر مفروغ منه، ما قدر علي يصيبني، وما كتب علي يأتيني.

فأقول نعم كلاهما قد سبق في الأزل، وكتب في القسم الأول، والسبب الذي كتب عليك في الموت لن تتعداه ١٤ / أ والعمر الذي قسم لك لن تتخطاه. ولكن بين الأمرين في الاشتغال بهما فرقان: وذلك أن الرزق المقدر المفروغ منه لا يزيد فيه حرصك، وكذا لا ينقص منه كسلك وعجزك، وإن كانت له أسباب، ولطلبه أبواب، فقد تتعلق بأسبابه، وتأتيه في الظاهر من أبوابه، فتكون أحد المحرومين والمجاهدين والمجدودين^(١٠١)، فهذا أمر قد شوهد بالعيان وعلم به كل إنسان، فلا يفيدك الطلب إلا العناء والتعب.

(١٠١) المحدودين: المحظوظين.

ولست بمأجور في ألم الحرص ، ولا فيما تتحمل من مشقة الطلب لاكثر مما تحتاج إليه ، وربما تبرمت في الحال ولم تنظر في المآل وسخطت قضاء الله وقدره عليك ، وحكمه فيك ، وإرادته لك من أفعال الخير وأعمال البر (١٠٢) ، وفي هذا مافيه .

وقد تؤجر فيما يصيبك من ألم المشقة في طلب أكثر مما تحتاج إليه إذا كان لك فيه نية صالحة من صدقة أو صلة رحم ، أو غير ذلك من أفعال الخير وأعمال البر .

وأما إن كان سعيك ذلك للتكاثر والتفاخر ومحبة في المال فلا ، والحول والقوة لله وحده .

وأما ذكر الموت والتفكير فيه فإنه وإن كان أمراً مقدرًا مفروغًا منه ، فإنه يكسبك بتوفيق الله سبحانه التجافي عن دار الغرور ، والإنابة (١٠٣) إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت والنظر فيما تقدم عليه ، وفيما يصير أمرك إليه ، ويهون عليك مصائب الدنيا ، ويصغر عندك نوائبها ، فإن كان سبب موتك سهلاً وأمره قريباً هيناً فهو ذلك ، وإن كانت الأخرى كنت مأجوراً فيما تقاسيه ، مثاباً على ما تتحملة .

واعلم أن ذكر الموت وغيره من الأذكار إنما يكون بالقلب وإقبالك على ما تذكره ، وإي فائدة لك - رحمك الله - في تحريك لسانك إذا لم يخطر بجنانك (١٠٤) ؟

وإنما مثل ذلك مثل من يكون في بعض أعضائه جراحة ، فيريد أن يداوئها فيجعل الدواء على عضو آخر صحيح ، ويدع العضو المريض ليس عليه شيء فانظر كيف يستريح هذا بهذا التداوي؟ ومتى يستريح؟ إلا أن يأتيه البرء من بارئه ، والشفاء من خالقه سبحانه وتعالى .

أو مثل من يريد أن يوقظ نائماً فيدعه في غمرة نومه ، ويوقظ غيره ، فانظر كيف يستيقظ له ذلك الذي أراد ايقاظه بإيقاظ هذا الآخر ، أو متى يستيقظ؟!

(١٠٢) من أفعال الخير وأعمال البر: هذه العبارة سقطت من ز .

(١٠٣) الإلتابة: الرجوع .

(١٠٤) يخطر: في ز تحضر . والجنان: القلب .

وإنما سنة الله تعالى الجارية أن يقصد العضو المريض بدوائه، والنائم بما يوقظ به، اللهم إلا أن يكون في إيقاظ هذا النائم حركة عظيمة، ومعالجة كثيرة تتعدى إلى ذلك النائم الآخر فيستيقظ، فيكون إذن كأنه قصده بالإيقاظ مع صاحبه، وإما إن كانت حركته لا تتعداه فإن النائم الآخر يبقى بحاله، وفي غمرات نومه حتى يوقظه الذي أنامه، ويحركه الذي أسكنه تبارك وتعالى.

وإنما مثل الذكر الذي يعقب التنبيه، ويكون له معه البرء من السقم، والإيقاظ من النوم، أن تحضر المذكور قلبك، وتجمع له ذهنك وتجعله نصب عينيك، ومثالا حاضرا بين يديك، وأن تنظر إلى كل ما تحبه من الدنيا من ولد أو أهل أو جاه أو غير ذلك، فتعلم أنه لا بد لك من مفارقتها ١٤/ب، إما في الحياة أو في الممات، سنة الله الجارية، وحكمه المطرد.

وتشعر هذا قلبك، وتفرغ له نفسك، فتمنعها بذلك عن الميل إلى ذلك المحبوب، والتعلق به، والهلكة بسببه.

كما قيل: يا ابن آدم لا تعلق قلبك بما يأخذك منك الفوت أو يأخذك أنت عنه الموت.

ونظر رجل إلى بُني له صغير يمشي بين يديه، فأعجبه حسنه، وأهنته حركته، فقال: يا بُني لولا الموت لعلقت قلبي بك ولأكثرت من حبي لك.

ونظر ابن مطيع يوما إلى داره، فأعجبه حسنها، فبكى ثم قال: والله لولا الموت لكنت بك مسرورا، ولولا ما أصير إليه من ضيق القبر لقرت عيني بك، ثم بكى حتى ارتفع بكأؤه وعلا نحيبه.

واعلم أن طول الأمل داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه، واشتد علاجه، ولم يفارقه داء، ولا نجع فيه دواء، بل أعياء الأطباء، ويئس من برئه الحكماء والعلماء.

وقد روى في طول الأمل وذمه، وفي التحريض على العمل والترغيب فيه ما في بعضه الكفاية، وما بأقل منه يوصل إلى المقصود، بعون الله تعالى.

قال، الله تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ (١٠٥).

(١٠٥) - آية ٣ من سورة الحجر.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يزال قلب الشيخ شابا في اثنتين: حب الدنيا وطول الأمل» (١٠٦). ذكره البخاري ومسلم وغيرهما.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خط لنا رسول الله ﷺ خطا مربعا وقال: هذا الأجل، وخط في وسطه خطا، وقال هذا الإنسان، وخط في عرضه - يعني في جانبه - خطوطا فقال: هذه الأعراض، وخط خطا خارجا وقال: هذا الأمل، قال: فالأعراض تنهشه وعينه إلى الأمل (١٠٧)».

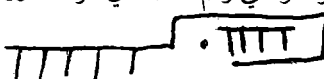
يريد عليه الصلاة والسلام أن الإنسان قد أحاط به أجله، وأنه دائره، فحيثما توجه لقيه، وأن فتن الدنيا ومحنها تعترضه وتنهشه، وتتلقاه وتستقبله، وهو مع ذلك بعيد الأمل، مصروف النظر إليه.

ويروى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ عودا فغرزه بين يديه وغرزه عودا آخر إلى جنبه قريبا منه، ثم أخذ عودا ثالثا فغرزه بعيدا منه، ثم قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم.

فقال: هذا الإنسان، وأشار إلى العود الذي بين يديه، وهذا الأجل، وأشار إلى العود الذي إلى جنبه، ثم قال: وذلك الأمل وأشار إلى العود الثالث البعيد. فالإنسان يتعاطى الأمل ويختلج به قبل ذلك الأجل (١٠٨).

ويروى أن النبي ﷺ اطلع ذات يوم على الناس فقال: ألا تستحيون من الله؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تجمعون مالا تأكلون، وتأملون مالا تدركون. (١٠٩)

(١٠٦) البخاري ٢٠٥/١١ في الرقاق. ومسلم رقم ١٠٤٦ في الزكاة. والترمذي رقم ٢٣٣٩ في الزكاة. وابن ماجه رقم ٤٢٣٣ في الزهد. وهو في جامع الأصول بلفظ: قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: حب العيش او قال: طول الحياة وحب المال.

(١٠٧) رواه البخاري ١١/١٤ و١٢ في الرقاق. والترمذي رقم ٢٤٥٦ في الزهد. ورسمه ابن حجر في فتح الباري ١١/١٨٧ هكذا:  انظر جامع الأصول ١/٣٩٠.

(١٠٨) أخرجه احمد وابن ابي الدنيا عن أبي سعيد الخدري. واسناده حسن. تخريج أحاديث الأحياء للعراقي ٤/٤٦٣.

(١٠٩) أخرجه ابن ابي الدنيا، ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف. (تخريج أحاديث =

وروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسول الله ﷺ ١٥/أ يقول : ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل ، والذي نفسي بيده ما طرفت عيني إلا ظننت أن شفائي لا يلتقيان حتى تقبض روحي ، ولا طعمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أعص بها من الموت ، ثم قال : يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، فوالذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين . (١١٠) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كان رسول الله ﷺ يهريق الماء فيتيمم بالتراب ، فأقول : يارسول الله إن الماء منك قريب ، فيقول : ما يدريني لعلي لا أبلغه (١١١) . ذكره الحارث بن أبي أسامة في مسنده .
وروى عنه عليه السلام أنه قال : نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ، وهلك آخرها بالبخل والأمل . (١١٢)

ومن كلام بعضهم : (١١٣) أيها الجاري في أمله ، رويدك فإن الزمان يفتل قيدك ، وربما صرعتك قبل أن تنال ما به خدعتك ، وقتلك قبل أن تستوفي أملك ، فأوردك منهل رداك ، وأشمت بك عداك وأخذك بما كسبت يداك ، وربما أدركت ما طلبت واستوفيت ما أملت ، فأخذك أخذة أسف قبل فلّ عرشك وهدم حوضك ، وأطبق سماءك وزلزل أرضك ، ورمى بك حيث لا يرعى لك ذمة ، ولا تدرك رحمة ، ولا تنكشف عنك كربة ، ولا تنجلي عنك غمة .
وأنشدوا :

أمّل من دنياه ما أمّلا وقال ما قال لأن يفعل
وصال في هذا الورى ضلولة بزّ بها الآخر والأولا
وطبّق الأرض بفرسانه وهذّ منها شعفات الفلا

= الاحياء للعراقي ٤/٤٥٣ .

(١١٠) أخرجه ابن ابي الدنيا والطبراني وابونعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب بسند ضعيف .

(١١١) أخرجه ابن المبارك وابن أبي اللينيا والبخاري بسند ضعيف .

(١١٢) أخرجه احمد وابن أبي الدنيا .

(١١٣) من هنا الى قوله : لا ولا انفردت به نسخة ل .

وقال هذي ثمرات المنى
فمن حريم فض ختامه
حتى إذا بات على عرشه
صاح به صرف الردى صيحة
ودك في الأرض بياوانه
ومر لا ينعش من عثرة
فلا سقت مصرعه مزنة

وخطب علي رضي الله عنه فقال: ألا وإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع،
وان الآخرة قد أقبلت وآذنت باطلاع، ألا وإن المضمار اليوم، والسباق غدا، ألا
وإن السبقة الجنة، والغاية الموت، ألا وإنكم في أيام مهل، ومن ورائه أجل يحته
عجل، فمن عمل في أيام مهله قبل حضور أجله نفعه عمله، ولم يضره أمله،
ومن لم يعمل في أيام مهله قبل حضور أجله ضره أمله، وساءه عمله.

وقال علي رضي الله عنه: ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة
قد أشرفت مقبلة، وإن لكل واحدة منهما بنين، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا
من أبناء الدنيا. ألا وإن اليوم عمل بلا حساب، وغدا حساب بلا عمل، ألا
وإن من أشد ما أخاف عليكم خصلتين: طول الأمل، واتباع الهوى. أما طول
الأمل فإنه ينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فإنه يصد عن سبيل الله.

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثلاث أعجبني حتى أضحكنتي،
وثلاث أحزنتني حتى أبكتني، أما الثلاث الأول: فمؤمل دنيا والموت يطلبه،
وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط عليه رب
العالمين أم راضٍ عنه.

أما الثلاث التي أحزنتني حتى أبكتني ففراق محمد ﷺ، وفراق الأحبة
أصحابه، والوقوف بين يدي الله تعالى ولا أدري أيؤمر بي إلى الجنة أم إلى
النار؟

وقال أبو بكر زكريا التيمي: بينما هشام بن عبد الملك في المسجد الحرام إذ
أتى بحجر مكتوب فيه باللسان العجمي، فطلب من يقرؤه له فأتى بوهب بن

منبه رحمه الله، فقرأه، فإذا فيه: يا ابن آدم لورأيت قرب ما بقي من أجلك
لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك
وحيلك، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك
وحشمك(١١٤)، ففارقك الولد والقريب، ورفضك الوالد والنسيب.
فلا أنت لدنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة، يوم
الحسرة والندامة.

١٥/ ب وقال الحسن البصري رحمه الله: كان آدم عليه السلام قبل أن
يخطيء الخطيئة أمله خلف ظهره، والموت نصب عينيه، فلما أصاب الخطيئة
تحول أمله فصار بين عينيه، وصار أجله خلف ظهره.
وقال الحسن: ما أطال عبد الأمل إلا نسي العمل.

ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق،
فقال: يا أهل دمشق ألا تسمعون من أخ لكم ناصح. إن من كان قبلكم كانوا
يجمعون كثيرا، وبينون مشيدا، ويأملون بعيدا، فأصبح جمعهم بورا(١١٥)،
وبنيانهم قبورا، وأملهم غرورا، هذه عاد قد ملأت البلاد أهلا ومالا وخيلاً
ورجالا، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين؟

وقيل لبعض الزهاد بالبصرة: ألك حاجة ببغداد؟ فقال: ما أحب أن
أبسط أمني حتى تمضي إلى بغداد وتجيء.
وأنشدوا:

يا ذا المؤمل آمالا وإن بعدت عنه ويزعم أن يحظى بأقصاها
أنى تفوز بما ترجوه ويك وما أصبحت في ثقة من نيل أدناها
وأنشدوا أيضا:

ما الأمر أمرك في حل ولا ظعن تجول في جلد جلدان ومنفسح
ردت أوائلها بالموت فانقبضت والموت يقبض ذا الأحزان والفرح

(١١٤) حشمك: الحشم: من يغضب للرجل من أهل وعبيد أو جيرة.

(١١٥) بورا: البور، الهلاك.

ويادر الأمر ما أصبحت في مهل من المشيب ومن مداك في فسح
فربما سكنت في الحال عاصفة وعاد غور مياه القوم للنضح

وقال بعض الحكماء: الأمل كالسراب، غرّ من رآه، وخيب من رجاه.
وخطب عمر بن عبدالعزيز يوماً فقال: ألا إن لكل سفرزادا، فتزودوا
التقوى لسفركم من الدنيا إلى الآخرة، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه
وعقابه، ولا يطولن عليكم الأمد فتفسو قلوبكم وتتقادوا لعدوكم، وإنه والله ما
بسط الأمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه، ولا يمسي بعد صباحه.
وبين ذلك خطفات المنايا وهجمات المنون، وإنما تفرعين من وثق بالنجاة
من عذاب الله تعالى، وإنما يفرح من أمن من أهوال يوم القيامة.

وأما من لا يداوي جرحاً إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح؟
أعوذ بالله أن أمركم بما أنهى عنه نفسي، فتخسر صفقتي وتظهر غباوتي. إنكم
قد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لا نكدت (١١٦) أو الجبال لذابت، أو الأرض
لتشقت.

أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزل، وأنكم صائرون إلى
أحدهما.

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: بينما نحن نصلح خُصماً لنا إذ مر
بنا رسول الله ﷺ، فقال: ما هذا؟ فقلنا يارسول الله قد وهى فنحن نصلحه.
فقال ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك» ذكره الترمذي (١١٧).

والخص بيت من قصب، يريد عليه السلام تعجيل الأمر وتقريبه وخوف
بغته، والحذر من فجأته.

وقيل للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟
فقال: الأمر أعجل من ذلك. وكان الحسن رحمه الله تعالى قصير الأمل طويل

(١١٦) انكدت: تناثرت.

(١١٧) الترمذي رقم ٢٣٣٦ في الزهد، وأبو داود رقم ٥٢٣٥ و٥٢٣٦ في الأدب، وابن ماجه رقم
٤١٦٠ في الزهد. جامع الأصول ١/٦١٥.

الخوف، وكان يأتي عليه الأحيان يظن الظان أن الموت قد نزل به، وأنه في سياقه من كثرة تفكره فيه وتخيله له .

وقال داود الطائي رحمه الله تعالى : لو أملت أن أعيش شهرا لرأيت أني قد أتيت عظيما، وكيف أمل ذلك وأنا أرى الفجائع تنزل بالخلائق آناء الليل والنهار.

وقيل للربيع بن خيثم رحمه الله تعالى : كيف أصبحت؟ فقال : كيف يصبح رجل إذا أصبح لا يدري أنه يمسي، وإذا أمسى لا يدري أنه يصبح .؟
امتثل الربيع رحمه الله الحديث ١٦/أ المروي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب .
رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي (١١٨) وقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعدّ نفسك من أهل القبور، فإذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن غناك لفقرك، ومن صحتك لسقمك، فإنك لا تدري يا عبدالله ما اسمك غدا .

وقوله : إذا أصبحت . . الكلام إلى آخره . . أكثر ما يروى من قول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما .

ذكر الحديث الترمذي وغيره . (١١٩)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله ﷺ بمثل كتاب، كتبه إليّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وهو : أما بعد فإن الانسان يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليديره، فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا، ولا بما فاتك منها ترحا، ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل فكأن قد نزل بك الأجل، والسلام .

وقال بعض الحكماء [في موعظة له : كلنا نتيقن الموت وما نرى له منا

(١١٨) المنكب : مجتمع رأس الكتف والعضد . وهما منكبان .

(١١٩) رواه البخاري ١١/١٩٩ في الرقاق . والترمذي رقم ٢٣٣٤ في الزهد . جامع الأصول

مستعدا، وكلنا نتيقن الجنة وما نرى لها منا عاملا، وكلنا نتيقن النار وما نرى لها منا خائفا، فعلام تعرجون^(١٢١)؟ وما عسى تنتظرون؟ وماذا ترجون أو ماذا تأملون؟ الموت أول قادم يقدم عليكم بخير أو شر، فيا إخوتنا سيروا سيرا جميلا^(١٢٠)].

وقال آخر: العاقل يعتمد على عمله، والجاهل يعتمد على أمله.
وقال آخر: بطول الأمل تقسو القلوب، وبإخلاص النية تقل الذنوب.
ويروى عن شقيق البخعي أنه جاء إلى استاذ له يقال له أبو هشام وفي طرف كسائه شيء مصرور، فضرب عليه الباب، فخرج إليه، فرأى ما في كسائه، فقال له: ما هذا الذي في كسائك؟ فقال: يا أستاذ دفع إليّ أخ لي لويزات^(١٢٢)، وقال: أحب أن تظطر عليها، فقال له: يا شقيق وأنت تحدث نفسك أن تعيش إلى الليل؟
لا أكلمك. ثم أغلق الباب في وجهه ودخل.

ويروى عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: أكلكم يجب أن يدخل الجنة؟ قالوا نعم يارسول الله. قال: فقصروا آمالكم، وثبتوا آجالكم بين أبصاركم، واستحيوا من الله حق الحياء.

وقال بعضهم: رأيت زرارة بن أبي أوفى في المنام بعد موته، فقلت له: أي الأعمال أبلغ عندكم؟ قال: التوكل وقصر الأمل.
وقال بعضهم في موعظة له: أيها الناس حسنوا أعمالكم، وقصروا آمالكم واعلموا أن الموت معقود بنواصيكم، وأن الدنيا تطوى من ورائكم. وأنشدوا:

عقد الموت منكم بالنواصي
ففراراً ولات حين فرار
قد طوتكم صروف هذي الليالي
ودفعتم منه هول القصاص
ومناصا ولات حين مناص
عن كمال فعدتم لانتقاص

(١٢٠) ما بين المربعين سقط من ش وز.

(١٢١) تعرجون: تميلون وتتركون.

(١٢٢) لويزات: تصغير لوزات واحدة اللوز.

أحكمت أسركم وما من أسير
كم ركضتم وراءها من جياد
وانتضيتم لحرها من نصالٍ
ونزلتم مساربا وغياضا
وإلى ذا فما وجدتم نجاة
رحتم مشخين جرحا وقتلا
فاطلبوها بما لكم من قصاص
فذروها ذميمة دار دنيا
وإذا امتدت الاماني فيها
فاقطعوا ذكرها بذكر مقام
وان ارتاع من حديث فؤادي
وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل وليس أكل الخشن ولبس
العباءة، وصدق الثوري رحمه الله: فإن من قصر أمله لم يتأنق في المأكولات
والمطعمومات، ولا يتفنن بالملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسر، واجترأ منها بما
يلغفه.

وفي بعض الخطب: أيها الناس إن سهام الموت قد فوقت (١٢٣) إليكم
فانظروها، ١٦/ب وحباله الأمل قد نصبت بين أيديكم فاحذروها، وفتن الدنيا
قد أحاطت بكم من كل جانب فاتقوها ولا تغتروا بما أنتم فيه من حسن الحال
فإنه إلى زوال، ومقيمه إلى ارتحال، ومتمده إلى تقلص واضمحلال. (١٢٤)

أما تسمعون أيها الناس لما به توعظون؟ أما تعتبرون بما إليه تنظرون؟ أما
تفكرون فيما عنه تزولون وفيما إليه ترجعون وعليه تقدمون؟ أين من تقدمكم
وكان قبلكم ممن أمّل أملكم وسعى سعيكم، وعمل عملكم؟ أين الذين بنوا
المدائن وملأوا الخزائن واستعدوا لما هو عندهم كائن؟ أين الذين غرسوا في روضة
الملك ونظموا الآمال في سلك؟ وهتكوا حجبتها أيما (١٢٥) هتك؟ وكانوا في ظاهر

(١٢٣) فوقت: صوتت.

(١٢٤) اضمحلال: تلاشي وانحلال.

(١٢٥) أيما هتك: أي هتكاً شديداً.

أعمالهم في ريب من الزمان وفي شك؟

انظروا إليهم كيف نضبت لهم تلك المياه، وذبلت منهم تلك الشفاه،
وتكسرت عند سقوطهم تلك الوجنات وتثلمت تلك الجباه، وتغيرت الأحوال،
وانكمشت الآمال، وبقيت شاهدة عليهم تلك الرسوم والأطلال (١٢٦).

وأشدوا:

وما بها لليب ترفع العرشُ
ولو عقلت لما لانت لك الفرشُ
وللمواريث ما تسعى وتفرشُ
بالحرص تلدغ جنباه وتنتهشُ
يضم هذا إلى هذا ويحتوشُ
ألقى على صدره (١٢٧) لسانه العطشُ
وطاف من حوله أهله واحتوشوا
خسنا لا دهش فيها ولا رخش
وأجهشته ولما يدرما الجهشُ
وقد تغطوا بذاك المال وافترشوا
شم الأنوف بروض الملك قد عرشوا
أو غولبوا غلبوا أو بوطشوا بطشوا
كتائب للمنايا كلها حبش
منارهم بظلام ما به غبش
وطال ما رفعوا الأجسام واعترشوا
ولا حسيس ولا ركز ولا وقش (١٢٩)
فأصبحوا قبضوا الآمال وانكمشوا

رفعت عرشك في الدنيا وتهت به
وبت فيها على فرش مليونية
وظلت تسعى لآمال وتفرشها
كم كان قبلك من مأسور رغبته
يمسي ويصبح في حل وفي ظعن
عطشان للمال محمأة جوانحه
حتى إذا قيل قد تمت مطالبه
مدت إليه يد للموت باطشة
فقصعته (١٢٨) وقدمما كان ذا جيد
فبات مستلبا ويات وارثه
أما سمعت بأمالك مضوا قدما
إن دوفعوا دفعوا أو زوحوا زحموا
جاءتهم وجنود الله غالبية
فضعضت جنبات عزهم ورمت
لطال ما أكلوا وطال ما شربوا
مروا فلا أثر منهم بدارهم
قد كان للقوم آمال مبسطة

(١٢٦) الأطلال: جمع طلل وهو ما بقي من البناء بعد زواله

(١٢٧) على صدره: في زعلى ظهره وهو غير مقعول.

(١٢٨) قصعته: طحنه. والجيد: طول العنق. أجهشته: أعجلته، جعلته يبكي.

(١٢٩) وقش: حركة.

ويروى أن أمير المؤمنين المهدي رحمه الله تعالى نام ليلة، ونساؤه حوله، فانتبهن لبكائه، فقلن له: ما شأنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ما رأيتم الشيخ؟ قلن: لا والله ما رأينا أحدا، فقال: دخل عليّ شيخ وأنا بين النائم واليقظان، والله لو كان بين ألف رجل لعرفته، فأنشدني:

كأنّي بهذا القصر قد باد أهله وأوحش منه ركنه ومنازله
وصار عميد القصر من بعد بهجة ومملك إلى قبر عليه جنادله
ولم يبق إلا ذكره وحديثه ينادي بويل معولات حلائله
فقلن له: أضغاث أحلام، خيرا رأيت، فوالله ما أتت عليه سابعة حتى مات. (١٣٠)

واعلم أن الناس في قصر الأمل وطوله مختلفون، وفي درجاته متفاوتون، فمنهم من يؤمل أن يعيش أقصى ما يعيشه إنسان ممن شاهد أو سمع به في زمانه، ولو كان الاختيار إليه لما مات أبدا، حبا منه للدنيا وكلفا بها، وتلذذا بالبقاء فيها، وهيئات ليس للإنسان ما تمنى، ولا أن يدرك كل ما فيه تعنى، وغاية هذا أن يتمنى طول العمر، ويود أن لويبقى الأحقاب الكثيرة من الدهر. قال الله تعالى في قوم كانوا كذلك: ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ (١٣١).

ويمكن أن يكون ١٧ / أهؤلاء تمنوا طول البقاء، لأنهم كانوا لم يتحقق في الآخرة لهم رجاء، لكفرهم بمحمد ﷺ، وتكذيبهم له مع صحة نبوته عندهم، لكن حملهم بغيهم وحسداهم له على الكفر به والإنكار لدعوته، وكانوا يقولون إنهم يدخلون النار ثم يخرجون منها فيتمنون لذلك طول العمر.

وهذه الآية نزلت في اليهود، ومنهم من يؤمل أن يعيش ستين سنة وسبعين سنة وأكثر من ذلك، ومنهم من يؤمل أن يعيش فوق ذلك ودون ذلك، حتى إن منهم من لا يجاوز أمله يومه وربما كان أمله أقصر من ذلك، بل منهم من يكون الموت نصب عينيه يتوقعه مع الأنفاس أن يثب عليه.

(١٣٠) هذه الحكاية عن المهدي انفردت بها نسخة ل.

(١٣١) آية ٩٦ البقرة.

يذكر عن الأسود الحبشي أنه كان يلتفت يمينا وشمالا، فقيل له ما هذا الالتفات؟ قال: انظر ملك الموت من أين يأتيني.
وأشدد بعضهم من كلمة:

والبس لهذا الموت جبة خائف قد ضاق عنه مسلك ومقام (١٣٢)
لا نأمنن عليك من إقدامه فله على هذا الوري إقدام
واكحل جفونك بالرقاد لأجله فالسهد جلُّ والمنام حرام
إلا غرارا كالغذاء تناله لولا الضرورة ما وجدت تنام
ومن العجائب أن تراه نائما من طالبوه ساهرون ينام
وكان بعض الصالحين يقول: ما أحسبني إلا رجلا قد أقعد ليقتل، ووجد
السيف عليه ومدت عنقه، فهو ينتظر أن يضرب، فيلقى رأسه بين يديه، فستان
مابين الرجلين.

وآخر قد مد في عمره، وطول في أمله، فازداد في كسله، ودخل
الوهن (١٣٣) في عمله.

ورجل آخر قد جعل التقوى بضاعته، والعبادة صناعته، ولم يتجاوز بأمله
ساعته، بل جعل الموت نصب عينيه، ومثالا قائما بين يديه، وسيفا مصلتا
عليه، فهو مرتقب له، مستعد لنزوله، لا يشغله عن ارتقابه شاغل، ولا يصرفه
عن الاستعداد له صارف، قد ملأ قلبه وجلا، وعمره عملا، وعد يوما واحدا
يعيشه بقاء ومهلا، وغنيمة تملأ نفسه سرورا وجدلا، لازدياده فيه من الخير،
وادخاره فيه من الأجر، واكتسابه عند الله عز وجل من جميل الذكر.
ومثل هذا قد رفع التوفيق عليه لواءه، وألبسه رداءه، وأعطاه جماله،
ومهاه.

فانظر رحمك الله تعالى أي الرجلين تريد أن تكون، وأي العاملين تريد
أن تعمل، وبأي الرءاين تريد أن تشتمل، وبأيهما تريد أن تتزين وتتجمل،
فلمست تلبس هناك إلا ما لبسته هنا، ولا تحشر هناك إلا فيما كنت فيه هنا، إن

(١٣٢) انفردت بهذه الأبيات نسخة ل.

(١٣٣) الوهن: الضعف.

صلاح فصلاح، وإن فجور ففجور.

ولعل هذا هو تأويل الخبر المروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يبعث الميت في ثيابه التي مات فيها» (١٣٤) لأنه قد صح أن الناس يبعثون حفاة عراة. وهذا الخبر ذكره أبو داود في السنن.

وأشددوا:

قد طواك الزمان شيئاً فشيئاً
ورمت منك حادثات الليالي
كان ما كان وانقضت مدة العم
وقديماً قد أعلمتك الليالي
فادرك منها فائتاً بمتاب
واتخذ للهيام ويحك ريباً
وإذا ما خرقت بالدين خرقة
وإذا ما وردت مورد دنيا
ولتدعها تحيلاً وأمانياً
وإذا ما الحيام جاءك يوماً
واعلم أن طول الأمل حجاب على قلبك يمنعك من رؤية الموت
ومشاهدته، ووقر (١٣٦) في أذنك يمنعك من سماع وجبته (١٣٧) ودوي وقعته،
وبقدر ما يرفع لك من الحجاب ترى، وبقدر ما يخفف عن أذنك من الوقر
تسمع.

فانظر رحمك الله نظر من رفع الحجاب وفتح باب، واستمع سماع من أزيل
وقره، وخوطب سره، وبادر قبل أن يبادر بك، وينزل عليك وينفذ حكم الله
فيك، فتطوى صحيفة عملك، ويختم على ما في يدك، ويقال لك: اجن ما

(١٣٤) أبو داود رقم ٣١١٤ في الجناز. وإسناده صحيح. جامع الأصول ١١/١١٥.

(١٣٥) هذه الأبيات انفردت بها نسخة ل.

(١٣٦) الوقر: ثقل السمع.

(١٣٧) الوجبة: السقطة.

غرست ، واحصد ما زرعت ، واقرأ كتابك الذي كتبت ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبربك تبارك وتعالى شهيدا ورقيبا .

قال مالك بن دينار رحمه الله : رأيت ١٧ / ب في البادية في يوم شديد البرد شابا عليه ثوبان خلقتان ، وعليه آثار الدعاء ، وأنوار الاجابة ، فعرفته ، وكنت قبل ذلك عهدته في البصرة ذا ثروة وحسن حال ، وكان ذا مال وآمال .

قال فبكيت لما رأيته على تلك الحال ، فلما رأني بكى وبدأني بالسلام وقال لي : يا مالك بن دينار ، ما تقول في عبد أبق من مولاه؟ فبكيت لقوله بكاء شديدا ، وقلت له : وهل يستطيع المسكين ذلك؟ البلاد بلاده ، والعباد عباده ، فأين يهرب المسكين؟ فقال : يمالك سمعت قارئنا يقرأ ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ (١٣٨) فأحسست في الحال بنار وقعت بين ضلوعي فلا تحمد ولا تهدأ من ذلك اليوم يمالك أتراني أرحم وتطفأ هذه الجمرة من قلبي .

فقلت له : أحسن الظن بمولاك فإنه غفور رحيم .

ثم قلت له : إلى أين؟ قال إلى مكة شرفها الله تعالى لعلني أن أكون ممن إذا التجأ إلى الحرم استحق مراعاة الذمم .

قال مالك : ففارقني ومضى ، فتعجبت من وقوع الموعدة منه موقعها ، وما تأجج بين جنبيه من نار التيقظ والإنابة ، وما حصل عليه من صدق القبول وحسن الاستماع . واعلم أن الأمل يكسل عن العمل ، ويورث التراخي والتواني ويعقب التشاغل والتعاس (١٣٩) ، ويخلد إلى الأرض ويُميل إلى الهوى وهذا أمر قد شوهد بالعيان ، فلا يحتاج إلى بيان ، ولا يطلب صاحبه برهان .

كما أن قصره يبعث على العمل ، ويحمل على المبادرة ، ويحث على المسابقة ، وسأضرب لك في ذلك مثلا ، مثل ملك من الملوك كتب إلى رجل يقول له : افعل كذا وكذا ، وانظر في كذا وكذا ، وأصلح كذا وكذا ، وانتظر رسولي فلانا فإني سأبعثه إليك ليأتيني بك ، وإياك ثم إياك أن يأتيك إلا وقد فرغت من أشغالك ، وتخلصت من أعمالك ، ونظرت في زادك ، وأخذت ما تحتاج

(١٣٨) آية ١٨ سورة الحاقة .

(١٣٩) التعاس : التأخر .

إليه في سفرك، وإلا أحللت بك عقابي، وأنزلت عليك سخطي، وأمرته أن يأتيني بك مغلولة يداك مقيدة رجلاك مشمتا بك عداك، مسحوبا على وجهك إلى دار خزبي وهواني وما أعددته لمن عصاني.

وإن هو وجدك قد فرغت من أعمالك، وقضيت جميع أشغالك أتى بك مكرما مرفعا مرفها إلى دار رضواني وكرامتي، وما أعددته لمن امتثل أمري وعمل بطاعتي.

واحذر أن يخذعك فلان أو فلانة عن امتثال أمري، والاشتغال بعلمي. وكتب إلى رجل آخر بمثل ذلك الكتاب.

فأما الرجل الأول فقال: هذا كتاب الملك جاء يأمرني فيه بكذا وكذا، وذكر لي أن رسوله يأتيني ليحملني إليه، وأنا لا أمضي إليه حتى يأتيني رسوله، ولعل رسوله لا يأتيني إلا إلى خمسين سنة أو أكثر. فأنا على مهلة، وسأنظر فيما أمرني به، ولم يقع الكتاب منه بذلك الموقع، ولم ينزله من نفسه بتلك المنزلة، وقال: والله لقد أتى كتابه إلى خلق كثير بمثل ما أتاني، ولم يأتهم رسوله إلا بعد السنين الكثيرة، والمدد الطويلة وأنا واحد منهم، ولعل رسوله يتأخر عني كما تأخر عنهم، وجعل الغالب على ظنه أن الرسول لا يأتيه إلا إلى خمسين سنة كما ظن أو أكثر أو إلى المدة التي جعل لنفسه بزغمه^(١٤٠).

ثم أقبل على اشغال نفسه مما لا يحتاج إليه، ومما كان غنيا عنه، وترك أوامر الملك، والشغل الذي كلفه النظر فيها والاشتغال به، فكلما دخلت عليه سنة قال: أنا مشغول في هذه السنة وسأنظر في السنة المقبلة، والمسافة أمامي طويلة، والمهل^(١٤١) بعيد وهكذا كلما دخلت سنة قال: أنا في هذه مشغول وسأنظر في الأخرى، أو سأنظر في نصف السنة أو في الشهر الثاني منها، أو سأنظر غدا.

فبينما هو على ذلك^(١٤٢) من تسويفه واغتراره، إذ جاءه رسول الملك فكسربابه،

(١٤٠) في ش باضافة: فيما يظن.

(١٤١) في ي: والمنهل.

(١٤٢) في ز: على ذلك الحال.

وهتك حجابيه، وحصل معه في قعريته، وقال له: أجب الملك. فقال: والله لقد جاءني كتابه يأمرني فيه بأعمال أعملها، وأشغال انظر له فيها، وما قضيت منها شغلا، ولا عملت منها حتى الآن شيئا.

فقال له الرسول: ويملك؟ وما الذي أبطأك عنها؟ وما الذي حبسك عن الاشتغال بها والنظر فيها؟ فقال: لم أكن أظن أنك تأتيني في هذا الوقت.

فقال له: ويملك! ومن أين كان لك هذا الظن، ومن أخبرك به؟ ومن أعلمك بأني لا آتيك إلا في الوقت الذي تظن؟ قال: ظننت وطمعت وسوّلت لي نفسي ومنتني، وخدعني الشيطان وغرني.

فقال له: ألم يحذرك الملك في كتابه منها؟ وأمرك ألا تسمع لهما؟ قال: بلى والله لقد فعل، ولقد جاءني هذا في كتابه، ولكنني خدعت فانخدعت، وفتنت فافتنت، وارتبت (١٤٣) في وقت مجيئك فتربصت.

فقال له: ويملك! غرك الغرور، وخدعك المخادع، أجب الملك لا أمّ لك. قال: أنشدك بحق الملك إلا ما تركتني حتى أنظر فيما أمرني به، أو في بعضه أو فيما تيسر منه، حتى لا أقدم عليه في جملة المفرطين وعصابة المقصرين.

وهذا مال قد كنت جمعته لنفسي، وأعددت له لمؤنة زماني، فاتركني حتى أخذ منه زادا أتزوده، ودابة أركبها، فإن الطريق شاقة، والمفازة (١٤٤) صعبة، والعقبة كؤود (١٤٥)، والمنزل ليس فيه ماء.

قال: أتركك حتى أكون عاصيا مثلك؟ ثم دفعه دفعة ألقاه على وجهه، ثم جمع يديه إلى عنقه وانطلق به يجره من خلفه خزيان ندمان جوعان عطشان وهو ينشد بلسان الحال:

لا كحزني إذا لقيت حزينا جل خطبي (١٤٦) فديتكم أن يهونا
ضاق صدري عن بعضه واحتمالي فاسلكوا بي حيث ألقى المنونا

(١٤٣) ارتبت: شككت.

(١٤٤) المفازة: الصحراء، سميت بذلك تفاؤلا بالفوز.

(١٤٥) كؤود: شاقة صعبة المرتقى.

(١٤٦) جل خطبي: عظمت مصيبي.

ما تريد العداة مني وإني
 زفرات هتكن خلب^(١٤٧) فؤادي
 خنت عهد المليك قولاً وفعلًا
 غرست في الحياة كفي شرا
 ليتني لم أكن وأين مثلي
 ياخليلي ولا خليل لي اليو
 ربح الرابحون وأنقضت السو
 فابكني إن يكن بكاك مفيدا
 وأما الآخر الذي كتب إليه الملك بمثل ما كتب به إلى هذا، فإنه أخذ
 كتاب الملك وقبّله، وقرأه وتصفححه وتدبره، وقال: أرى الملك قد كتب إليّ بأن
 أعمل له كذا وكذا، وأقضي له كذا وكذا، وأنظر له في كذا وكذا، ومن أين
 سبقت لي هذه السابقة عند الملك؟ ومن الذي عني بي عنده؟ ومن الذي أنزلني
 منه هذه المنزلة؟ حتى جعلني من بعض^(١٤٩) خدامه والقائمين بأمره والناظرين
 في أعماله؟

والله إن هذه لسعادة، والله إن هذه لعناية، الحمد لله رب العالمين. ثم
 نظر في الكتاب وقال أسمع الملك وقد قال لي في كتابه: وانتظر رسولي فإني سأبعثه
 إليك ليأتيني بك، وأراه لم يجد لي الوقت الذي يبعث فيه الرسول إلي، ولا سباه
 لي، ولعلي لا أفرغ من قراءة كتابه إلا ورسوله قد أتاني ونزل علي، والله لا قدّمت
 شغلا على شغل الملك، ولا نظرت في شيء إلا بعد فراغي مما أمرني به
 الملك^(١٥٠)، وإعدادي زادا أتزوده ومركوبا أركبه إذا جاءني رسوله وحملني إليه.
 فتعرض له رجل وقال له: لم هذه المسارعة كلها؟ وفيم هذه المبادرة كلها؟
 فقال له: ويحك! أما ترى كتاب الملك بما جاءني؟ أما تسمع ما فيه، أما تصدقه؟

(١٤٧) الخلب: بكسر الخاء: حجاب القلب.
 (١٤٨) الوئين: عرق في القلب يجري فيه الدم إلى سائر الجسد.
 (١٤٩) بعض: ليست في زوش وهي من ي.
 (١٥٠) من ولا نظرت إلى هنا سقط من ش.

أما تؤمن به؟ قال: بلى سمعت وأمنت وصدقت، ولكن لم يقل لك فيه إن رسوله يأتيك اليوم ولا غدا ولا وقتا معلوما، ولكنه سيأتيك وقد جاء كتابه إلى فلان بهذا الذي قد جاءك أنت به، وقد بقي منتظرا لرسوله أكثر من سبعين سنة، وإلى الآن ما أتاه، وبعد زمان طويل ما جاءه، وفلان أتاه بعد ثمانين سنة، وفلان أتاه بعد مائة سنة وأكثر، وفلان كاد أن لا يأتيه.

وأنت واحد من المرسل إليهم فلم هذه العجلة؟ وفيم هذا الإسراع؟ فقال: وبحك! أما ترى أنت فلانا قد جاءه كتاب الملك بهذا الذي جاءني، وجاءه الرسول في إثر مجيء الكتاب، وفلان كذلك وفلان جاءه بعد سنة، وفلان كذا.

فقال له: بلى ولكن لا تنظر إلى هؤلاء خاصة، وانظر إلى الذين قلت لك عن تأخر عنه مجيء الرسول.

فقال له: دعني يا هذا فقد شغلتنني والله، وإني لأخاف أن يأتيني الرسول وأنا أكلمك.

ثم أقبل على ما أمره به الملك فامتله، ونظر فيما حد له، واشتغل بما يجب أن يشتغل به، وأخذ الزاد لسفره، وأخذ الأهبة لطريقه، وجعل ينتظر الرسول أن يأتيه، وأقبل يلتفت يمينا وشمالا من أين يأتيه، ومن أين يقبل عليه.

فبينما هو كذلك وإذا برسول الملك قد أتاه، فقال: أجب الملك. قال: نعم. قال: الساعة؟ قال: الساعة. قال: وفرغت مما أمرك به، وعملت ما حد لك أن تعمله (١٥١)؟ قال: نعم قال: فانطلق. قال بسم الله، فخلع عليه خلعة الأولياء وكساه ١٩/ أ كسوة الأصفياء، وأعطاه مركوبا يليق به ويحمل بمثله وانطلق به في حبور وسرور، وهو ينشد بلسان الحال:

هشوني بغبطتي وسروري
ربحت صفقتي وزكِّي سعيي
كيف لي أن أعبر اليوم عني
صاقت الكتب أن تضم حديثي
فجدير بأن يهنا مثلي
وارتقى للاله قولي وفعلي
بمقال يبين وصف محلي
بل تلاشت عن بعض ما أنا أملي

(١٥١) من وعملت: سقط من ش.

قد بلغت المنى وزدت عليها وتملأت بالمسرة كلي
ليت قومي لو يعلمون بما للـه من نعمة عليّ وفضل
طاب عيشي وقرفيه قراري وتقلبت بين ماء وظل
أنا ذاكم حقيقاً أم هو غيري اعذروني فقد تدلّه (١٥٢) عقلي

فبان لك بهذا المثل وبغيره فضيلة قصر الأمل، وفضيلة المبادرة إلى
العمل، والاستعداد للموت قبل نزوله، والانتظار له قبل حلوله.
وقد كثرت الحض على هذا، وكثرت الأقاويل فيه، ولم يزل المذكرون
يذكرون، والمنبهون ينبهون، لو يجدون سمعا واعيا وقلبا حافظا، ومحلا قابلا،
والحول (١٥٣) حول الله، والأمر كله بيد الله.
ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال لرجل وهو
يعظه:

«اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك،
وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».
وعن ابن عباس أيضا عن النبي ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس:
الصحة والفراغ (١٥٤)».

ذكر البخاري

وقال القائل:

إن في الموت والمعاد لشغلا وأذكارا لذي النهى وبلاغا
فاغتنم نعمتين قبل المنايا صحة الجسم يا أخي والفراغا
وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه
قال:

«ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا، أو هرما مفندا، أو

(١٥٢) تدلّه العقل: ذهب.

(١٥٣) الحَوْل: القدرة.

(١٥٤) أخرجه الترمذي رقم ٢٣٠٧ في الزهد. وقال فيه: حسن غريب.

مرضاً مفسداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال، والدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر (١٥٥)» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة». (١٥٥) وقال النبي ﷺ: «أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد» .

ذكره القاضي أبو الحسن بن صخر في الفوائد .

وقال جابر بن عبد الله: كان رسول الله ﷺ إذا خطب رفع صوته، واحمرت عيناه، كأنه منذر جيش يقول صبّحكم ومساكم .

ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه [السبابة والوسطى] (١٥٦)

ذكره مسلم بن الحجاج . يريد عليه السلام تقريب الأمر وسرعة نزوله، وكل آت قريب، وكل ما هو كائن سيكون .

قال ابن مسعود: قرأ رسول الله ﷺ: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» فقال: إن النور إذا دخل القلب انفسح، فليل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟

قال: نعم التجافي (١٥٧) عن دار الغرور، والإنابة إلى دار ١٩ / ب الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» .

ومن كلام بعضهم: أما تسمعون أيها الناس داعي الموت يدعوكم؟ وحاديه يحدوكم، أما ترون صرعاة في منازلكم، وقتلاه بين أيديكم فقيم هذا التصامم عن الداعي، والتشاغل عن الحادي . والتعامي عن مصارع القتلى، والتغافل عن مشاهدة الهلكى؟، فرحم الله امرأً أيقظ نفسه في مهلة الحياة قبل أن توقظه روعة الممات، واستعد لما هو آت قبل الانبئات (١٥٨) وحلول الفوات . وكان

(١٥٥) أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥٢ في صفة القيامة . وقال عنه: حسن غريب .

(١٥٦) مسلم رقم ٨٦٧ في الجمعة . والنسائي ٣ / ١٨٨ و ١٨٩ في العيدين .

(١٥٧) التجافي التباعد .

(١٥٨) الأنبيات: الانقطاع .

الحكم قد وقع، والخطاب قد ارتفع، أعرض من أعرض، وسمع من سمع .
وأشدوا:

قطعت زماني حيناً فحيناً وأهملت نفسي وما أهملت
ورب سرور شفى غلة وكم آكل ساعة ما يريد
وما كان أغنى الفتى عن نعيم وكم وعظمتي عظات الزمان
وكم قد دعاني داعي المنون وماذا أو مل أو أرتجيه
فلو كان عقلي معي حاضراً ولن يبرح المرء في رقدة
فتوقظه عندها روعة وإذ ذاك يدري بما كان فيه

أدير من اللهو فيه فنونا وهونت من ذاك ما لم يهونا
وولى فأعقب حزناً رصينا يكابد ما أورثته سنيها
يعود عليه عذاباً مهينا لواني أصيخ إلى الواعظينا
وأسمع لو كنت في السامعيا وقد جرت سبعا على الأربعينا
سمعت لعمري منه أنينا يغط إلى أن يوافي المنونا
تقطع منه هناك الوتينا وتجلو الحقائق منه الظنونا

وقال أنس في قول الله عز وجل: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم
أحسن عملاً﴾ قال: أكثركم للموت ذكراً، وأحسن استعداداً وأشد منه خوفاً
وحذراً (١٥٩)

وقال حذيفة رضي الله عنه: ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي: أيها
الناس، الرحيل الرحيل.

وقال بعضهم: أيها الإنسان إنما أنت نازل من الدنيا في منزل تعمره أيام
عمرك، ثم تخليه عند موتك لمن ينزله من بعدك وأشدوا:

أخل لمن ينزل ذا المنزل وأرحل فقد آن أن ترحل
وأرحل بما قد كنت جمعته وأحملة إن خُلِّيت أن تحمل

(١٥٩) من وقال أنس: سقط من ش.

هيهات لا تخرج منه بشيء
واقعد من الغيظ وإلا فقم
فلست بالخارج إلا بما
وخل عن هذي الأماني فما
كم من فتى طوّل آماله
فجاءه الموت على غرة
فيا إلهي والذي جوده
رحماك يا رحمن في فتية
قد حجبتهاعنك آثامها
وليس إلا عفوك المرتجى

فأفعلن ما شئت أن تفعل
واطلع إلى الكوكب أوفانزل
جئت فسلم ويك واستبسل
ثمر إلا شر ما يؤكل
فقصرت دنياه ما طوّل
فمات من قبل الذي أمّل
قد غمر الآخر والأول
ليس لهم دونك من مؤمل
وانزلتها شر ما منزل
أو دلها ماذا الذي تعمل

وقال محمد بن إبراهيم: جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فجوّز في
صلاته، فقال: أخبرني بما جئت له فيني أبادر. فقلت له: وما تبادر؟ قال: ملك
الموت - رحمك الله - ٢٠/أ فيني أخاف أن ينزل بي. فقمته عنه، وقام إلى
صلاته.

ومر داود الطائي - رحمه الله - فسأله رجل غريب عن حديث فقال: دعني
فيني أبادر خروج نفسي (١٦٠).

وقال الربيع بن خثيم رحمه الله: من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن
طال أمله ساء عمله.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: التؤدة (١٦١) خير في كل شيء إلا
في أمر الآخرة، والتؤدة: هي التثب والتأني.

وكان الحسن رحمه الله يقول في موعظته: المبادرة المبادرة، فإنما هي
الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم الأعمال التي تتقربون بها إلى الله عز وجل،
رحم الله امرأة نظر (١٦٢) لنفسه وبكى على ذنبه، ثم قرأ هذه الآية: «إنما نعد لهم

(١٦٠) في ي: روجي.

(١٦١) التؤدة: التأني.

(١٦٢) في ش ايقظ نفسه.

عدًا» يعني الأنفاس آخر العدد خروج نفسك وفراق أهلك .
 وقال بعض الصلحاء : اغتم تنفس الأجل ، وإمكان العمل ، واقتطع
 ذكر المعاذير والعلل ، فإنك في أجل محدود ، ونفس معدود ، وعمر غير ممدود .
 وقال غيره : أعمل عمل المرتحل ، فإن حادي الموت يحدوك ليوم ليس
 يعدوك ، فيطرحك في حفرة لا يخافك فيها أحد ولا يرجوك .
 وكتب رجل إلى بعض إخوانه : أما بعد فإن الدنيا حلم ، والأخرة يقظة ،
 والموت متوسط بينهما ، ونحن في أضغاث (١٦٣) أحلام ، والسلام .
 وكتب محمد بن يوسف رحمه الله إلى أخ له : سلام عليك فإني أحمد إليك الله
 الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإني محذرك من دار منقلبك إلى دار إقامتك وجزاء
 أعمالك ، فتصير في باطن الأرض بعد ظهرها ، فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك
 ويتهرانك فإن يكن الله معك فلا فاقه (١٦٤) ولا بأس ولا وحشة ، وإن يكن غير
 ذلك فأعاذني الله وإياك يا أخي من سوء مصرع وضيق مضجع ، ثم تبلغك
 صيحة النشور ونفخة الصور ، وقيام الخلائق لفصل القضاء ، وامتلات الأرض
 بأهلها ، والسموات بسكانها ، فباحث الأسرار وسعرت النار ، ووضعت الموازين
 ونشرت الدواوين ، وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله
 رب العالمين .

فكم من مفتضح ومستور ، ومعذب ومرحوم ، وكم من هالك وناج فياليت
 شعري محالي وحالك يومئذ ، فإن في هذا ما هدم اللذات ، وسلى عن
 الشهوات ، وقصر من الأمل ، وأيقظ النائم ونبه الغافل . أعاننا الله وإياك على
 هذا الخطر العظيم ، وأوقع الدنيا من قلبك وقلبي موقعها من قلوب المتقين ، فإنما
 نحن له وبه والسلام .

وأنشده بعضهم :

مرادك أن يتم لك المراد وتركض في مطالبك الجياد
 وقدضني في أوامرك الليالي فلا يعصى هواك ولا يكاد

(١٦٣) أضغاث أحلام : أحلام مختلطة لا يصح تأويلها .

(١٦٤) فاقه : احتياج .

قيادك فاعتديت بها تقاد
 وآمال الفتى منها بعد
 أمانيه بشيء لا يراد
 تيمد لهوله السبع الشداد
 وينطق من زلازله الجهاد
 يغيرهن من دمه الفؤاد
 على صفحاتها طلي الحداد
 وأنى يشبه البحر الثماد
 على معنى يتم لك المراد
 قليل لا يحس ولا يكاد
 وبحرا مثله الفرس الجواد (١٦٥)

لقد ملكت مضلات الأمانى
 ألم تسمع بذى أمل بعيد
 رماه الموت فانقبضت إليه
 ويلقاه يائر الموت يوم
 تصم لوقعه الأذان صما
 فكم سالت هنالك من دموع
 وكم شأهت هنالك من وجوه
 وماذا الكرب يشبه ما عهدنا
 وما الأسماء تعطيك اتفاقا
 ولكن ربما كان اشتباه
 يسمى البحر ذوالأهوال بحرا

وفي بعض الخطب المروية: أيها الناس إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم، وإن المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وأجل بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لأخرته، ومن الحياة قبل الموت، فإن الدنيا خلقت لكم وخلقتم أنتم للأخرة، ٢٠/ب والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار (١٦٦).

وخطب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله فقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للفصل وللحكم فيما بينكم، فخاب وشقي عبد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء، وجنة عرضها السموات والأرض، وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى، وباع قليلا بكثير، وفانيا بباق، وشقاء بسعادة.

ألا ترون أيها الناس أنكم في أصلاب الهالكين ويستخلف بعدكم

الباقين (١٦٧)

(١٦٥) هذه الأبيات انفردت بها نسخة ل.

(١٦٦) من خطبة للنبي ﷺ.

(١٦٧) من ألا ترون إلى هنا سقط من ي.

ألا ترون أيها الناس أنكم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل، قد قضى نجه وانقطع عمله وأمله، فتضعونه في بطن قاع من الأرض غير ممد ولا موسد، قد قطع الأسباب وفارق الأحباب، وواجه الحساب.

وأيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما عندي، ولكنها سنن من الله عادلة، أمر فيها بطاعته، ونهى فيها عن معصيته، ثم استغفر الله تعالى ووضع كفه على وجهه^(١٦٩) وبكى، حتى بلت دموعه لحيته، وما عاد إلى مجلسه ذلك حتى مات رحمه الله.

ومما يروى من خطبه أيضا أنه قال: أيها الناس إن الدنيا ليست بدار قراركم ولا محل إقامتكم، دار كتب الله عليها الفناء، وأوجب منها على أهلها الرحيل، فكم من عامر مؤثق^(١٧٠) عما قليل ستخرب عمارته، وكم من مقيم مغتبط عما قليل سيرحل فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة، واحملوا خير ما يحضركم للنقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

إن الدنيا كظل قلص فذهب، بينما ابن آدم فيها ينافس، وعليها يضارب، إذ دعاه الله بقدره، ووفاه يوم حته، فسلبه آثاره ودنياه، وصير^(١٧١) للآخرين مصانعه^(١٧٢) ومغناه. إن الدنيا ما تسرب بمقدار ما تضر، إنها تسر قليلا، وتخزن حزنا طويلا

وخطب المأمون يوما فقال: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار، فاستبدلوا بها وتعوضوا عنها.

أيها الناس استعدوا للموت فقد أظلكم، وترحلوا فقد جد بكم، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائبا يجده الجديدان^(١٧٣) لجدير بسرعة الأوبة^(١٧٤)، وإن قادما يقدم بالفوز أو بالشقوة

(١٦٨) عمله سقطت من ش وز.

(١٦٩) وجهه: في ش وز لحيته.

(١٧٠) مؤثق: من الأناقة وهي الحسن.

(١٧١) من هنا إلى: فانتبهوا سقط من ش.

(١٧٢) المصانع: هنا بمعنى القرى والحصون، أو أحواض الماء. والمفنى: المنزل.

(١٧٣) الجديدان: الليل والنهار.

(١٧٤) الأوبة: الرجعة.

لمستحق بأفضل العدة .

اتقى عبد ربه ، نصح نفسه ، وغلب شهوته ، وقدم توبته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يمني التوبة ليسوفها ، ويزين لها المعصية ليركبها ، حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها ، وأنسى ما يكون لها ، وإن ما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، فيا لها من حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، أو أن تؤدبه أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن الطاعة معصية ، ولا تحل به بعد الموت حسرة ، إنه سميع الدعاء فعال لما يشاء .

ومن كلام بعضهم^(١٧٥) : يا ابن آدم إنك لورأيت ما حل بك ، وما أحاط بأرجائك ، لبقيت مصروعا لما بك ، مذهولا عن أهليك وأصحابك ، يا ابن آدم أما علمت أن بين يديك يوما يصم سماعه الأذان ، وتشيب لروعه الولدان ، ويترك ما عز وهان ، ويهجر له الأهلون والأوطان .

يا ابن آدم أما ترى مسير الأيام بجسمك ، وذهاها بعمرك وإخراجها لك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، وبعد ذلك ما لذكر بعضه تصدع القلوب ، وتنضج له الجوانح وتذوب ، ويفر المرء على وجهه فلا يرجع ولا يؤوب .
وأنشدوا :

لأمر ما تصدعت القلوب وباتت في الجوانح نار ذكري
وباتت في الجوانح نار ذكري وما خف اللبيب لغير شيء
وما خف اللبيب لغير شيء ذراه لائمه فلا تلوما
ذراه لائمه فلا تلوما رأى الأيام قد مرت عليه
رأى الأيام قد مرت عليه وما نفس يمر عليه إلا
وما نفس يمر عليه إلا وبين يديه لو يدري مقام
وبين يديه لو يدري مقام وهذا الموت يدنيه إليه
وهذا الموت يدنيه إليه مقام تستلذ به المنايا
مقام تستلذ به المنايا وماذا الوصف بالغه ولكن
وماذا الوصف بالغه ولكن وخطب الحجاج يوما فقال : أيها الناس إن الله كتب على الدنيا الفناء ،

(١٧٥) من : ومن كلام بعضهم ، إلى هنا انفردت به نسخة ل .

وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما ٢١/ أ كتب الله عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب الله عليه الفناء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا من غائب الآخرة واقهروا طول الأمل بقصر الأجل.

وفي بعض الخطب المروية: أيها الناس إن الآمال تطوى والأعمار تبنى، والأبدان تحت التراب تبلى، وإن الليل والنهار يتراكمضان كتراكض البريد، يقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، وفي ذلك عباد الله ما يليه عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغب في الباقيات الصالحات.

وفي بعض الخطب أيضا: أكثروا من ذكر هادم اللذات الموت فإنكم إن ذكركم في ضيق وسعه عليكم، فرضيتم به فأجرتم، وإن ذكركم في غنى نغصه عليكم فجدمتم به فأثبتم، إن المنايا قاطعات الآمال، والليالي (١٧٦) مدنيات الأجال، وإن المؤمن بين يومين: يوم قد مضى أحصى فيه عمله فحتم عليه، ويوم قد بقي لعله لا يصل إليه، إن العبد عند خروج نفسه وحلول رومه (١٧٧) يرى جزاء ما أسلف، وقلة غناء ما خلف، ولعله من باطل جمعه أو من حق منعه.

وقال بعض الحكماء: إن للباقي بالماضي معتبرا، وللآخر بالأول مزدجرا (١٧٨)، والسعيد لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخدع (١٧٩)، ومن ذكر المنية نسي الأمانة، ومن أطال الأمل نسي العمل وغفل عن الأجل.

وقال بعض المفسرين في قول الله عز وجل: ﴿فتنتم أنفسكم﴾ قال: بالشهوات واللذات ﴿وتربصتم﴾ قال بالتوبة ﴿وارتبتم﴾ قال: شككتم ﴿حتى جاء أمر الله﴾ قال: الموت. ﴿وغرکم بالله الغرور﴾ قال: الشيطان.

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى يزيد بن عبد الملك إياك أن تدرك الصرعة عند الغرة (١٨٠)، فلا تقال (١٨١) العثرة، ولا تمكن من الرجعة، ولا يمدك من خلفت على ما تركت، ولا يعذرک من تقدم عليه بما به اشتغلت.

(١٧٦) والليالي: سقطت من ز

(١٧٧) رومه: قبره.

(١٧٨) مزدجر: رادع.

(١٧٩) الخدع: جمع خدعة.

(١٨٠) الغرة: الغفلة.

(١٨١) تقال العثرة: أقال عثرته: أنهضه من سقوطه.

وقال بعض البلغاء: لا بَتَّتْ على غيروصية، وإن كنت من جسمك في صحة، ومن عمرك في فسحة، فإن الدهر خائن، وكل ما هو كائن كائن. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ما منكم من أحد إلا وهو ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مردودة.

وقال الحسن البصري رحمه الله يا عجباً لقوم أمروا بالزاد ونودي فيهم بالرحيل، وحشر أولهم على آخرهم، وهم مع ذلك قعود يلعبون.

وقال بعض الحكماء: ليس من الدين عوض، ولا من الإيمان بدل ولا من الجسد خلف، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يساربه وإن لم يسر. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أيها الناس اتقوا الله الذي إن قلمت سمع، وإن أضمرت علم، وبأدروا الموت الذي إن قمتم أخذكم، وإن هريتم أدرككم.

وكان عبدالله بن ثعلبة يقول في موعظته: تضحك يا هذا ولعل أكفانك عند القصار (١٨٢).

وقال بعض الحكماء . . كل يجري من عمره إلى غاية تنتهي إليها مدة أجله، وتنطوي عليها صحيفة عمله، فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بأمسك، وكف عن سيئاتك، وزد في حسناتك، قبل أن تستوفي مدة الأجل، وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل.

٢١/ب (١٨٣) وفي كلام بعضهم: أعلم رحمك الله أن أمانيك سترد عليك وترجع خائبة إليك، وأن الساعات تهدم في جسدك، وربما عاجلتك المنية في ساعتك أو في يومك أو في غدك، فأوقفك على غشك وظلمك، وأطالت في كربك، وزادت في غمك، وأرتك ما لم تعهد، وأشهدتك مشهدا ما مثله مشهد.

وأشُد:

مرادك لا يصح ولا يتم إذا ما كنت للدنيا تدمُّ*
وما فرقت منها من أمان* فلست وإن أصبت لها تضم
وما تبنيه في دنياك هذي ستلقاه من الأيام هدم

(١٨٢) القصار: الذي يحوّل الثياب ويبيضها.

(١٨٣) من هنا إلى: وقال أبو عبيدة، سقط من ش وز.

* تدمُّ: تسرع. وأمان: جمع أمنيّة.

وجسمك ويك اسرعه انهداما
ومن تتبعه تابعة المنايا
وليتك لم تكن إلا منون
ولكن بعدها يوم عصيب
وما تلك الكروب كما عهدنا
فلا تغتر بالأسماء جهلاً
يسمى الكوكب الدرّي نجماً

وهل يبقى مع الساعات جسم
محال أن تبقى منه رسم
يضاعف بينها كرب وغم
طويل الكرب ذكره تصم
ولا هي ما يعبر عنه فهم
فربت معنيين عليهما اسم
ومنبسط النبات كذاك نجم (١٨٤)

وقال أبو عبيدة الناجي رحمه الله : دخلنا على الحسن البصري رحمه الله في يومه الذي مات فيه ، فقال : مرحبا بكم وأهلاً ، وحياكم الله بالسلام ، وأحلنا وإياكم دار المقام ، هذه علانية حسنة إن صدقتم وصبرتم ، فلا يكونن حظكم من هذا الأمر أن تسمعوه بهذه الأذان ، وتخرجوه من هذه الأفواه ، فإن من رأى محمداً ﷺ رآه غاديا ورائحا ، لم يضع لبنه (١٨٥) على لبنه ، ولا قصبه على قصبه ، ولكن رفع له علم فشمّر إليه الوحي (١٨٦) الوحي ، النجاء النجاء ، علام تعرجون؟ ارتبتم ورب الكعبة ، كأنكم والأمر معاً ، رحم الله امرأً جعل العيش عيشاً واحداً ، فأكل كسرة ، ولبس خلقاً ، ولصق بالأرض ، واجتهد في العبادة ، وبكى على الخطيئة ، وفر من العقوبة ، وطلب الرحمة ، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك .

وقال أبو محمد الزاهد : خرجنا في جنازة بالكوفة ، وخرج فيها داود الطائي رحمه الله ، فانتبذ (١٨٧) وقعد ناحية وهي تدفن ، فجثته فقعدت إليه قريباً منه ، فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ضعف عمله ، وكل ما هو آت قريب .

واعلم يا أخي أن كل شيء شغلك عن الله فهو عليك مشؤوم ، وأعلم أن

(١٨٤) هذه الآيات انفردت بها نسخة ل .

(١٨٥) اللبنة : واحدة اللبن بكسر الباء وهو ما يضرب من الطين للبناء .

(١٨٦) الوحي : المبادرة والإسراع .

(١٨٧) انتبذ : اعتزل وتنحى .

أهل القبور إنسا يندمون على ما يتركون، ويفرحون بما يقدمون، فما عليه أهل القبور يندمون أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه يتزاحمون .

وقال محمد بن أبي توبة رحمه الله : أقام معروف الكرخي رحمه الله الصلاة ثم قال لي : تقدم . فقلت : إن صليت لكم هذه الصلاة لم أصل لكم غيرها . فقال لي : أراك تحدث نفسك أنك تعيش حتى تصلي صلاة أخرى، أعوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع من خير العمل .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ويل لمن كانت الدنيا أمله والخطايا عمله، عظيم بطنته (١٨٨)، قليل فطنته، عالم بأمر دنياه جاهل بأمر آخرته .
وقال العلاء بن زياد رحمه الله تعالى : لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، وأنه استقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله .

وقال بعض الحكماء : عجبت ممن يحزن على نقصان ماله، ولا يحزن على نقصان عمره، وعجبت ممن الدنيا مدبرة عنه، والآخرة مقبلة عليه كيف يشتغل بالمدبرة ويعرض عن المقبلة .

وقال بعضهم : أيها الناس إن لكم معالم تستبِقون إليها، وإن لكم موارد تردون عليها، وإن الحديد ين سيران بكم وإن لم تسيروا، ويسرعان بكم، وإن لم تسرعوا، وإن قصاراكم الموت، وإن بعد الشأو (١٨٩) وامتدت الغاية وطال المدى .

فرحم الله امرأ أضمر نفسه للسباق وساقها إلى الغاية أشد مساق، واستعد للموت قبل هجومه وأخذ حذره منه قبل قدومه، وأنفد دموعه على ٢٢/أ ما تقدم قبل أن تزل به القدم، ويؤخذ بما علم وبما لم يعلم .
وأنشد بعضهم من كلمة له :

لمن ورقاء (١٩٠) بالوادي المريع تشب به تباريح الضلوع
على فينانة (١٩١) خضراء يصفو على أعطافها وشي الربيع

(١٨٨) البطنة : كثرة الأكل .

(١٨٩) الشأو : الأمد .

(١٩٠) الورقاء : الحمامة يضرب لونها إلى الخضرة .

(١٩١) فينانة : بتسكين الياء : الشجرة الطويلة الحسنة ذات الأغصان الملتفة .

رماها الدهر في الأهل الجميع
غراما عاث في قلب صريع
وتبكي وهي جامدة الدموع
من الخسران في أمر شنيع
وتشرب منه بالكأس الفظيع
وتضييعي الحياة مع المضيع
لأرسلت المدامع بالنجيع (١٩٣)
وذكر الموت يذهب بالهجوم
فما في مقتلتيه من دموع

تردد صوت باكية عليها
فشتت شملها وأدال (١٩٢) منه
عجبتُ لها تكلم وهي خرسا
فهمتُ حديثها وفهمت أني
أتبكي تلك إن فقدت أنيسا
وها أنا لست أبكي فقد نفسي
ولو أني عقلت اليوم أمري
إلا ياصاح والشكوى ضروب (١٩٤)
لعلك أن تعير أخاك دمعا

وقال بلال بن سعد رحمه الله : يقال لأحدنا تريد أن تموت؟ فيقول : لا
فيقال له : لم؟ فيقول : حتى أتوب وأعمل صالحا، فيقال له : اعمل . فيقول :
سوف أعمل ، فلا يجب أن يموت ولا يجب أن يعمل فيؤخر عمل الله تعالى ، ولا
يؤخر عمل الدنيا .

وقال (١٩٥) بعض الحكماء : السعيد من صرف الله أمله إلى ما يبقى ، وقطعه عما
يفنى ، وأعانه في دار الفناء على عمارة دار البقاء .

والويل الطويل والحسرة التي لا تزول لمن أعرض ونأى ، ولم يمه نفسه عن
الهوى . وإن كان الكل من الله عز وجل فاللوم متوجه على المقصر وقد بدت عليه
علامة البعد ، وظهرت من أفعاله أمانة الطرد .

وقال عيسى بن مريم عليه السلام : عجبت لثلاثة : لغافل وليس
بمغفول عنه ، ومؤمل دنيا والموت يطلبه ، وبان قصره والقبر مسكنه .

وقال بعض الحكماء : ما انقضت ساعة من يومك إلا بقطعة من عمرك ،
ونصيب من جسمك .

(١٩٢) أدال منه : نزع وحول .

(١٩٣) النجيع : الدم المائل إلى السواد .

(١٩٤) ضروب : أنواع .

(١٩٥) من هنا إلى الطرد سقط من ش وز .

وقال لقمان لابنه: يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعداد له قبل أن يفجأك .

وقال الحسن رحمه الله: ما رأيت يقينا أشبه بالشك من يقين الناس بالموت مع غفلتهم عنه، وما رأيت صدقا أشبه بالكذب من قولهم إنا نطلب الجنة مع عجزهم عنها وتفريطهم في طلبها .

وقال بعضهم: أيها الناس إن الحكم قد وجب، وإن الموت قد اقترب، والعمر قد ذهب، فكم من آسف عليه، وناظر بعين الشفقة إليه، وإن في تلاشي العمر ما يقصر عن أمل الأريب^(١٩٦) ويجمع من هم اللبيب، ويرسل من عبرات^(١٩٧) الكئيب، فرحم الله امرأً بكى على نفسه، فليس يبكي عليها غيره، ونظر إليها، فليس ينظر إليها سواه .

وأنشدوا:

كما أبكي عليها ملء جفني
فمثلي فليبت في فرط حزن
قطعت علائق السلوان عني
عفت^(١٩٨) أبياتها أوسيرظعن
وقد جُبلت على ضعف ووهن
إلام وفيم ويملك ذا التأن
يريه من العجائب كل فن
يبين له اليقين من التظني^(١٩٩)
ولكن في المحال من التمني
على وجنات ذي خسروغبن

لبيك على الشبيبة من بكاها
ومن يك بات ذا حزن عليها
ومن يك ساليا يوما فإني
عجبت لمن يبكي رسم دار
ويترك نفسه يبكي عليها
وقد صاح الحمام بها أجيبني
ومن بعد الحمام له حديث
حديث ما حديث ما حديث
وعمر ينقضي في غير شيء
ويعذلني إذا أرسلت دمعا

(١٩٦) الأريب: العاقل، الماهر.

(١٩٧) عبرات: دموع.

(١٩٨) عفت: انمحت وزالت.

(١٩٩) التظني: الظن والشك.

ألا يصاح والبلى ضروب ودَعْتُكَ للذي تهوى فدعني
إذا أنا لم أبك ذهاب عمري فمن هذا الذي يبكيه عني

ولعلك أن تقول: لو أني قصرت أملي كما تريده مني، وقصر ذلك أمله،
وذاك أمله، وقصر الناس آمالهم وتركوا صناعاتهم وأسباب معيشتهم لخرت
الأرض وهلك الناس (٢٠٠) وفسد هذا العالم.

فأقول: نعم صدقت، لو قصر الناس آمالهم بحيث يتركون صناعاتهم
والنظر في معيشتهم وعمارة دنياهم، وأجمعوا على ذلك لكان ما قلت، ولكنهم لا
يفعلون، وليس بتقصيرك أنت أملك يقصر الناس آمالهم، ولا بزمدك أنت في
الدنيا يزهّد الناس كلهم فيها، فلا تبك يا هذا ولا تشغل نفسك به، ولا يمنعك
ذلك من تقصير أملك، ولا من زهدك وإصلاح عملك، وعليك بنفسك فعنها
تسأل وبالواجب عليها تطلب.

وليس تقصيرك أملك بالذي يمنعك أن تطلب رزقك، وإن تشتغل
باصلاح نفسك ومعيشتك وتربية ولدك، إلى غير ذلك من جميع منافعك بل
تقدر أن تجمع بينهما، وذلك أن تنظر بمعونة الله عز وجل لك وتشبته إياك، إلى
غير ذلك من سبب معيشتك.

فإن كان مما يتكرر كل يوم عملت فيه يومك، وأخذت منه قوتك، ولم
تعول على أنك تعيش غدا، فإن أصبحت غدا عملت كذلك أيضا.
وكذلك إن كان سببك مما يتم بعد أيام كثيرة، أو يكون مما ينظر فيه السنة
كلها كالزراعة وغيرها نظرت فيه على كماله، ولم تعول على أن تدرك إبانته، وأن
تبلغ وقته وأوانه، فإن بلغته كان الذي أردت، وإن اخترمتك المنية دونه كان ما
عملت منه معونة لغيرك، وتسهيلا لمن يأتي من بعدك.

وتقدر أن تعمل السبب الذي يكون فيه معيشتك كما وصفت لك،
وتقصر أملك عن تمامه [سواء] كان السبب مما تعمل فيه سنة أو يوما أو أقل.
وكذلك سائر الناس لو كانوا هكذا لما هلكوا، ولا خربت الأرض ولا فسد هذا

(٢٠٠) وهلك الناس: سقط من ز.

العالم كما قلت . لكنه كان يقل فرحهم بالدنيا وسعيهم لها ، واغتاظهم بها ، وكانوا يتركون تشييد البنيان وتنصيده ، وزخرفته وتنجيده (٢٠١) ، ويدعون التائق في ملابسهم ومراكبهم ، إلى غير ذلك من جميع أمورهم ، ويجتزئون من الدنيا بما أمكن ، ويأخذون منها ما تيسر ، ويقتصرون على ما يبلغ ، فتقل تبعثهم (٢٠٢) ، ويهون حسابهم ، ويخرجون من الدنيا خفافا يقدرون على قطع عقبات الآخرة ، وسلوك طرقها الضيقة وسبلها الشاقة ، ويسهل عليهم الأمر هنالك .

وأما قصر الأمل حتى تترك الصناعات وأسباب المعيشة فإنها يصح في بعض الأشخاص وفي القليل من الناس .

فإنه إن فعل ذلك قام غيره بمؤنته ، ونظر له سواه في معيشته ، سنة الله ٢٣/أ عزوجل مع المتوكلين ، وعادته مع المنقطعين ، ويبقى أولئك مع آمالهم والنظر في أعمالهم ، فإن الأمل رحمة من الله تعالى تنتظم به أسباب المعاش ، وتستحكم به أمور الناس ، ويتقوى به الصانع على صناعته ، والعابد على عبادته .

وإنما يذم من الأمل ما امتد وطال حتى أنسى العاقبة والمآل وثبط عن صالح الأعمال .

يروى أن الله عزوجل لما مسح ظهر آدم عليه السلام فاستخرج ذريته ، قالت الملائكة : رب لا تسعهم الأرض .

قال الله عزوجل : إني جاعل موتا : قالت الملائكة : لا يهنأهم العيش . قال : إني جاعل أملا .

وقال (٢٠٣) الثوري رحمه الله : بلغني أن الانسان خلق أحق ، ولولا ذلك ما هنأه العيش .

ويروى أن عيسى عليه السلام كان جالسا وبين يديه شيخ يعمل بمسحاة (٢٠٤) في أرض له ، فنظر إليه وقال : اللهم انزع الأمل من قلبه ، فطرح

(٢٠١) تنجيد البناء : تزيينه بالفرش .

(٢٠٢) التبعة : المسؤولية .

(٢٠٣) من هنا إلى العيش سقط من ش .

(٢٠٤) المسحاة : ما يسحي به التراب ونحوه كالمجرقة .

الشيخ المسحاة في الأوض وقعد، فقال عيسى عليه السلام: اللهم رد عليه
أمله، فقام الشيخ إلى مسحاته ورجع إلى عمله، فدعاه عيسى عليه السلام
فقال: أيها الشيخ لم طرحت مسحاتك ثم رجعت إليها؟ فقال: ياروح الله بيننا
أنا أعمل بمسحاتي إذ قلت في نفسي: وإلى متى هذا العمل؟ وإلى متى هذا
التعب؟ ولعل الموت يأتيني في هذه الساعة، فطرحت المسحاة وقعدت، فبينما أنا
قاعد إذ تفكرت في نفسي وقلت: لعل الموت لا يأتيني في هذا الوقت وأنا محتاج
إلى قوت يقيمني، وغذاء يمسك بنيتي، ولا بد من العمل فقمتم إلى مسحاتي
ورجعت إلى عملي.

وقال مطرف بن غبمد الله رحمه الله: لو علمت متى أحلي لحشيت ذهاب
عقلي، ولكن الله منّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة عنه ما تهنأوا
بعيش ولا قامت الأسواق.

وقال الحسن رحمه الله: الغفلة والأمل نعمتان عظيمتان على ابن آدم،
ولولاهما ما مشى المسلمون (٢٠٥) في الطرق. يريد لو كانوا من التيقظ وقصر الأمل
وخوف الموت بحيث لا ينظرون في معاشهم وما يكون سببا لحياتهم، هلكوا،
وكذلك أراد مطرف رحمه الله.

ويروى أن المفضل بن فضالة رحمه الله تعالى سأل ربه أن يرفع عنه
الأمل، فاستجاب له، فترك الأكل والشرب، ولم تستقم له عبادة، فدعا ربه أن
يرد عليه أمله، فردّه عليه، فرجع إلى طعامه وشرابه.
وقال ابن المهدي رحمه الله: من قوى أمله قل عمله، ومن أتاه أجله لم
ينفعه أمله غير أنه لا بد من أمية وأمل تحيا بهما النفس ويقوي بهما القلب وتعمر
بهما الدنيا.

وقال سعيد بن عبد الرحمن: إنما عمرت الدنيا بقلّة عقول أهلها يريد أنهم
بقلّة عقولهم انصرفت همهم عن الآخرة، وأقبلت على الدنيا فعمروها
واشغلوا بها.

وأنشدوا:

(٢٠٥) في شئ الناس.

خذ من الآمال ما احتجت إليه
 كان مالا أو كلاما أو هوى
 ولدنياك قوية^(٢٠٧) شيم
 ولأخراك وإن طال المدى
 وإذا لم تك أعددت له
 وصروف الدهر تخبر قبل ذا
 ورأى الإنسان طرفا لهما
 وإلى كم أنت في سكر الهوى
 وكلا الدارين تحتاج له
 فلتبادر ما هو الأولى بمن
 ورآه الموت فانقض له

وإعلم رحمك الله أن تقصير الأمل مع حب الدنيا متعذر وانتظار الموت مع
 الإكباب عليها غير متيسر، فإن حب الدنيا ٢٣/ب هو سبب طول الأمل فيها،
 والإكباب عليها يمنع من الفكرة في الخروج منها، والجهل بغوائلها وعواقبها
 يحمل على الإرادة لها والازدياد منها. لأن من أحب شيئا أحب الكون معه
 والازدياد منه، ومن كان مشغولاً بالدنيا محبا لها حريضا عليها، قد خدعته
 بزخرفها، وأمأته برونقها وسحرته بزينتها كيف يريد مفارقتها؟ أم كيف يجب
 مزايلتها^(٢٠٨)؟ هذا أمر لم تجر العادة به ولا حدثنا عنه. بل^(٢٠٩) تجد من كان على
 هذه الصفة أعمى عن طريق الخير أصم عن داعي الرشد، قليل الرأي، سيء
 النظر، ضعيف الإيمان، لم تترك له الدنيا ما يسمع به ولا ما يرى الحقائق
 بواسطته، إنما دينه وشغله وحديثه دنياه، لها ينظر ولها يسمع، ولها يعطي ولها
 يأخذ قد ملأت عينه وقلبه وأذنه.

(٢٠٦) هذه الأبيات انفردت بها نسخة ل.

(٢٠٧) فويه شيم: فم جائع.

(٢٠٨) مزايلتها: تركها.

(٢٠٩) من هنا إلى: قد ملأت، سقط من ش.

كما قال القائل :

ملأت قلبه غرورا وفتنه وأصمّت عن الحقيقة أذنه
ورمت عينه ببرقة سحر طمستها فما يرى ما أجنّه (٢١٠)
لم تدع فيه مطمعاً لسواها فهوها لديه فرض وسنة
أي خداعة تعلق منها إنها إنها وإنه إنه
فأطرحها فما إخالك إلا مثله فالكلام شعر وجنة

فتجده قد طول أمله ومد المسافة بين يديه ، فإن كان شاباً قال أنا صغير والأيام بين يدي ، وأين حتى أبلغ ستين سنة أو سبعين سنة؟ وأنا محتاج إلى الزوجة ، والزوجة محتاج إلى كذا وكذا ، وإذا كانت الزوجة كان الولد وكانت البنت ، واحتاج الولد إلى كذا وكذا ، واحتاجت البنت أيضاً إلى كذا وكذا ، وهذا كله إنما يكون بالمال ، وإن لم يكن لي مال لم أصل إلى مرغوب ، ولم أظفر بمطلوب ، وإن قعدت عن الطلب احتجت إلى الناس ، فإذا احتجت إلى الناس احتقرت واستخف بي وجهل قدرتي كما قال القائل :

والمرء لا يصغر مقداره إلا إذا احتاج إلى الناس
وترى فلاناً قد اكتسب وجمع ، وتزوج وتمتع ، وظفر بالمراد ، ووصل إلى ما أراد ، وفلان كذلك .

ولا يقول ترى فلاناً كان شاباً مثلي ، وأراد ما أردت وسعى فيما سعيت ، فمات قبل أن يصل إلى إرادته ، واختطف قبل أن يحصل على مطلبه .
ولا يقول ترى فلاناً طلب واجتهد ، فلما اجتمع له ما اجتمع ، سرق منه أو اعتدى عليه فاغتصب أو عطب (٢١١) في رجوعه إلى بلده وانصرافه إلى وطنه ، فمات في عطبته ، وهلك في نكبته .

أو ترى فلاناً خرج محزوناً مسلوباً فقيراً حسيراً (٢١٢) .

(٢١٠) أجنّه : ستره وغطاه .

(٢١١) عطب : انكسر ، هلك .

(٢١٢) الحسير : الضعيف ، المتعب .

وترى فلانا كذلك، وفلانا كذلك .

إنما يعرض على نفسه، ويجرى على خاطره من بلغ إلى إرادته ووصل إلى أمنيته، لأن ذلك هو الذي غلب على قلبه، وشغف بجديته، فتراه يسعى ويرغب، ومحرض ويطلب، ويزفر ويكد في حدود (٢١٣) وصعود، وطلوع وهبوط، آناء الليل وآناء النهار، ولا يقرب به قرار، ولا تضمه في أكثر الأوقات دار، وكلما فرغ من شغل أخذ في آخر، مما يحتاج إليه، بل لا يفرغ من شغل إلا وقد عرضت له أشغال، ولا يصل إلى أمل إلا انبعث له آمال .

فيمني نفسه بالأمانى الباطلة، ويحدثها بالأحاديث الكاذبة .

فإن وصل إلى حظ من المال ٢٤ / أ ونصيب وافر من الكسب مما يمكن أن يعيش به عمره كله، أو طعن في السن وقيل له يافلان أرح نفسك ودع جسمك فهذا السذي عندك يكفيك، قال يا أخي لا تقل هذا، الليل والنهار بين يدي، ولا يكفهما قليل، ولن يدوما على أحد إلا أذهب ما في يده، وأخذ ما كان عنده . ولا يدري ما يكون، والآفات كثيرة، والأمراض متوقعة، والحاجة إلى الناس صعبة لاسيما مع الكبر، ولا سيما إن كان الأهل والولد .

فيقيم العذر لنفسه، ويطلب لها الحجة، ويوجد لها الدليل، ويصحح لها بزعمه التأويل .

فإن ذكر بالموت أو حُدِّث بموت إنسان، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون، والله إني لفي غفلة، والله إني لفي غرور، والله إن هذه لمصيبة، لا يدري الإنسان متى يخترم (٢١٤) ولا متى يختطف، ولا متى تفجؤه المنية، وتحل به هذه الرزية، وتنزل به هذه المصيبة .

هكذا قولاً بلا فعل، وكلاماً بلا نية، ولو كان عن صدق نية وصحة (٢١٥) طوية لظهر ذلك عليه، وبدت مخايله (٢١٦) منه .

(٢١٣) حدود: نزول .

(٢١٤) يخترم: يهلك، يموت .

(٢١٥) طوية: نية، ضمير .

(٢١٦) مخايله: علاماته .

وربما وعد نفسه ومناها وطمعها في التوبة، ورجاها، وقال: لوجئت من هذه السفرة، أولوبنيت هذه الدار، أولوجعت ما كان لي متفرقا، أولوجهزت هذه البنيت أو هذا الولد، وأدخلته بيته ونظرت له فيما يعيش به، لتفرغت للنظر لنفسي، وقدمت ما أجده في رمسي، وكنت من داري إلى مسجدي، ومن مسجدي إلى داري، ولا أنظر في شيء ولا اشتغل في شيء.

فإن جاء من سفرته تجهز لغيرها، وإن فرغ من بنيان داره نظر فيما يصلح لها، وإن جمع ماله نظر في تفريقه في الوجه الذي ينميه ويزيد فيه، وإن جهز ولدا بقي له آخر، وإن لم يكن له آخر قال ما تريد؟ تريد أن آكل ما عندي وأرجع إلى ولدي حتى يطعمني ويكسوني ويعولني؟ لا يكون هذا أبدا، الموت في القفار وبلج البحار أهون علي من هذا، فهو هكذا أبدا لا مع المال ولا دون المال، ولا مع الولد ولا دون الولد.

يحدث الناس عن الأموات ولا يحدث نفسه أنه يموت ويشيع جنازتهم ولا يتخيل أن جنازته تشيع، ويقدر لنفسه العيش الطويل ولا يقدر لها الموت القريب. قد غلب عليه السهو وأطبقه الجهل، وسدت عليه الغفلة طرق الإنابة، وصرفته عن أسباب الفكرة.

كم رأى من إنسان قد أعد ثوبا ليلبسه فكان كفته، وكم رأى ممن يبني دارا ليسكنها فكانت قبره، وكم رأى من آخر كان يحب الولد ويشتهي، ويتضرع إلى الله عز وجل ويرغب إليه فيه، فلما أُعطيهِ ومُنَّ عليه بن جمع عليه الرجال وأنفق عليه الأموال وقال العقيقة سنة، والنفقة فيها حسنة، وربما كانت إلى الإسراف أقرب وإلى التبذير أميل، وربما كانت نفقته سببا للمناكر، وسُلِّمَ لبعض المعاصي على روية منه ومشاهدة لذلك، كما جرت العادة في الأعراس والولائم والاجتماعات، فيجعل الإسراف شكرا لتلك النعمة، والمعصية جزاء لتلك المنة.

ولعل الولد يموت بعد ذلك بأيام، أو بأشهر أو بأعوام أو يعيش فيرى فيه من الأمراض ٢٤/ب والأسقام وأنواع الابتلاء والامتحان ما يود معه أنه هولم يكن، فكيف ولده، هذا أمر مشاهد في العيان موجود بالبرهان، ولعله إن شب

ويبلغ فيه الأمل ورأى له من العمر ذاك الذي كان أمل ، صار له أعدى الأعداء وكان منه أبعد البعداء ، كما قد سمع بجماعة قتلهم أولادهم ليستعجلوا ميراثهم ، أوليصر لهم الملك بعدهم . ونعوذ بالله من أمر لا يستخار الله فيه ، ولا يرد إليه عند تمنيه .

وكذلك إن كان صاحب تجارة في سوقه ، وملتزما في دكانه إنما هو من الحانوت إلى الدار ، ومن الدار إلى الحانوت ، ومن الصباح إلى المصباح ، ومن البكرة إلى آخر الرواح .

وإن كان ممن يصلي في المسجد ويكثر التعاهد له قل ما يخلوفيه مع ربه ، ويتنصل من ذنبه ، إنما هو في الحديث مع فلان والضحك مع فلان ، والسؤال عن أحوال الإخوان ، وما جرى في البلدان ، وما اتفق في القديم من الأزمان . وربما أخرجه ذلك إلى الغيبة (٢١٧) وكثير من البهتان .

وكذلك صاحب الصنعة والضعيف من الحرفة إنما هو في كدّ وعناء وتعب وشقاء ونصب (٢١٨) وبلاء ، وكدّه وجهده ولذته وأمنيته أن يكسو ظهره ويشبع بطنه ، أو يقوم على عيال أو يغدو على أطفال ، مع شكايته لربه ، وتسخطه لحكمه ، وتبرم بقضائه وقلة صبره على بلائه ، ولا يحدث نفسه بموت ، ولا يخطر بباله زوال . ولعله إن ذكر الموت إنما يذكره متمنيا له ليرجحه من ذلك العذاب العاجل الذي عذب به ، وذلك البلاء النازل الذي نزل عليه . قد شغله مألقي في الحال عن النظر في المآل وعن التزود من صالح الأعمال ، فلا هو من أبناء الدنيا المنعمين ولا من طلابها المدركين ، ولا مع الصابرين الراضين الحامدين الشاكرين ولا يزال كل واحد من هؤلاء على حاله مواظبا ، ولما هو فيه ملازما ، حتى يموت على ما هو عليه ، ثم يبقى في البرزخ (٢١٩) على ما كان عليه ، ثم يبعث على ما بقي عليه في البرزخ ، أو تتغمده الرحمة ، وتغشاه المنة ، فيستنقذه ربه تعالى من هذه الغمرات ويأخذ بيده من هذه الهلكات ، ويجعل له نورا

(٢١٧) الغيبة : في ز الغيبة والنميمة .

(٢١٨) النصب : التعب .

(٢١٩) البرزخ : المدة التي تفصل بين الموت والقيامة .

يمشي به في الظلمات على ما يرجى من منته وفضله، لا رب غيره ولا معبود
سواء.

وربما كان الرجل مبخوتا من أول عمره إلى آخره، فيولد في نعمة ويتربى
في نعمة، وينشأ في نعمة، تمد عليه ظلالها وتطول من خلفه أذيالها، ويجدد عليه
في كل حين إسعادها وإقبالها قد صار لوالديه دينا ودنيا، فله يقومان وله يقعدان،
وله يهتمان وله يجمعان، وبعينه ينظران وبأذنيه يسمعان ثم يموتان ويسلمان له
تلك النعمة بكاملها، ويتركها له على حالها، لم يسمع له فيها أنين، ولا عرق له
فيها جبين، فيبقى هو على ما كان عليه، يمد في تلك النعمة يديه ورجليه،
ويفتح لها عينيه وأذنيه، فما شاء من لذة نال في الحال، وأخرى تنتظر في المال،
كلما نال لذة سعى في الأخرى ٢٥/أ وكلما وصل إلى مطلوب نظر في غيره. لم
يصحب إلا شكله، ولا يسمع إلا قوله، ولا رأى إلا عمله وفعله، فإن ذُكر
بالتوبة أو خوَّف بالموت قال دعنا من هذا وحدثنا في غير هذا، هذه سنوات الصبا
وأيام الشباب ومنازل اللذات ومرتع الأحباب.

كما قال القائل فيه وفي أمثاله:

نال أموراً خاب من نالها	ثم سعى يطلب أمثالها
وواقعَ الذنب فما هاله	والباذخات الشم قد هالها
وقال هذي سنوات الصبا	فاسحب على رسلك أذيالها
وقم إلى خاتم جريالها	ففضّه واستفّ جريالها (٢٢٠)
ومن يقل في شأننا قولة	فخلها في فم من قالها
أما ترى القضبان ميالة	فامدد على رأسك - ميالها
ومر يستهتر في عصابة	من شكله تصحب أشكالها
أولى له ثمّت أولى له	وتلكم العصابة أولى لها
يا ويحه (٢٢١) من غافل يا له	وتلكم يا ويحها يا لها

(٢٢٠) الحريال: الخمر. وهذا البيت سقط من ز.

(٢٢١) ويحه: في زويله.

وأما أكثر الشباب فيقول: إذا كبرت تبت، والطلق (٢٢٢) ممتد، والميدان عريض، ولا يرى هذا البائس أنه قد شيع إلى الآخرة من كان أصغر منه سنا، وأحدث منه بالرحم عهدا، قد غرته الشبيبة وخدعته الصحة، وتمكنت منه الغرة بما عنده من الثروة والقوة.

يقول: أنا صحيح ومتى أمرض ومتى أموت؟ ولا يرى المسكين أن الموت في الشباب أكثر، وحادثه إليهم فيه أسرع، وأن الذي يموت في الهرم قليل، وأن الانسان يموت بغتة، وإن لم يمت بغتة مرض بغتة ثم مات. كما يروى أن الحسن قيل له: إن فلانا مات بغتة، فقال: ما تعجبكم من ذلك؟ إنه لو لم يمت بغتة لمرض بغتة ثم مات، أما يعلم هذا المسكين (٢٢٣) المغرور أن الأرض كلها مكان للموت، وأن الزمان كله وقت للموت، لا يختص من الأرض بمكان دون مكان، ولا من الزمان بوقت دون وقت، فلا يزال هذا المغرور منكبا على شهوته، مثابرا على لذته، غافلا عن يوم صرعته حتى يؤخذ بما تأخروا تقدم، ويلقى صريعا لليدين والفم، إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم (٢٢٤)، تبكيه بواك طال ما من جباها أضحكته، وتندبه نوادب طال ما قبل ذلك غنته.

وفي مثل ذلك قيل:

تندبه نادبة طال ما غنته من قبل وغنى لها
ولم يكن يخطر ذا باله ولم تكن تخطر ذا بالها

فانظر - رحمك الله - كيف يقصر مع هذه الأحوال أمل، أو يستقيم معها عمل؟ أو كيف يطمع مع هذه الموانع أن يخرج حب الدنيا من القلب أو يقطع علائقها عن النفس، أو يخطر بالخطر ذكر الموت؟ كلا.
حب الدنيا في القلب أرسخ، وإخراجها منه أصعب، والنفس إليها أميل

(٢٢٢) الطلق: الشوط، الانطلاق وعدم التقييد، الخبل.

(٢٢٣) المسكين سقطت من ش وز.

(٢٢٤) إلى حيث ألفت رحلها أم قشعم: هذه العبارة سقطت من «ش» و«ز» و«ل».

وهي بها أشغف، وفي طلبها أهلك وأتلف، وعن طريق الرشد أبعد وأصرف .
وإن حب الدنيا هو الداء العضال الذي أهلك الرجال، وأفسد كثيرا من
الأعمال، إلا أن تأتي العناية الإلهية والشفاعة الربانية، فتصرف الانسان إلى
النظر الصحيح، وتحمله على الطريق المستقيم، فيرى بعين الحقيقة وصحيح
البصيرة أنه لا بد من الموت وإن طال المدى وامتد الطلق وبعدت الغاية وأنه يدفن
تحت أطباق الثرى، ويرمي به في ظلمات الأرض، ويسلط الدود على جسده،
والهوام على بدنه، فتأخذه من قرنه إلى قدمه ٢٥/ب وقد عدم الطيب،
وأسلمه القريب، وتركه الولي والحبيب، وعرض عليه عذاب السعير، وأناه منكر
ونكير، ولم يجد هنالك أنيسا إلا عمله، ولا صاحبا إلا فعله الذي فعله . كما قال
القائل :

اسلمني الأهل ببطن الثرى وانصرفوا عني فينا وحشتنا
وغادروني معدما يائسا ما بيدي اليوم إلا البكا
وكل ما كان كأن لم يكن وكان ما حاذرته قد أتى
وذاكم المجموع والمقتنى قد صار في كفي مثل الهبا (٢٢٥)
ولم أجد لي مؤنسا هاهنا غير فجور كان لي أو تقى
فلو تراني أو ترى حالي بكيت لي يا صاح (٢٢٦) مما ترى
وأما الدنيا فينظر إليها، فإن كان ملكا نظر إلى من تقدمه من الملوك، وما
فعل الدهر بهم، كيف فرق جموعهم وشتت جميعهم، واقفرت منهم قصورهم،
وعمرت بهم حفرهم وقبورهم .

وينظر إلى أيام ملكه هل يخلو من عدو يكابده، أو منازع يكايده أو قتال
يكافحه، أو مرض يهجم عليه، أو خلط سوء يثور معه .
وأنه كما قيل تمرة بجمرة، إن نال لذة تجرّع بعدها غصة، وإن أتته فرحة
غشيتها في أثرها ترحة (٢٢٧)، بل ربما كانت الترحات أكثر من الفرحات، والداهية

(٢٢٥) الهبا: الهباء ما يرى سابحا في الشمس إذا دخلت البيت من كوة .

(٢٢٦) يا صاح: أي يا صاحبي ويسمى هذا في النحو الترخيم وهو حذف آخر الاسم المنادى .

(٢٢٧) ترحة: حزن، هم، فقر .

أكثر من العافية، وكلما عظم ملكه عظمت همته، وامتد أمله، وأراد ما لا يمكن، وطلب ما لا يجد، وقد يأتيه النكد من حيث لا يظن، ويدخل معه الهم من حيث لا يحتسب، ولو من جارية يحبها، أو امرأة يشغف بها فيجعلها قبلته، ويصفي لها مودته، ويخلص لها محبته، ويريد منها مثل ذلك، والقلوب قد تتنافر، والمزاج ربما يختلف، والطباع قد لا تتفق، فيرى منها خلاف الذي يريد ويجد عندها غير الذي يطلب، ولا يقدر على معاقبتها، لأنه إن عاقبها إنما يعاقب نفسه، وإن آلمها إنما يؤلم قلبه، فتجده يتحمل منها ما لا يتحمل من بعض رعيته، فبينما هو ملك إذ قد صار مملوكا، وبينما هو رئيس إذ قد عاد مرؤوسا.

كما قد سمع وتحقق عن بعض الملوك، حتى قال أمير المؤمنين هارون

الرشيد، وقصته مشهورة:

ملك الثلاث الأنسات عناني (٢٢٨) وحللن من قلبي بكل مكان
 مالي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهنّ في عصيان
 ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني
 وقد تكون صادقة في محبتها، مخلصّة في مودتها، فيتهمها في ودادها، ولا يصدقها
 في إخلاصها لشدة كلفه (٢٢٩) بها، وفرط محبته لها، لأنه يتخيل أن عيشه لا
 يطيب، وسروره لا يتم، وفرحه لا يكون إلا بأن تخلص له المودة من قلبها، وتجه
 من ذات نفسها، وقد تكون له كما يريد، فيخلع عنانه معها، ويستوي سروره
 بها، فيصاب فيها بمرض، أو يفجع فيها بموت، فيعود الفرح حزنا، والسرور
 هماً.

كما يروى في قصة يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين أنه كان مشغوبا بجارية
 يقال لها حبابة، وكانت قد ملأت قلبه، وأطاشت عقله، وأذهبت لبه، ونزلت
 من نفسه حيث أرادت، وحلت منه ٢٦/أ بالمحل الذي شاءت، وكان قد نزل
 منها بالمكان الذي نزلت منه.

(٢٢٨) العنان: اللجام والمراد أنهن تحكمن فيه كما يتحكم الفارس بالفرس عندما يمسك لجامه.

(٢٢٩) الكلف: التعلق والحب الشديد.

فقال يوما لحاجبه : لا تأذن اليوم عليّ لأحد ، ولا تخبرني بخبر ولو كان فيه ذهاب ملكي .

وخلا بجاريته تلك في مجلس أنسه ومكان سروره ، ومعه من الدنيا ما يكون مع مثله ، فبينما هما على ما اشتها إذ أخذت حبة رمان فأدخلتها في فيها ، فشرقت بها ، فتخبطت حتى خرجت روحها بين يديه .

فلا تسأل عن حال يزيد وما طرأ عليه وما حل به ، فقد الصبر والعقل ، وتولّه وتخيّر وتدلّه ، وأكثر الصراخ والبكاء والصياح ، والعجيج والضجيج . ومنع من دفنها ، وصد عن مواراتها ، وأقامت على ذلك الحال أياما حتى تغيرت وأتنت .

فاجتمع إليه بنو أمية وعزوه فيها وصبروه عنها ، وسألوه في دفنها ، وقالوا له يا أمير المؤمنين هذه فضيحة بنا وسبة (٢٣٠) علينا ، وأي فائدة لك في تركها؟ وكم عسى أن تبقى على هذه الحالة؟ وكم عسى أن تدوم على هذه الصفة؟ فلم يزالوا به حتى كلمه النساء ممن يكرم عليه من أهله وسراريه ، إلى أن أمر بدفنها ، وخرج في جنازتها على رجليه .

فلما دفنت تمثل على قبرها بيتين لكثير:

وإن تسأل عنك النفس أو تدع الهوى . فبالياس تسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليل زارني فهو قائل . من اجلك هذا هامة اليوم أو غد

ثم أخرجها من قبرها بعد شهر ، وجعل يعانقها ويقبلها ، فاجتمع عليه أهله وبنو عمه من بني أمية ، وقالوا له : ما هذا يا أمير المؤمنين؟! والله لئن سمع بهذا لتخلعن من ملكك ، ولينقضن عليك أمرك ، وليقومن في مقامك هذا غيرك ، فأقصر عن هذا الهيمان وسكن من ذلك الهيجان ثم لم يزل واجدا عليها محزونا بموتها إلى أن مات ولم يعيش بعدها إلا يسيرا ، وكذلك غيره وغيره ، ويروى أنه ما عاش من بعدها إلا تسعة أيام أو نحوها .

(٢٣٠) سبة : عار .

ويروى (٢٣١) أن الهادي أمير المؤمنين كان له جارية تسمى غادر، وكانت أحظى من عنده وأغلبهم على قلبه، وأملكهم لنفسه، وكانت من أحسن الناس وجها وأطيبهم غناء، كان إبراهيم الموصلي هو الذي ربّأها وأدبها وعلمها وباعها بعشرة آلاف دينار.

فبينما الهادي يوما يشرب مع ندمائه، وهي تغنيهم من وراء الستارة، إذ عرض له فكر وسهو وتغير لون، وقطع الشراب فقال له ندمائه: مالك يا أمير المؤمنين؟ قال: وقع في فكري أي أموت، وأن أخي هارون يلي الخلافة بعدي ويتزوج جاريتي غادر هذه، فقالوا له: نعيذك بالله يا أمير المؤمنين، ويطيل الله بقاءك، وتقدم نحن وهويين يديك ونموت قبلك، فقال لهم: ليس هذا مما يزيل ما في نفسي، ثم أمر أن يؤتى برأس هارون، ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره، فعرفه بما خطر بباله، فاستعطفه هارون وجعل يكلمه بما يوجب زوال ما في نفسه، ويخضع له ويتذل، فلم يقنع بذلك، وقال: لا أرضى حتى تحلف لي بكل ما أحلفك به، أي إذا مت لم تتزوج جاريتي هذه غادر، قال: افعل. فأحلفه بكل يمين يحلف بها الناس من طلاق زعتاق وحج راجلا وغير ذلك من الأيمان المؤكدة أنه لا يتزوجها أبدا، فحلف له بجميع ذلك، فرضي وسكن ذلك الخاطر عنه.

ثم قام إلى الجارية، ودخل عليها السر، فأحلفها بالأيمان المؤكدة من الحج والعتق والصدقة، وما يحلف به النساء أنها لا تتزوجه أبدا، قال: فلم يلبث بعدها إلا شهرا أو نحوه حتى مات.

وولى هارون الخلافة بعده، فلما ولي بعث إلى الجارية فخطبها، فقالت: يا أمير المؤمنين، كيف بأيماني وأيمانك؟ قال: اكفر عن أيماني وأيمانك وأحج راجلا، ففعل، وتزوجها، فوقع من قلبه ألطف موقع، وشغف بها أشد من شغف أخيه الهادي، حتى كانت تسكر وتنام في حجره، فلا يتحرك ولا ينقلب حتى تنتبه.

فبينما هي ليلة نائمة في حجره إذ انتبهت فزعة مرعوبة، فقال لها: مالك

(٢٣١) من هنا انفردت به نسخة ل.

فديتك؟ فقالت له : رأيت أحاك الهادي الساعة في النوم ، فأنشدني :

أخلفت وعدي بعد ما جاورت سكان المقابر
ونسيتني وحنثت في أيمانك الكذب الفواجر
وحللت في أهل البلى وغدوت في الحور الغرائر
ونكحت غادرة أخي صدق الذي سماك غادر
لا يهنك الإلف الجدي د ولا تدُر عنك الدوائر
ولحقت بي قبل الصبا ح وصرت حيث غدوت صائر

قالت : ثم ولي عني ، ولكأنها مكتوبة في قلبي ، ما نسيت منها كلمة .

فقال لها هارون : هذه أحلام الشيطان ، فقالت : كلا والله يا أمير

المؤمنين ، ثم اضطربت بين يديه ، وتخبطت حتى خرجت روحها تلك الساعة .

ولا تسل عن هارون وما لقي عليها .

وكذلك إن لم يكن ملكا وكان وزيرا أو غير ذلك من أصناف الناس ،

وصفاتهم في قلب الدنيا بهم معلومة ، وأحوالهم فيها مشهورة وكل واحد منا يعلم هذا من نفسه ، ويراه من غيره .

وانه ليس من إنسان إلا وله شرب من الكدر ، ونصيب من الهم ، يقل

عند إنسان ويكثر عند آخر . فإذا أخذ نفسه بهذه الأفكار ، وعرض عليها هذا

الاعتبار أعرض عن الدنيا ولم يلتفت إليها ولا شغل نفسه بها ، وتذكر الموت

وخاف فجأته ولم يأمن بغتته ، ولم يسمع إلا وحبته ، ولا رأى إلا صدمته وصرعته ،

والله تعالى ولي التوفيق بفضله وطوله ، لا رب غيره ولا معبود سواه .

وأنشدوا :

فتذكرت أنت إلفا وربعا

مصرعا قد تقدمت فيه صرعي

وحديثا يجري فؤادك دمعا

كل هذي جمعن عندك جمعا

حيث لاحت بروقها حيث تسعي

سجعت هذه الحمامة سجعا

لا لشيء إلا لأنك ناس

وحديثا من بعده وحديثا

يا جهولا وغافلا وظلوما

ما لأمالي انتجعت سناها

خَلْبُ أبردُ المناهل ماء مهمل أجذب المراتع مرعى
شغلت نفسك اللجوج وأعمت منك عينا وأثقلت منك سمعا
فخطيت بالدواء أساةً لم يروا للدواء عندك نجعا
ومحال بأن يرى فيك شحم لانتجاع وانت جسمك ترعى (٢٣٢)

واعلم رحمك الله انه من كان منتظرا العقاب أن ينزل به من أميربلدته أو عظيم قريته، فإنه لا يزال متألماً القلب مشغول النفس، وبحسب النوع الذي يخاف من العقاب يكون ألم قلبه وشغل نفسه.

فإنه من توعدده الأمير بأن يضربه مائة سوط، فإنه أشغل سرا من توعدده أن يضربه عشرة أسواط، ومن توعدده ان يقطع جارحة من جوارحه كان أكثر توجعا ممن توعدده بأن يضربه مائة سوط، ومن توعدده بأن يضرب عنقه كان أشد خوفا ممن ترعده بأن يقطع بعض جوارحه، وكذلك من توعدده بأن يجعل عليه أنواع العذاب ويعاقبه بضروب من العقاب حتى يموت تحتها وتخرج نفسه بها، كان أعظم جزعا ممن توعدده بضرب عنقه. هذا هو المتعارف.

فإن وجد إنسان يختار تطويل العذاب ويهون عليه (٢٣٣) رغبة منه في ٢٦/ ب الحياة ما بين موته بالعذاب وسرعة موته بالسيف فهذا رجل قد غلب عليه الجزع، وملك قلبه الهلع، فأطاش لبه وأزال عقله، حتى منعه من حسن النظر وأوقعه في سيء الاختيار.

وما منا أحد إلا وقد توعد بالقتل، لأن الموت قتل في الباطن، ألا ترى أنه يقال قتل فلان فلانا، فيقال بم قتله؟ فيقال: بسيف أو بسكين أو بخنجر أو خنقه أو غرقه أو بغير ذلك من أنواع القتل، والموت كالخنق، فهو إذن قتلة من القتلات، وإنما جرت العادة بأن يقال: قتل فلان، إذا قتله مخلوق، وقد يقال قتل الله فلانا وهو قد مات من علة أو مات بغتة، ولم يكن لمخلوق في ذلك فعل. فقد بان لك اذن أن كل واحد منا ينتظر القتل، ولا فرق بين أن يثب عليك إنسان بسيف أو بسكين أو خنجر أو بغير ذلك، فيقتلك، أو يثب عليك

(٢٣٢) هذه الأبيات انفردت بها نسخة ل.

(٢٣٣) ويهون عليه: سقطت من زوش.

ملك الموت فيقبض روحك .

فلو كشف للناس عن أبصارهم فأروه حين يثب عليك ، وشاهدوه في الباطن حين يأخذ روحك ، لما كان بينه وبين إنسان يقتلك - في الظاهر - فرق ، إلا أن الانسان يحتاج إلى آلة يقتل بها من سيف أو سكين أو غير ذلك ، والملك لا يحتاج إلى شيء من ذلك .

فإن أخذك إنسان ورؤّعك (٢٣٤) وحبسك للقتل وهددك ثم قتلك ، فاجعل ذلك الألم الذي تجده من حبسه وترويعه وتهديده ، كالذي يصيبك من المرض أو مما كان من العلل قبل الموت ، ثم تموت .

ومعلوم أن من الأمراض ما يقوم ألمه مقام التهديد ، والوعيد ، بل منها ما هو أشد وأشق ، كوجع الاحتقان ، ووجع الحصى وغيرهما ، وقد شوهد من الناس من مات من وجع الحصى ووجع الاحتقان .

وليس القتل الذي هو الضرب بشيء على يد مخلوق ، ولا ما يكون على يد غير المخلوق ، كالهدم والغرق والحرق وغير ذلك مما يزيد في شدة الموت ، ويكثر من ألمه ووجعه ، لأن هذه كلها أسباب للموت ، والموت شيء آخر ، وهو أمر إلهي ينزل بالروح لا يعلم حقيقته إلا الذي ينزل به .

قال أبو حامد (٢٣٥) - رحمه الله - : اعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها على الحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذوقها فإنما يعرفها إما بالقياس على الآلام التي أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزاع على شدة ما هم فيه . فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضواً روح فيه لا يحس بالألم ، فإذا كان فيه الروح أحس ، فالمدرك للألم هو الروح ، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر (٢٣٦) إلى الروح ، فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الأثر ، فإن كان في الألم ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره ، فما أعظم ذلك الألم وما أشده .

(٢٣٤) رؤّعك : خوّفك .

(٢٣٥) أبو حامد الغزالي - إحياء علوم الدين ٤ / ٤٦١ الباب الثالث في سكرات الموت وشدته .

(٢٣٦) الأثر : في ش و ز الألم .

والنزاع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجده في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة ٢٧/ أ وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحرق ظاهرا ولا باطنا إلا وتصيبه النار، فيحسّ به في الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم.

وأما الجراحة فإنها تصيب الموضع الذي يمسه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار.

فألم النزاع يهجم على نفس الروح فيستغرق جميع أجزائه، فإنه المنزوع والمجذوب من كل عرق من العروق، وعصب من الأعصاب، وجزء من الأجزاء، ومفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة من القرن إلى القائم.

فلا تسأل عن كربيه وألمه، حتى قالوا إن الموت أشد من ضرب بالسيف ونشر بالناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح؟

وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوة في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه وكربيه، لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه شدة ألمه وغلب على كل موضع منه، فهد كل جزء، وأضعف كل جراحة، فلم يترك له قوة الاستغاثة.

أما العقل فقد غشيه وشوشه، وأما اللسان فقد أبكمه، وأما الأطراف فقد أضعفها.

ويود أن لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك. فإن بقيت فيه قوة سمعت له عند نزاع الروح وجذبه خوارا وغرغرة من حلقة وصدرة. وقد تغير لونه وأربدّ حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل خلقتة، وقد جذب منه كل عرق على حياله، فالألم منتشر في داخله وخارجه، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعلى جفونه، ويتقلص اللسان إلى أصله، وترتفع

الأثنيان إلى أعالي موضعهما، وتخضراً أنامله .

فلا تسأل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ، ولو كان المجذوب
عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ، وليس هو من
عرق واحد بل من العروق كلها .

ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجاً ، فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم
فخذه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها
الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، وينغلق دونه باب التوبة ،
وتحيط به الندامة والحسرة .

ويروى (٢٣٧) أن العبد يقول لملك الموت عند الموت : يا ملك الموت اخبرني يوماً
استعجب فيه وأتوب إلى ربي وأعمل صالحاً ، فيقول له : فريت الأيام فلا يوم ،
فيقول : أخبرني ساعة ، فيقول : فريت الساعات فلا ساعة ، فتبلغ الروح
الحلقوم ، فيؤخذ بكظمه عند الغرغرة ، فيغلق باب التوبة دونه ويحجب عنها ،
وتنقطع الأعمال وتطوى الصحف وتتم الأوقات ، ويبقى عدد الأنفاس يشهد
فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحد بصره ، فإذا كان في آخر نفس يدركه ما
سبق له من السعادة ، فتخرج روحه على الإيمان ، فذلك حسن الخاتمة ، أو
يدركه ما سبق له من الشقاوة ، فتخرج روحه على الكفر أو الشك ، وذلك سوء
الخاتمة ، ونعوذ بالله ثم نعوذ بالله .

٢٧/ ب وأنشد بعضهم :

كأنني بنفسي على ضعفها	تَجَرَّعُ رُغْمًا كَوْوَسَ الردى
وقد كشف الله عنها الغطا	فحنت هناك لكشف الغطا
ومدّت إليها يد فظة	لفظ غليظ شديد القوى
فما شئت من نفس ضيق	وجذب عروق وقطع الحشا
ونفس تساق أشد مساق	فتضغط في لهوات الفتى
ولا دافع يرتجى دفعه	ولا قائل ما به يفتدى
ومالي انتصار ولا لي قرار	ومالي من حيلة ترتجى

(٢٣٧) من هنا إلى : ثم نعوذ بالله ، انفردت به نسخة «ل» .

فحق ليومي بطول البكا

ذلك من ريب ولا شك
وحال بين الفك والفك
ولم أكن عنه بمنفك
كأنها تمخض في مسك (٢٣٩)
في ومن عجب ومن فتك
يظل منها شامتي يبكي
جمعته من زور ومن إفك
وزال عن حكمي وعن ملكي
تكثرت من همي ومن معكي (٢٤٠)
ملء جفوني بدم أبكي
سال لذي الاخلاص والشك
في عيشه من حالة ضنك
ورد عن بابك بالصك
وتحتويه سعة الملك
واعدل به عن هوة الهلك
غيرك أو عن فضله نحكي

فدعني ويومي أبكي له
وأشدوا أيضا:

يا ندما أندمه نيس في
إذا أرسى الموت على لبتي (٢٣٨)
ولم يكن لي عنه من مخلص
وحشرجت نفسي في صدرها
وكل ما تدريه من نخوة
قد عاد ذاكم كله ذلة
وذاكم المال الذي كنت قد
قد حيل مابيني ومابينه
غير تبعات تحملتها
فكيف لا أندم أو كيف لا
فيا إلهي والذي جوده
رحماك في واهي القوي بائس
قد حجبته عنك آثامه
إن لم ينله عفوك المرتجى
فاعف إلهي عنه واغفر له
أولا فمن ذا جوده يرتجى

ويروى أن النبي ﷺ دخل على مريض فقال: إني لأعلم ما يلقي، ما
فيه عرق إلا ويألم للموت على حدته (٢٤١).

وكان علي رضي الله عنه يجرض على القتال ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا،
والذي نفس محمد بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت علي فراش.

(٢٣٨) اللبة: المنحر، موضع القلادة من الصدر.

(٢٣٩) تمخض في مسك: تمخض وتحرك في قرية جلد كما يفعل باللبن.

(٢٤٠) المعك: الدلك، الذلة والاهانة.

(٢٤١) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث سلمان بسند ضعيف.

وقال شداد بن أوس: الموت أفضح هول في الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشد من نشر المناشير، وقرض المقاريض، وغلي في القدور، ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بألم الموت لما انتفعوا بعيش ولا التذوا بنوم (٢٤٢).

ودخل الحسن البصري رحمه الله على رجل مريض، فوجده في سكرات الموت، فنظر إليه وقال: إن أمرا هذا أوله ينبغي أن يتقى (٢٤٣) آخره، وإن أمرا هذا آخره، ينبغي أن يزهد في أوله.

ويروى أن النبي ﷺ كان عنده قدح من ماء عندما نزل به الموت، فجعل يدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت، وروى يدخل يده في الأناء ويمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات، وفاطمة ابنته رضي الله عنها تقول واكرباه لكربك يا أبتاه، وهو يقول: لا كرب على أبيك بعد اليوم.

ذكره البخاري ومسلم والنسائي وغيرهما، ذكر كل واحد منهم أشياء لم يذكرها صاحبه.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: يا معشر الحوارين ادعوا الله لي أن يهون علي ٢٨ / أهذه السكره، يعني الموت، فقد خفت من الموت مخافة أوقعني خوفا من الموت على الموت.

وعن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إذا بقي على المؤمن من ذنوبه شيء لم يبلغه بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وشدائده درجته في الجنة، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفا في الدنيا هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا ثم يصير إلى النار. (٢٤٤).

وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: لوددت أني رأيت رجلا ليبيّا حازما قد نزل به الموت فيخبرني عن الموت، فلما نزل به الموت قيل له يا أبا عبدالله، قد كنت تقول في حياتك: وددت أني رأيت رجلا ليبيّا حازما قد نزل به

(٢٤٢) الإحياء ٤/٤٦٣.

(٢٤٣) يتجنب.

(٢٤٤) الإحياء: ٤/٤٦٣.

الموت يخبرني عن الموت وأنت ذلك الرجل اللبيب الحازم، وقد نزل بك الموت فأخبرنا عنه .

فقال : أجد كأن السموات أطبقت على الأرض وأنا بينهما، وكأن نفسي يخرج من ثقب إبره، وكان غصن شوك يجرم من هامتي إلى قدمي .
ويروى عن مكحول رحمه الله عن النبي ﷺ أنه قال : لو أن شعرة من شعرات الميت وضعت على أهل السموات والأرض لمتوا بإذن الله تعالى ، لأن في كل شعرة من الميت الموت ولا يقع الموت على شيء إلا مات . (٢٤٥)
وأنشدوا :

ماذا تؤمل والأيام ذاهية ومن ورائك للآمال قطاع
وصيحة لهجوم الموت منكرة صُمت لوقعتها الشنعاء أسماعُ
وغصة بكووس أنت شارها لها بقلبك آلام وأوجاع (٢٤٦)
يا غافلا وهو مطلوب ومتبع أتاك سيل من الفرسان دفاع
خذها إليك طعانا فيك نافذة تعدي الجليس وأمرليس يسطاع
إن المنية لوتلقى على جبل لأصبح الصخر منه وهو ميع
ويروى أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما مات قال الله عز وجل له :
كيف وجدت الموت؟ قال : كسفود جعل في النار ثم أدخل في صوف رطب ثم
جذب ، فقال الله تعالى : أما إننا لقد هواناه عليك يا إبراهيم . (٢٤٧)

ويروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال
له : يا موسى ، كيف وجدت الموت؟ فقال : وجدت نفسي كالعصفور حين يلتقي
في المقلبي ، لا يموت فيستريح ، ولا ينجو فيطير (٢٤٨)
ويروى عنه أنه قال : وجدت نفسي كشاة حية بيد القصاب تسليخ .
وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب حدثنا عن الموت ،

-
- (٢٤٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في رواية ابن ميسرة مرسلا ، وهو حسن الاسناد الإحياء ٤/٤٦٣ .
(٢٤٦) سقط هذا البيت من ش .
(٢٤٧) الإحياء ٤/٤٦٣ أيضا .
(٢٤٨) الإحياء ٤/٤٦٣ .

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل فأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب، فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى. (٢٤٩)

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: تحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج فإنهم كانت فيهم أعاجيب، ثم أنشأ يحدث قال: خرجت طائفة فأتوا مقبرة من مقابرهم، فقالوا: لو صلينا ركعتين ودعونا الله تعالى أن يخرج ٢٨/ب لنا بعض الأموات فيخبرنا عن الموت، قال: ففعلوا، فبينما هم على ذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر وبين عينيه أثر السجود، فقال: يا هؤلاء ما أردتم إلي؟ فوالله لقد مت منذ مائة سنة وما سكنت عني حرارة الموت حتى الآن، فادعوا الله أن يعيدني كما كنت (٢٥٠).

وفي الخبر أن العبد الصالح ليعالج سكرات الموت وكروبه، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض يقول: عليك السلام، لا نجتمع إلى يوم القيامة. (٢٥١)

وأما مشاهدة صورة ملك الموت وما يدخل في القلب منه من الروع والفرع فهو أمر لا يعبر عنه لعظم هولاه وفضاعة رؤيته، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الذي يشاهده ويطلع عليه. وإنما هي أمثال تضرب، وحكايات تحكى.

يروى أن إبراهيم الخليل عليه السلام قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض بها روح الفاجر؟ فقال: لا تطيق ذلك. قال: بلى. قال: فأعرض عني. فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود الثياب، قائم الشعر، منتن الريح، يخرج من فيه ومناخره هب النار والدخان، قال فغشي على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى. فقال: ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلا رؤية (٢٥٢) وجهك لكان ذلك

(٢٤٩) نفس المصدر.

(٢٥٠) حكاة الغزالي في الإحياء ٤/٤٦٢ بلفظ روى ولم ينسبه إلى رسول الله ﷺ ولا إلى غيره. وذكر خمسين سنة بدل مائة.

(٢٥١) روى عن إبراهيم بن هذبة، وهو هالك.

(٢٥٢) في ش وز صورة بدلا من رؤية.

حسبه (٢٥٣).

ونظر إبراهيم الزيات رحمه الله إلى أناس يترحمون على ميت، فقال: لو تترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم، إن ميتكم قد نجا من أهوال ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رآه، ومرارة الموت، وقد ذاقها، وخوف الخاتمة وقد أمنها.

ويروى عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إذا قبض ملك الموت روح العبد قام على عتبة بابه ولأهل البيت ضجة، فمنهم الضاربة وجهها، ومنهم الناشرة شعرها، ومنهم الداعية يا ويلها. فيقول ملك الموت: فيم هذا الجزع؟ فوالله ما انتقصت لأحد منكم عمرا، ولا أخذت لأحد منكم رزقا، ولا ظلمت أحدا منكم حقا، فإن كانت شكايتم وتسخطكم عليّ فيني والله مأمور، وإن كانت عليّ ميتكم فإنه مقهور، وإن كانت من ربكم فأنتم به كفر، ولي فيكم عودة ثم عودة حتى (٢٥٤) لا أبقى منكم أحدا.

قال: فلو سمعوا كلامه ورأوا مكانه لشغلوا عن ميتهم وبكوا على

أنفسهم.

وأنشد بعضهم:

بكى لأن مات ميت من عشيرته
وبات فوق حشاه للأسى لهب
ولورأى بصحيح العقل حين رأى
لما رأى الدهر ميتا أو أحس به
ومن رأى السمر (٢٥٧) في جنبه شارعة
وظلعة الموت أن تطلع على أحد

ولعلك تقول: قد ذكرت من هول الموت وشدته وكربه وغصته، وأنه أشد

من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وأنه . . . وقد شاهدنا ٢٩ / أ من بعض

(٢٥٣) حسبه: كافي.

(٢٥٤) عبارة: حتى لا . . . الخ سقطت من ش وز.

(٢٥٥) واحربيا: عبارة يندب بها الميت وتعني الويل والتأسف.

(٢٥٦) الخبو: الخمود والسكون.

(٢٥٧) السمر: الرماح.

الأموات ما يدل على أن الموت ليس كما وصفت، وأنه إنما هو كأس يسهل على إنسان ويصعب على آخر، وقد رأينا من الأموات من يتحدث فيوصي ويشهد بهاله وبما عليه، ونفسه تخرج من قدميه إلى صدره أو إلى حلقه وهو على حاله في وصيته وإشهاده، وربما ظن من رآه فجأة أنه لا بأس عليه ولا موت عنده، ثم يموت كذلك، وما هذه صفة من ينشر بالمناشير ويقرض بالمقاريض ويفعل به ويفعل به . . . ولو كان كذلك لمنع ألم النشر ووجع القرض وكرب الموت عن الكلام والإشهاد، وعن الوصية بأن يدفن في موضع كذا وكذا، وأن يكفن في ثوب كذا وكذا.

ولو كان كما قلت فقد رأينا من سرعة خروج بعض الأرواح مالو كان في الميت أضعاف ما قلت من الشدة لما كان يبالي في ذلك لسرعة خروج روحه وعجلة استلابها.

نعم للموت عند الأكثر مقدمات من الآلام والأمراض والأسقام يبلغ منه البالغ قبل الموت ثم يموت، وقد تنزل تلك الأمراض والاسقام بآخر فتشرف به على اليقين وتريه المنون قبل المنون ثم تقلع عنه فلا يبقى لها أثر وكأنه ما سمع لها بخبر.

فأقول: صدقت والأمركما قلت، وقد شوهدي في بعض الأموات ما ذكرت، وقد علم أن الموت يهون على بعض الناس ويسهل عليه، وبعضهم أو أكثرهم يشدد عليه ويغص به، فمن أي الفريقين أنت؟ ممن يهون عليه أو ممن يصعب عليه؟ فلا بد لك من أن تشرب بأحد الكأسين وترمي بأحد السهمين، لا بد لك من ذلك فما الذي يؤمنك أن تطعم أضربه وتسقي أمره وتصلي أشقه وأحره؟ ما الذي أمّنك من هذا، وكيفما كان فالموت شره كربه وكأس مرّة حتى ان الإنسان لو عرض عليه مقعده من الجنة وقيل له تموت ثم تصير إليه ربما انقبض عن ذلك وانجمع عندما يذكر له الموت.

كما روى عن سهل بن عبد الله التستري رحمه الله أن وليا من أولياء الله عز وجل تبدى له ملك الموت فأخبره برضا الله عز وجل عنه وبشره بالجنة وأنه يموت في وقت قريب حده له.

قال سهل : فقلت له كيف وجدت نفسك عند ذكر الموت؟ فقال :
أصابني قشعريرة . ثم مات الرجل في الوقت الذي حدّ له .

وقد تقدم لك أن النبي ﷺ كان عند الموت يدخل يده في قدح فيه ماء
ويمسح به وجهه ويقول : اللهم هونّ علي سكرات الموت .

وقال (٢٥٨) عمر بن صبيح السعيدى : رأيت عبدالعزيز بن سليمان العابد
في منامي بعد موته وعليه ثياب خضر وعلى رأسه إكليل من لؤلؤ، فقلت له : يا
أبا محمد كيف كنت بعدنا؟ وكيف وجدت طعم الموت؟ وكيف وجدت الأمر
هناك؟ فقال : أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه ، ولكن رحمة الله تعالى
سترت منا كل عيب ، وما نلتها إلا بفضلها .

وأيضاً فإنك لا تدري بما تسمع نعمة الملك ٢٩ / ب الوارد عليك من
ربك ، ولا بما إذا يبشرك ولا بد لك من إحدى البشريين والإعلام بمنزلك الذي
كتب لك من إحدى الدارين ، ولا بد لك من أن يقرع سمعك قوله إما يا وليّ
الله أبشر بالجنة ، وإما ياعدو الله أبشر بالنار .

وهذا هو الذي قطع قلوب الخائفين ، وأسأل عبرات التائبين وأسهر ليالي
العابدين .

وإن كنت من جملة الخاطئين وأصحاب الكبائر من المسلمين فلا بد أن
يفتح لك الباب الذي تلج منه ، ويظهر لك العمل الذي تسأل عنه .

وقد تقدم الحديث الصحيح عن الله عز وجل : إذا أحب عبدي لقائي
أحببت لقاءه ، وإذا كره عبدي لقائي كرهت لقاءه .

وإن هذه المحبة وهذه الكراهية لا تكون إلا عند الموت . ذكرت ذلك
عائشة رضي الله عنها . وهذا موضع ذكرى تتفتت لها الأعضاء وتتصدع لها .

الأكبَاد .
وسأذكر لك جملة من كلام المرضى والمختضرين من الصحابة والتابعين .

ومن بعدهم من الصالحين ، وغيرهم من المغترين والجهلة المخدوعين لعله يحرك
منك ، ساكناً ويخوف منك آمناً ، ويشغلك بعون الله ظاهراً وباطناً .

(٢٥٨) من هنا إلى وأيضاً سقط من ش .

ويروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه مرض ، فقيل له : ألا ندعوك طبيبا؟ فقال : قد رأني . فقالوا : وأي شيء قال لك؟ قال : قال إني فعال لما أريد .

ومرض أبو الدرداء رضي الله عنه ، فقالوا (٢٥٩) له : أي شيء تشتهي؟ قال : الجنة . قالوا : ندعوك طبيبا؟ قال : الطبيب أمرضني . فقال له رجل من أصحابه : يا أبا الدرداء أتشتهي أن أسامرك الليلة؟ فقال أبو الدرداء : أنت معافي وأنا مبتلى فالعافية لا تدعك أن تسهر ، والبلاء لا يدعني أن أنام ، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يهب لأهل العافية الشكر ، ولأهل البلاء الصبر .

ولما اشتد المرض على عمر بن عبدالعزيز جاءوه بطبيب ، فلما دخل عليه ورآه قال : إنه قد سقي السم ولا آمن عليه الموت فرفع بصره عمر وقال : لا يؤمن أيضا الموت على من لم يسق السم فقال الطبيب : وهل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال : نعم عرفت ذلك حين وقع في بطني . قال : تعالج يا أمير المؤمنين فإني أخاف أن تذهب نفسك . فقال عمر : ربي تبارك وتعالى خير مذهب إليه ، والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني ما رفعت إليه يدي ، اللهم خير (٢٦٠) لعمر في لقائك فلم يلبث إلا أياما قلائل حتى مات رضي الله عنه .

ومرض الربيع بن خثيم رضي الله عنه فقالوا له : ألا ندعوك طبيبا؟ فتفكر وقال : أين عاد وثمود وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثير ، قد كانت فيهم الأدوية والأطباء ، فلا أرى المداوي بقي ولا المداوي ، كل قد قضى (٢٦١) ومضى ، والله لا أدعولي طبيبا أبدا .

وذكر ابن جهضم في كتابه عن أبي يعقوب يوسف بن أحمد قال : خرجت إلى مكة على طريق البصرة ومعني جماعة فقراء وفيهم شاب كنت أميل إليه لحسن سمته (٢٦٢) ٣٠/أ ومراعاة حاله واشتهاره بذكر ربه وكثرة مناجاته

(٢٥٩) من هنا إلى : فقال له رجل سقط من ز .

(٢٦٠) خبره : أي اختر .

(٢٦١) قضى : مات .

(٢٦٢) سمته : السمّت : الهيئة .

وتملقه (٢٦٣)، فلما وصلنا إلى المدينة شرفها الله تعالى مرضى مرضا شديدا وانفرد عنا فسرت إليه مع جماعة من أصحابنا نتعرف خبره، فلما رأينا شدة ما به قال بعضنا: لو أحضرنا له طبيبا ينظر إليه ويرى علته فلعله يكون عنده دواء فاستمع الشاب مقالته فتبسم من ذلك وقال: يا مشايخي ويا أحبائي ما أقيح المخالفة بعد الموافقة، من أراد الله له حالا وأراد هو غيرها أليس قد خالف الله في إرادته؟ قال أبو يعقوب: فخجلنا من كلامه، فنظر إلينا وقال: لو علمتم داء القتل لطلبتم لدائه دواء، إن الأمراض والأسقام فيها تطهير وتكفير وتذكير، ودواء القتل مشاهدة النفس وموافقة الهوى.

ثم أنشأ يقول:

بيد الله دوائي وبعلم الله دائي
إنما أظلم نفسي باتباعي لهوائي
كلها داويت دائي غلب الداء دوائي

فقمنا من عنده وتركناه، يريد بقوله داء القتل: الداء الذي يقتل صاحبه وهو اتباع الهوى.

وقيل لحسان بن أبي سنان في مرضه: كيف تجدك؟ قال: أجدني بخير إن نجوت من النار (٢٦٤).

وقال بعض الصالحين: دخلنا على مغيرة الخراز وهو مريض، فقلنا له: كيف تجدك؟ فقال: أجدني موقرا (٢٦٥) بالآثام. فقلنا له: فما تشتكي؟ قال: الحسرة على طول الغفلة. قلنا: فما تشتهي؟ قال: الإجابة إلى ما عند الله والنقلة عما يكرهه الله. قال: فبكى القوم جميعا.

ودخل الحسن البصري على عطاء السلمي وهو مريض، فوجده قد علاه الغبار والصفار، فقال: يا عطاء لو خرجت إلى صحن الدار فكان يضربك

(٢٦٣) تملقه: تقربه.

(٢٦٤) من وقيل لحسان إلى هنا سقط من «ل».

(٢٦٥) موقرا: مثقلا.

الهواء فتجد له راحة، فقال له: يا أبا سعيد وبهذا تأمرني، إني لأستحي من الله عز وجل أن أخطو خطوة في راحة بدني.

وقال منصور: دخلت على عطاء السلمي بعد هذا أعوده وهو مريض، فرأيته يتبسم فعجبت من ذلك، فكأنه فهم عني.

فقال: أتعجب يا ابن أخي؟ فقلت: وكيف لا أعجب؟ فقال: وكيف لا أضحك وقد دنا فراقني ممن كنت أخافه وأحذره، ودنا قدومي على خالق كنت أرجوه وآمله، أتجعل مقامي مع مخلوق أخافه كقدومي على خالق أرجوه، قال هذا قبل أن يحضره وينزل به الموت.

قال أحمد بن أبي الحواري: دخلت على بعض المتعبدين وهو مريض فقلت: كيف تجددك؟ فقال: بحال شريفة، أسير كريم، حبيس جواد مع أعوان صدق، والله لو لم يكن لي مما ترون عوضا إلا ما أودع قلبي من محبته لكنت خليقا أن أدوم على الرضى عنه، بما الدنيا وما غاية البلاء فيها؟ هل هو إلا ما ترون من هذه العلة؟ ويوشك إن اشتد بي الأمر أن يدخلني إلى سيدي، ولنعمت العلة رحلت بمحب إلى محبوب قد أحزنه طول التخلف عنه.

ويروى أن مالك بن دينار رحمه الله دخل على شاب يعود، فوجده خيالا على فراشه كالشن (٢٦٦) البالي، فسأله عن حاله فلم يستطع الجواب بلسانه فأشار بطرفه (٢٦٧)، فبينما نحن كذلك ٣٠/ب إذا بصوت المؤذن فسمعناه يقول كما يقول المؤذن ويشير بأصبعه عند الشهادتين، ثم أمر ولده فوضأه ثم أمره أن يوجهه إلى القبلة ليصلي راقدا بالإيماء. ثم قال: يا مالك البلاء منه سبحانه راحة مع بقاء الايمان، يا مالك نعمه لا تعد وبلاؤه واحد، قال مالك: فتعجت من يقينه وصبره وصدق وفائه وخالص محبته، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات رحمه الله.

وقال عبد الله بن عتبة عدت رجلا مريضا، فلما قعدت عنده قلت له: كيف تجددك؟ فقال:

(٢٦٦) الشن: الجلد.

(٢٦٧) طرفه: عينه.

خرجت من الدنيا وقامت قيامتي
وعجل أهلي حفر قبري وصيروا
كأنهم لم يعرفوا قط صورتني
غداة أقل^(٢٦٨) الحاملون جنازتي
خروجي وتعجيلي أجل كرامتي
غداة أتى يومي عليّ وساعتي

ولما احتضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه جاءته ابنته عائشة أم المؤمنين
رضي الله عنها فلما رأته تمثلت بهذا البيت:
لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف أبو بكر عن وجهه وقال: ليس كذلك ولكن قولي: «وجاءت
سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد».

ثم قال: في كم كُفّن رسول الله ﷺ؟ قالت في ثلاثة أثواب بيض
سحولية. فقال أبو بكر: خذوا هذا الثوب - لثوب كان عليه قد أصابه مسك أو
زعفران - فاغسلوه ثم كفنوني فيه مع ثوبين آخرين، وكان ثوبا خلقا، فقالت
عائشة رضي الله عنها: ما هذا؟ تريد أنه خلق. فقال أبو بكر: الحي أحوج إلى
الجديد من الميت، إنما هذه للمهل، يريد الصديد والقيح. ثم سمع منشدا في
البيت ينشد:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
فالتفت إليه أبو بكر رضي الله عنه وقال: ذاك رسول الله ﷺ. وصدق أبو
بكر فهذا البيت قاله أبو طالب عم رسول الله في قصيدته التي مدح بها رسول
الله ﷺ، وقال فيها:

وما ترك قوم لا أبالك سيدا
يحوط الذمار غير ذرب مواكل^(٢٦٩)
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(٢٧٠)

(٢٦٨) أقل: حمل.
(٢٦٩) الذمار: ما يلزمك حمايته. والذرب: الفاحش المنطق. والمواكل: الذي لا جد عنده فهو
يكل أموره إلى غيره.
(٢٧٠) ثمال اليتامى: الذي يقوم بهم. والقصيدة في سيرة ابن هشام ١/٣٠٠ في أربعة وتسعين
بيتا. وقال ابن هشام: بعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها.

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل
كذا قال أبو طالب: «يلوذ به الهلاك من آل هاشم». ولم يدر أنه ﷺ يلوذ
به الهلاك من بني آدم.

ويروى عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أنه قال: لما احتضر أبو بكر الصديق
رضي الله عنه أتاه ناس من أصحابه فقالوا له: يا خليفة رسول الله إنا نراك ألم
بك فأوصنا بوصية وزودنا منك بموعظة. فقال من قال هذه الكلمات ثم مات
جعل الله روحه في الأفق المبين. فقالوا: وما الأفق المبين؟ قال: قاع بين يدي
العرش فيه رياض وأشجار وأنهار، فمن قال هذا القول جعله الله في ذلك
المكان.

اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقا للنعيم
وفريقا للسعير، فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير، اللهم إنك خلقتهم وميزتهم
قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقني
بمعاصيك. اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس ٣١/أ قبل أن تخلقها، ولا
محيص (٢٧١) لهم مما علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك، اللهم إن أحدا لا
يشاء إلا ما تشاء فاجعل مشيئتي أن أشاء ما يقربني إليك، اللهم إنك قدرت
حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا بإذنك فاجعل حركاتي في تقواك، اللهم
إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منها عاملا يعمل به فاجعلني من
خير القسمين، اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منها أهلا
فاجعلني من ساكني جنتك، اللهم إنك أردت الضلال بقوم وضيقت به
صدروهم فاشرح صدري للإيمان وزينه في قلبي، اللهم إنك دبرت الأمور
فجعلت مصيرها إليك فاحيني حياة طيبة وقربني إليك زلفى، اللهم من أصبح
وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك فانت ثقتي ورجائي، ولا حول ولا قوة إلا بك.

قال أبو بكر: وهذا كله في كتاب الله عز وجل.

وقال الشعبي رحمه الله لما طعن عمر رضي الله عنه أتى بلبن فشرب منه

(٢٧١) لا محيص: لا مفرو ولا مهرب.

فخرج اللبن من طعنته ، فقال : الله أكبر ، وعلم أنه يموت . فجعل جلساؤه
يثنون عليه خيرا ، فقال : وددت أن أخرج من الدنيا كفافا كما دخلت لا عليّ ولا
لي ، والله لو كان لي اليوم ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع .
ولما احتضر غشي عليه ورأسه في الأرض ، فوضع ابنه عبد الله رأسه في
حجره ، فلما أفاق قال له : ضع رأسي على الأرض كما (٢٧٢) أمرتك فقال له ابنه :
يا أبت وهل الأرض وحجري إلا سواء؟ قال : ضع رأسي على الأرض كما
أمرتك ، فوضعه .

قال : فمسح خديه بالتراب ثم قال : ويل لعمر! ويل لعمر! ويل لأم عمر
إن لم يغفر الله لعمر فإذا قضيت فاسرعوا بي إلى حفرتي ، فإنما هو خير تقدموني
إليه أو شر تضعونه عن رقابكم .

ولما احتضر عثمان بن عفان رضي الله عنه جعل يقول ودمه يسيل : لا إله
إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم أني أستعين بك على أموري ،
وأسألك الصبر على بلائي .

ولما احتضر سلمان الفارسي رضي الله عنه بكى ، فقيل له : ما يبكيك؟
قال : والله ما أبكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن عهد عهده إلينا
رسول الله ﷺ قال : ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ، فلما مات نظر
في جميع ما ترك ، فإذا قيمته ثلاثون درهما ، وقد كان أميرا على المدائن ، مدائن
كسرى .

ويروى أن امرأته قالت وهو في الموت : واحزنه! فقال سلمان : بل وا
طرباه غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه .

ومثل هذا القول يروى أيضا عن بلال رضي الله عنه أنه قال عند موته :
غدا نرى الأحبة محمدا وحزبه .

ويروى أن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما دنا منه الموت دعا بحرسه
ورجاله ، فلما دخلوا عليه قال : هل تغنون عني من الله شيئا؟ قالوا : لا . قال :
فافترقوا عني ، ثم دعا بباء فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم قال : احملوني إلى المسجد ،

(٢٧٢) من هنا إلى فوضه سقط من ش وز .

ففعّلوا ٣١/ب فقال : استقبلوا بي القبلة ، ففعلوا . فقال : اللهم إنك أمرتني فعصيت واثستني فخنث ، وحددت لي فتعديت ، اللهم لا بريء فأعتذروا ولا قوي فأنتصر ، بل مذنب مستغفر لا مصر ولا مستكبر . ثم قال : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فلم يزل يرددّها حتى مات .

وقوله لحرسه ورجاله : هل تغنون عني من الله شيئا ، إنما فعل ذلك تصغيرا لنفسه وتحقيرا وليربها رؤية مشاهدة أن الذين كانوا يغنون عنه في الدنيا لا يغنون عنه عند نزول الموت شيئا .

ويروى أن ابنه عبدالله قال له : يا أبت ما كنت أظن أن ينزل بك أمر من الله إلا صبرت عليه ، فقال يا بني نزل بأبيك ثلاث خصال : فراق أحبته ، وانقطاع أمله ، والثالثة هول المطلاع . ثم قال : اللهم إنك أمرت فتوانيت ، ونهيت فعصيت ، اللهم من شيمتك العفو والتجاوز .

ولما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة رضي الله عنه قال : أقعدوني . فأقعدوه فجعل يذكر الله تعالى ويسبحه ويقده ، ثم قال : الآن تذكر ربك يا معاوية بعد الانحطام والانهدام ؟ ألا كان ذلك وغصن الشباب نضير ريان ؟ وبكى حتى علا بكأوه ثم قال :

هو الموت لا منجى من الموت والذي أحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال : يارب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي ، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة ، وجُدْ بحلمك على من لم يرج غيرك ولا وثق ، بأحد سواك ثم قال لابنه يزيد : يا بني إذا وفي أجلي فاعمد إلى المنديل الذي في الخزانة فإن فيه ثوبا من أثواب رسول الله ﷺ وقراضة من شعره وأظفاره ، فاجعل الثوب مما يلي جسدي واجعل أكفاني فوقه واجعل القراضة في فمي وأنفي وعيني ، فإن نفعني شيء فهذا ، فإذا جعلتموني في قبري فخلوا معاوية وأرحم الراحمين .

ويروى أنه قال في جملة ما قال : ياليتني كنت رجلا من سائر قريش بذى طوى ولم أل من هذا الأمر شيئا .

ولما حضرت أبا هريرة الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : يبكيني بُعد

المفازة وقلة الزاد وضعف اليقين والعقبة الكؤود التي المهبط منها إما إلى الجنة وإما إلى النار.

ولما حضرت حذيفة بن اليمان الوفاة قال : اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك . اللهم إنك تعلم أنني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولكن لظماً الهواجر (٢٧٣) وقيام الليل ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء في حلق الذكر . ولما اشتد به النزاع جعل كلما أفاق من غمرة فتح عينيه وقال : يارب شد شداتك واخنق خنقاتك ، فوعزتك إنك لتعلم أنني أحببك .

ومثل هذا يروى عن محمد بن المنكدر رضي الله عنه أنه لما نزل به الموت بكى ، فقيل له : ما يبكيك؟ فقال : ما أبكي حرصاً على الدنيا ولا جزعاً من الموت ، ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وقيام ليالي الشتاء . وكذلك يروى عن عامر بن قيس .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه لما حضر وقد نزل به الموت : ليعاين الناس غدا من عفو الله وسعة رحمته ما لم يخطر على قلب بشر . كشف له رضي الله عنه عن سعة رحمة الله وكثرة عفوه وعظم تجاوزه ما أوجب أن قال هذا .

٣٢/أ ولما دنت الوفاة من عمر بن عبدالعزيز رحمه الله بكى ، فقيل له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر فقد أحيا الله تبارك وتعالى بك سنة وأظهر عدلاً ، فبكى ثم قال : أليس أوقف ثم أسأل عن هذا الخلق؟ والله لو عدلت فيهم لخفت أن لا تقوم نفسي بحجتها عند الله تعالى إلا أن يلقتها حجتها ويشبتها ، فكيف بكثير مما ضيعت ، ثم بكى .

ويروى عن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبدالعزيز هذا أنها قالت : كنت أسمع عمر بن عبدالعزيز في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم اخف عليهم موتي ولوساعة من نهار ، فلما كان اليوم الذي مات فيه خرجت من عنده فجلست في بيت قريب منه ، بيني وبينه باب ، فسمعته يقول :

(٢٧٣) . الهواجر: جمع هاجرة وهي نصف النهار حين يشتد الحر.

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ .

ثم بعد ذلك هدأ فلم أسمع له حركة ولا كلاماً، فقلت لو صيف لنا انظر إلى أمير المؤمنين ما صنع (٢٧٤) فلما دخل عليه صاح، فأسرعت إليه فإذا هوميت رحمه الله .

ويروى أنه لما قرب موته قال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: اللهم أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، قالها ثلاث مرات، فإن عفوت فقد مننت، وإن عاقبت فما ظلمت ثم قال: لكن أرجو خيراً بقولي (٢٧٥): لا إله إلا الله، محمد رسول الله .

ثم أحد النظر فقليل له في ذلك، فقال: أرى حضرة ماهم يانس ولا جان. ثم خرج من كان عنده، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مات رضي الله عنه . ويروى أنه قيل له وقد اشتد مرضه: أوصنا يا أمير المؤمنين فقال: أحذركم هول مصرعي هذا .

ويروى أنه دخل عليه قبل أن يموت بأيام ابن أبي زكريا أو أحد الفقهاء، فتذاكرا الآخرة فبكى عمرو وبكى الرجل، ثم دَعَا الله جميعاً وسألاه أن يقبضهما إليه جميعاً، فجاء ابن صغير لعمر يدب، فقال عمر: وهذا معنا فإني أحبه، فماتوا ثلاثتهم قريباً أو في جمعة واحدة .

ويروى عن عبد الملك بن مروان أنه لما حضره الموت نظر في موضع له مشرف إلى رجل ويده ثوب وهو يضرب به المغسلة، فقال: يا ليتني كنت مثل هذا الرجل أعيش من كسب يدي يوماً بيوم ولم أَل من هذا الأمر شيئاً .

وقال له رجل: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال تجدني كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ .

ويروى أنه قال عند موته أيضاً يذم الدنيا: إن طوبلك لقصير، وإن كبيرك

(٢٧٤) من ثم بعد ذلك إلى هنا سقط من ش .
(٢٧٥) لكن أرجو خيراً بقولي: سقطت العبارة من ش وز .

لصغير، وإن كنا منك لفي غرور.

ولما حضرت الوفاة أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين، تمثل بهذه الأبيات :

المراء يأمل أن يعي ش وطول عيش قد يضره
تبلى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتحزنه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بي أن هلكت وقائل لله دره

ثم قال للربيع : يا ربيع هذا السلطان، لا سلطان من يموت . ثم قال :
اللهم إني ارتكبت الجرائم من الذنوب جرأة عليك وأطعتك في أحب الأشياء
إليك شهادة إن لا إله إلا الله منّا منك لا منّا عليك، اللهم اجعل ذلك قرينة لي
عندك، ثم مات من ساعته .

وعن محمد بن منصور البغدادي قال : دخلت على عبدالله بن طاهر وهو
في سكرات الموت، فقلت : السلام عليك أيها الأمير، فقال : لا تسمني أميراً
وسمني أسيراً، ولكن أكتب عني بيتين ما أراهما إلا آخر بيتين أقولهما، ثم أنشأ
يقول :

بادر فقد أسمعك الصوت إن لم تبادر فهو الفوت
من لم تزل نعمته قبله زال عن النعمة بالموت
ولما نزل الموت بهشام بن عبد الملك أمير المؤمنين نظر إلى أولاده وأهله
يبكون حوله فقال لهم : جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم
هشام ما جمع وتركتم عليه ما اكتسب، ما أعظم منقلب هشام ! وما أسوأه إن لم
يغفر الله له !

وكان أمير المؤمنين هارون الرشيد ينتقي أكفانه بيده وينظر إليها ويقول :
« ما أغني عني ماليه، هلك عني سلطانيه » .

ويروى عن الأصمعي أنه قال : دخلت على هارون الرشيد، فرأيتَه ينظر
في الكتاب، ودموعه تسيل على خديه، فوفقت حتى سكن، وحانت منه
التفاتة، فنظر إليّ وقال : اجلس، ثم رمى بالقرطاس إليّ، فإذا فيه شعر لأبي
العتاهية :

الخلق مختلف جواهره
ولقلّ من تصفو إرادته
الناس في الدنيا ذو وثقة
والموت لو صح اليقين به
لا خير في الدنيا لذي بصر
وسبيلنا في الموت واحدة
من كان للصالحات مدخرا
يامن يريد الموت مهجته
هل انت معتبر بمن خربت
وبمن أذل الدهر مصرعه
وبمن خلت منه أسرته
درست محاسن وجهه ونفى
أين الملوك وأين غيرهم
يا مؤثر الدنيا للذّته
نل ما بدالك أن تنال من الد

ولقلّ ما تزكو سرائره
وصح باطنه وظاهره
والدهر مسرعة ذوائره
لم ينتفع بالعيش ذاكره
عميت لما فيها نواظره
يتلو أكابره اصاغره
فستستبين غدا ذخائره
لا شك مالك لا تبادره
منه العداة معا دساكره
فتبرأت منه عشائره
وبمن خلت منه منابره
عنه النعيم ثرى يياشره
صاروا مصيرا أنت صائره
والمستعد لمن يفاخره
نيا فإن الموت آخره

ثم قال الرشيد: والله لكأني المخاطب بهذا دون الناس. قال: فلم يلبث
إلا يسيرا حتى مات.

وقال أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي رحمه الله: لما اشتدت علة
هارون الرشيد وسار إلى طوس هوّن الأطباء عليه علته وحقروا أمرها، فأرسل
ماءه في قارورة مع جملة قوارير، فعرضت على متطبب فارسي كان هناك فجعل
ينظر إليها قارورة قارورة ويقول ما يقول حتى أتى على القارورة التي فيها ماء
هارون الرشيد فنظر فيها فقال: عرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك بعد ثلاث
فمروه فليوص فإنه لا براء له من علته هذه. فأتى الغلام هارون فقال له: ما قال
لك؟ فجمجم الغلام ولم يبين، فعزم عليه فأخبره بما قال وقال قال عرفوا صاحب
هذا الماء أنه هالك بعد ثلاث، فبكى هارون بكاء شديدا وتمايل على فراشه

وجعل ينشد :

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع مقدور القضا
ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرىء مثله فيما مضى
ذهب المداوي والمداوي والذي جلب الدواء وباعه ومن اشترى
واشتد ضعفه عندما سمع كلام الطبيب، وأرجف الناس بموته، فلما
بلغه ذلك دعا بحمار ليركبه فلما صار عليه سقط ولم يقدر، أن يثبت على السرج،
فقال: صدق المرجفون، ثم دعا بأكفان فنشرت بين يديه فجعل يختار منها ما
يصلح .
ثم أمر بقبوره فحفر، فلما اطلع عليه جعل يقول: «ما أغنى عني ماليه، هلك
عني سلطانيه .

ومثل هذا القول مروى عن أبي شجاع فناخسرو بن عضد الدولة يروى
أنه لما نزل به الموت لم يسمع منه إلا قوله: «ما أغنى عني ماليه هلك عني
سلطانيه» ويروى أنه قال قبل ذلك شعرا يمدح به نفسه منه قوله:
ليس شرب الراح إلا في المطر وغناء من جوار في السحر
غالبات سالبات للنهى ناعمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر

قال أبو منصور الثعالبي . . لم يفلح بعد هذا البيت . . يعني قوله: عضد
الدولة . . الخ .

ولما حضرت أمير المؤمنين المأمون الوفاة أمر بجل دابته ففرش له،
فاضطجع عليه ووضع الرماد على رأسه وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه
ارحم اليوم من قد زال ملكه .

ويروى أنه قيل له في صباه: إنك تموت في أرض يقال لها «مدرجلك»،
فلما ولي الخلافة وأقام ما أقام غزا بلاد الروم، فلما انصرف من غزاته نزل
بموضع فيه عين ماء عظيمة، لها قعر عميق، فاطلع فيها فرأى في قعرها حوتا

كبيراً، فأمر به فأخرج وجعل بين يديه، فانتفض الحوت انتفاضة، فرشه بما كان عليه من الماء، فأخذته قشعريرة، وحُمّ، فسأل عن اسم الموضع الذي هو فيه، فذكر له اسم اعجمي، قال فسّروه، ففسّروه «مد رجلك» فلما سمع ذلك تفكر فيما قيل له، فأيقن بالموت، فأمر بجَلِّ دابته ففرش له، فاضطجع عليه، وأمر أن يضاف به على هذه الحالة، وأمر المنادي أن يقول هذا القول «يا من لا يزول ملكه ارحم اليوم من قد زال ملكه».

وكان المعتصم أخوه يقول عند موته - وكان قد ولي بعده - لو علمت أن عمري هكذا قصير ما عملت ما عملت، وجعل يقولها ويبيكي.

ولما حضرت المنتصر الوفاة جعل يضطرب، فقالوا لا بأس عليك يا أمير المؤمنين. فقال: تقولون هكذا لا بأس عليك ذهبت عني الدنيا والآخرة وتقولون لا بأس عليك؟! .

ولما حضرت أمية بن أبي الصلت الوفاة أغمي عليه، ثم أفاق وجعل يقول:

ليكما ليكما هانذا لديكما

لا برىء فأعتذر، ولا قوى فأنتصر، ثم أغمى عليه وأفاق، فجعل يقول:

إن تغفر الله تغفر جمًّا واي عبد لك لا ألما
ثم أغمى عليه وأفاق، فأنشأ يقول:

كل عيش وإن تطاول دهرا فمصيره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوعولا
ولما حضرت عبدالله بن علي الوفاة قال: ما أغفلني أمس عن مصرعي
اليوم!

وقال أبو سليمان الداراني: دخلنا على عابد وقد حضره الموت وهو يبكي، فقلنا له: ما يبكيك رحمك الله؟ فأنشأ يقول:

(٢٧٦) جُل الدابة: وهو كالثوب للانسان تصان به.

وحق لمثلي بالبكا عند موته ومالي لا أبكي وموتي قد اقترب
ولي عمل في اللوح أحصاه خالقي فإن لم يجد بالعفو صرت إلى العطب^(٢٧٧)
وقال عبدالله بن العلاء: شهدت أعرابيا قد نزل به الموت فشخص ببصره
ثم قال:

كل آت فإنه سوف يأتي أنت ياموت هاذم^(٢٧٨) اللذات
يرحم الله أعظما باليات أصبحت في عساكر الأموات
ويروى أن ابن المنكدر رحمه الله عندما نزل به الموت بكى، فقيل له: ما
بيكيك؟ فقال: والله ما أبكي لذنب أعلم أي آتيته، ولكنني أخاف أن أكون قد
أذنبت ذنبا حسبته هينا وهو عند الله عظيم.

وقد روى عنه كلام آخر يدل على علو منزلته وارتفاع درجته.
وقيل لجابر بن زيد عند موته: ما تشتهي؟ فقال: نظرة إلى الحسن، فجاء
الحسن، فلما دخل عليه قيل له: هذا الحسن، فرفع طرفه وقال: يا اخوتاه
الساعة أفارقكم إما إلى الجنة وإما إلى النار، ٣٣/أ.
وقال الحجاج بن يوسف الثقفي عند موته: اللهم اغفر لي فإنهم يزعمون
أنك لا تفعل. فكان عمر بن عبدالعزيز تعجبه هذه الكلمة.

وذكر ذلك للحسن البصري فقال: أقالها؟ قالوا نعم. قال: عسى.
وقال سليمان التيمي: دخلت على بعض أصحابنا وهو في الموت فرأيت
من جزعه ما ساءني، فقلت: هذا الجزع كله لماذا وقد كنت تحمد الله على كذا،
يعني على حالة صالحة، فقال: ومالي لا أجزع؟ ومن أحق مني بالجزع؟ والله لو
أتيتي المغفرة من الله عز وجل لأهمني الحياء منه فيما أفضيت به إليه.
وقال بعض الصالحين لغلامه - وقد حضره الموت - يا غلام شد كتافي وعفر
بالتراب خدي، ففعل الغلام. ثم قال: دنا الرحيل اللهم لا براءة لي من ذنب،
ولا عذر لي فأعتذر به، ولا قوة فانتصر بها. ثم قال: أنت لي [ثلاثا]، ثم صاح
صيحة ومات.

(٢٧٧) العطب: الموت، الهلاك.

(٢٧٨) هاذم: هزم الشيء: قطعه بسرعة.

فسمعوا صوتا يقول في البيت : استكان(٢٧٩) العبد لمولاه فقبله وأدناه(٢٨٠)
ولما حضرت محمد بن سيرين الوفاة بكى ، فقبل له : ما يبكيك؟ فقال :
أبكي لتفريطي في الأيام الخالية وقلة عملي للجنة العالية ، وما ينجيني من النار
الحامية .

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة بكى ، فقبل له : ما يبكيك؟ فقال :
انتظر رسولا من ربي يبشرني بالنار أو بالجنة .

وقال حماد بن سعيد بن أبي عطية المذبوح : لما حضر أبا عطية الموت
جزع ، فقالوا له : أتجزع من الموت؟ فقال : وما لي لا أجزع وإنما هي ساعة فلا
أدري أين يسلك بي .

ولما حضرت الوفاة فضيل بن عياض رحمه الله غشي عليه ، ثم أفاق وقال :
يابعد سفري وقلة زادي .

وكان عامر بن تيس يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة ، فلما حضره الموت
بكى ، فقبل له : ما يبكيك؟ قال أبكي لقوله تعالى : ﴿إنما يتقبل الله من
المتقين﴾(٢٨١)

وقد تقدم عنه كلام آخر قاله عند الموت أيضا . ولما(٢٨٢) نزل الموت
بسليمان التيمي قيل له أبشر فقد كنت مجتهدا في طاعة الله تعالى ، فقال : لا
تقولوا هكذا فإني لا أدري ما يدولي من الله عز وجل فإنه يقول سبحانه : «وبدا
لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»(٢٨٣) قال بعضهم : عملوا أعمالا كانوا يظنون
أنها حسنات فوجدوها سيئات .

وكان الجنيد يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلي فحتم فقبل له : في
مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال : ومن أحق مني بذلك وها هو ذا تطوى صحيفة
عملي ثم كبر ومات .

(٢٧٩) استكان : ذل وخضع .

(٢٨٠) أدناه : قرّبه .

(٢٨١) آية ٢٧ المائدة .

(٢٨٢) من هنا إلى سيئات سقط من ش .

(٢٨٣) آية ٤٧ الزمر .

وقيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال : ما نسيتَه فأذكره .
ولما نزل الموت ببشر الحافي وكان على عليائه (٢٨٤) من العبادة والزهادة
شق (٢٨٥) عليه وساء ذلك ، فقيل له : أتحب الحياة يا فلان؟ فقال : يا قوم القوم
على الله شديد .

ولما حضر أبا سليمان الداراني الموت قال له أصحابه : أبشر فإنك تقدم
على رب غفور رحيم . فقال لهم : ألا تقولون تقدم على رب يحاسبك بالصغير
ويعاقبك بالكبير .

فأبو سليمان هذا غلب عليه الخوف في هذه الحالة فتكلم عن حاله .
٣٣/ب وقيل لِرؤيم عند الموت : قل لا إله إلا الله . فقال : ما أحسن غيرها .
وكان رؤيم هذا من الصالحين ، ويروى أنه كان يدعو الطير فتجيبه .
واحتضر بعض الصالحين فبكت امرأته ، فقال : ما يبكيك؟ قالت :
عليك أبكي . قال : إن كنت باكية فابكي على نفسك فأما أنا فقد بكيته على
هذا اليوم منذ أربعين سنة .

ولما حضرت أبا علي الروذباري الوفاة وكان رأسه في حجر ابنته فاطمة ،
ففتح عينيه ثم قال : هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زخرفت ،
وهذا قائل يقول : يا أبا عليّ قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم تردها . ثم قال :
وحقك لانظرت إلى سواك بعين مودة حتى أراك
أراك معذبني بفتور لحظ (٢٨٦) وبالخذ المورد من حياك
أراك منعّمي بجميل ظن وبالأمّن المكرم من رضاك
فلو قطعتني في الحب إربا (٢٨٧) لما نظر الفؤاد إلى سواك (٢٨٨)
وكان أبو علي هذا ممن يعبد الله لذاته ، وكان يقول : لا أريد الجنة
ونعيمها ، إنما أريدك يا رب .

(٢٨٤) عليائه : علوشأنه .

(٢٨٥) شق : صعب .

(٢٨٦) اللحظ : العين .

(٢٨٧) إربا : عضوا .

(٢٨٨) الأبيات الثلاثة الأخيرة سقطت من ش وز .

وكذلك كان ممشاد الدينوري ، لما نزل به الموت جعل بعض المشايخ يدعو له فضحك وقال : منذ ثلاثين سنة تعرض عليّ الجنة بما فيها فما نظرت إليها .
ويروى أن بعض الصالحين ضحك عند موته وقال : صادق يا وفي ، وفيت لي وما وفيت لك .

ويروى عن عبدالله بن المبارك أنه لما احتضر نظر إلى السماء فضحك ثم قال : لمثل هذا فليعمل العاملون .

ومثل هذا يروى عن بعض أصحاب ابن فورك وكان من الصالحين الكبار المجتهدين ، انه لما نزل به الموت شخص بصره إلى السماء ثم قال : يا ابن فورك لمثل هذا فليعمل العاملون .

وفتح ابن بنان عينيه عند الموت فقال : ارتع فهذا مرتع الأحاب .
وخرجت روحه .

ولما نزل الموت بأبي يعقوب النهرجوري رحمه الله قال له أبو الحسن المزيّن : قل لا إله إلا الله . فتبسم أبو يعقوب وقال : إياي تعني؟ وعزة من لا يذوق الموت ما يبني وبينه إلا حجاب العزة ثم خرجت روحه من ساعته .
وكان أبو الحسن يأخذ بلحية نفسه ويقول : يا حجام مثلك يلقن أولياء الله الشهادة؟ وكان إذا ذكر هذه القصة بكى .

وقال الجنيد : دخلت على سري السقطي رحمه الله تعالى عند الموت وكان ممن أحرق قلبه الخوف ، فقلت له : كيف تجردك؟ فقال : كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ، والذي قد أصابني من طبيبي؟

قال الجنيد : فأخذت المروحة لأروح عليه ، فقال : كيف يجد روح المروحة من قلبه يحترق؟ ثم أنشد :

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصرير مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الأسى والشوق والقلق

ثم ذكر الله تعالى ومات رحمه الله .

وقيل لذي النون عند موته : ما تشتهي؟ فقال : أشتهي أن أعرفه تبارك وتعالى قبل موتي بلحظة .

لم يقل هذا القول ذو النون المصري رحمه الله لجهله بالله تعالى لكنه كان يستقل معرفته ٣٤/أ، وصدق في هذا فشان الله أجل وأعظم من أن يحاط بمعرفته أو يبلغ كنه وصفه .

ويروى عن عبد الله بن شبرمة أنه قال : دخلت مع عامر الشعبي على مريض نعوده ، فوجدنا لما به ، ورجل يلقنه الشهادة ويقول له :

قل لا إله إلا الله ، وهو يكثر عليه ، فقال له الشعبي : ارفق به ، فتكلم المريض وقال : إن يلقيني أو لا يلقيني فإني لا أدعها ، ثم قرأ ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها ﴾ (٢٨٩) وأهلها ﴿ . فقال الشعبي : الحمد لله الذي نجى صاحبنا . (٢٩٠)

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلي قالوا له عند موته : قل لا إله إلا الله .
فأنشد :

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السُّرْجِ
وعليلاً أنت زائره قد أتاه الله بالفرج (٢٩١)
وجهك المأمول حجتنا يوم تأتي الناس بالحجج
لا أتاح الله لي فرجاً يوم أدعو منك بالفرج

يريد الشبلي أن القلب إذا امتلأ واشتغل بعظمة الله وجلاله لم يحتاج إلى منبه ينبهه ولا إلى مذكر يذكره .

ويروى أن الجنيد بن محمد دخل على بعض المشايخ فوجده في سياق الموت ، فقال له الجنيد : قل لا إله إلا الله . فنظر إليه الشيخ شزراً . فأعاد عليه الجنيد ، فلم يقلها ، فأعاد عليه ، فلم يتكلم . فقال له الشيخ : يا جنيد تذكرني بالتوحيد وأنا منذ ثلاثين سنة أبكي عليه ولا أسلو عنه؟ يا جنيد إني مشاهد

(٢٨٩) آية ٢٦ الفتح .

(٢٩٠) تذكرة القرطبي ٣١ .

(٢٩١) سقط هذا البيت من ش .

حبيبي ومستأنس به .

ويروى أن إبراهيم بن أدهم دخل على بعض العباد يعوده، فوجده في الموت أو في مقدمات الموت، فجعل العابد يتنفس ويتأسف، فقال له إبراهيم: علام تتأسف رحمك الله؟ فقال: ما تأسفي على النقلة من دار الدنيا دار الأحران والأسقام والخطايا والذنوب، ولكن أسفي على يوم أفطرته أو ليلة نمتها أو ساعة غفلت عن ذكر الله فيها ولكن يا أخي إن وقع في هذا تقصير فلم يقع في التوحيد تقصير، ما عبدت سواه ولا وحدت غيره ولا سكن في قلبي محبة شيء إلا محبته . ودخل المزني على الشافعي رحمه الله في مرضه الذي مات فيه، فقال: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلا وللإخوان مفارقا، ولسيء عملي ملاقيا، ولكأس المنية شاربا، وعلى ربي تبارك وتعالى واردا، ولا أدري روعي للجنة فأهنيها أو للنار فأعزها . ثم أنشد (٢٩٢):

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي	جعلت الرجائي لعفوك سلما
تعاضمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفوعن الذنب لم تزل	تجود وتعفو منة وتكرما
فلولاك لم يغو بإبليس عابد	وكيف وقد أغوى صفيك آدماء

وقال عطاء بن يسار رحمه الله تعالى: تبدى (٢٩٣) إبليس لعنه الله لعابد عند الموت فقال له نجوت يا هذا، فقال: ما أمنتك بعد .

ولما حضرت الحسن بن هانيء الوفاة، أنشد:

دب في السقام سفلاً وعلوا	وأراني أموت عضوا فعضوا
ليس من ساعة مضت بي إلا	نقصتني بمرها بي جزوا
لهف نفسي على ليال وأيا	م قضيتهن لعبا وهوا
قد أسأت كل الاساءة فال	لهم صفحا وغفراناً وعفوا

(٢٩٢) الإحياء ٤/٤٨٤ .

(٢٩٣) من هنا، إلى ما أمنتك بعد سقط من زوش .

ولما حضرت الوفاة أحمد بن خضرويه، سئل عن مسألة، فقال: يا بني باب أدقه منذ خمس وسبعين سنة وهاهوذا يفتح لي الساعة، ولا أدري بما يفتح لي، بالسعادة أم بالشقاوة ٣٤/ب فأن لي أوان الجواب (٢٩٤)

ويروى عن مالك بن دينار أنه دخل على جاره له وقد نزل به الموت فقال له الرجل: يا مالك إني أرى جبلين من نار وأنا أكلف الصعود عليهما. قال مالك: فسألت امرأته عن حاله، فقالت: كان له مكيالان يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر، قال: فدعوت بهما فضربت أحدهما بالآخر فكسرتها. ثم قلت له: ما ترى؟ قال: ما أرى الأمر يزداد إلا شدة.

وروى أن رجلا نزل به الموت وعند رأسه صندوق فيه مال، فجعل يشير إليه ويقول: النار في الصندوق! النار في الصندوق! ويروى أن طلحة بن عبيدالله القرشي عاد مريضا فوجده في الموت فسمع صوتا وهو يقول:

ناد رب الدار ذا المال الذي جمع المال بحرص ما فعل فأجابه آخر:

كان في دار سواها نائما علته (٢٩٥) بالمنى ثم انتقل ويروى أنه ما من ميت يموت إلا ويكلمه ملكاه اللذان يكتبان عمله في الدنيا، فإن كان مطيعا قالوا له: جزاك الله من صاحب خيرا فرب كلام حسن قد اسمعتناه، ورب مجلس خير قد أجلسناه، ورب عمل صالح قد أحضرتناه فنحن لك اليوم على ما تحب.

وإن كان فاجرا قالوا له: جزاك الله من صاحب شرا فرب كلام قبيح قد أسمعتناه، ورب مجلس سوء قد أجلسناه، ورب عمل سوء قد أحضرتناه، فنحن لك اليوم على ما تكره.

(٢٩٤) الأحياء ٤/٤٨٤.

(٢٩٥) شغلته وأهته.

الباب الأول من أخبار بعض الأموات عند الموت

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فقال له : أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها ، فرجع الملك إلى الله عز وجل فقال : إنك أرسلتني إلى عبدلك لا يريد الموت ، وقد فقأ عيني ، قال : فردّ الله عليه عينه وقال : ارجع إلى عبدي فقل له : الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما وارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة ، قال : ثم مه؟ قال : ثم تموت ، قال : فالآن من قريب رب أدنني من الأرض المقدسة رمية حجر ، قال : رسول الله ﷺ فوالله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر^(١) .

وروى أن عيسى عليه السلام مر برأس ميت فضربه برجله وقال تكلم بإذن الله تعالى ، فتكلم وقال : يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس على سرير ملكي ، عليّ تاجي وحوالي حشمي وخدمي وجندي إذ تبدى لي ملك الموت ، فزال مني كل عضو على حياله ، وخرجت نفسي إليه ، فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ، وياليت ما كان من ذلك الأنس وحشة .

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : كان داود عليه السلام رجلاً غيوراً ، وكان إذا خرج غلق الأبواب ، فغلق ذات يوم أبوابه وخرج ، فأشرفت امرأته فإذا برجل في الدار ، فقالت : من ادخل هذا دارنا؟ لئن جاء داود

(١) مختصر صحيح مسلم الحديث رقم ١٦/٣ .

فرآه ليلقين منه عنتاً^(٢)، فجاء داود فرآه فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنعي الحجاب قال: فأنت إذن والله ملك الموت، ثم قبض روحه.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان إبراهيم عليه السلام غيورا، وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فخرج ذات يوم بعدما أغلق بابه، فإذا هو برجل في جوف البيت، فقال له: من أدخلك دارنا؟ قال: ادخلنيها ربه، فقال: أنا ربها، قال ادخلنيها من هو أملك لها منك، فقال له إبراهيم: من أنت من الملائكة؟ قال: ملك الموت، فقال له هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم فأعرض عني، فأعرض عنه فإذا هو بشاب ٥٢/أ فذكر من حسن وجهه وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك لكان حسبه، ثم قبض روحه.

قال وهب بن منبه: كان ملك من الملوك أراد الخروج إلى أرض له، فلبس أحسن ثيابه، وركب أفره^(٣) دوابه، وخرج في خاصته وجنوده ورجاله، فنفخ الشيطان فيه نفخة ملاءه كبرا وعجبا، فكان يمشي ولا يلتفت إلى أحد من الناس كبرا وإعجابا بنفسه، فتصدى له رجل رث^(٤) الهيئة فسلم عليه، فلم يرد عليه السلام ولا التفت إليه، فأخذ بلجام دابته فقال له: ويلك لقد تعاطيت أمرا عظيما كف يدك عن اللجام، فقال له: أنا ملك الموت، فتغير لون الملك ودهش واضطرب لسانه وقال: سألتك إلا ما تركتني حتى أرجع إلى أهلي وأودعهم وأقضي حاجتي منهم، فقال: لا والله لا رأيت أهلك أبدا، وقبض روحه، فخر كخشبة ملقاة.

ثم لقي آخر في مثل حاله إلا أنه كان متواضعا، فتعرض له فسلم عليه فرد عليه السلام، فقال له: إن لي إليك حاجة وأريد أن أذكرها لك في أذنك، فقال: هات، فأعطاه أذنه، قال: أنا ملك الموت، فقال له: مرحبا بمن طالت

(٢) العنت: الشدة، المشقة، الهلاك.

(٣) أفره: أنشط.

(٤) رث: يلبس البالي من الثياب.

غيبته عليّ فوالله ما كان غائب أحب إليّ من أن ألقاه منك ، فقال له ملك الموت : اقض حاجتك التي خرجت إليها ، قال لا ، هذه الحاجة أهم حوائجي ٥٢/ب ومالي حاجة أهم عليّ ولا أحب إليّ من لقاء الله عز وجل ، قال : فاختر عليّ أي حالة تريد أن أقبض روحك ، قال : وتقدر عليّ ذلك؟ قال : بذلك أمرت ، قال : فدعني حتى أتوضأ وأصلي ، وتقبض روحي وأنا ساجد ، قال : نعم فتوضأ وصلى ثم قبض روحه في سجوده .

وقال بكر بن عبدالله : جمع رجل من بني إسرائيل مالا ، فلما أشرف عليّ الموت قال لبنيه : أروني أصناف أموالي التي جمعت ، فأتني بشيء كثير ، فلما رآه بكى تحسرا ، فقال له ملك الموت : ما يبكيك؟ فوالله ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك ، فقال له : أمهلني حتى أفرقه ، قال : هيئات انقطعت المهلة فهلا كان هذا قبل حضور أجلك؟ ثم قبض روحه .

ويروى أن رجلا جمع مالا فأوعى ، ولم يدع صنفا من أصناف المال إلا اتخذه ، ثم ابتنى قصرا وجعل عليه حجابا وحراسا ، ثم جمع أهله وعياله وصنع لهم طعاما ، وقعد على سريره ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون ، ثم قال : يا نفسي تنعمي سنين فقد جمعت لك ما يكفيك ، فما فرغ من كلامه حتى أقبل ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب ففرع الباب بشدة عظيمة ، فوثب إليه الغلمان فقالوا له : ويلك ما شأنك ومن أنت؟ فقال : ادعوا إليّ مولاكم ، قالوا : إلى مثلك يخرج مولانا؟!!

قال نعم . فأخبروا مولاهم فقال : هلا فعلتم به وفعلتم ، ففرع الباب قرعة أشد من الأولى ، فوثب إليه الحرس ، فقال : أخبروه أي ملك الموت ، (٥) فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والخشوع فقال : قولوا له يدخل وقولوا له قولنا ، فدخل فقال له : اصنع بمالك ما أنت ٥٣/أ صانع فيني لست بخارج عنك حتى أخرج بنفسك فأمر بهاله فجمع ، فلما رآه قال : لعنك الله من مال فأنت شغلتنني عن عبادة ربي ومنعتني عن النظر لنفسي ، فأنطق الله عز وجل المال فقال : لم تسبني وبني جلست مجالس الملوك ، وبني نكحت المتنعيات ، وبني

(٥) من هنا إلى : فلما رآه ، سقط من ش .

فعلت وفعلت ، وكنت تنفقتني في سبيل الشرف فلا أمتنع منك ، ولو أنفقتني في سبيل الخير وطريق البر لنفعتك اليوم ، ثم قبض ملك الموت روحه ، فسقط ميتا . وقال يزيد الرقاشي : بينما جبار من جبابرة بني اسرائيل في منزله قد خلا ببعض أهله إذ رأى شخصا قد دخل عليه من باب بيته ، فوثب عليه مغضبا ، فقال له : ويلك من أنت ومن أدخلك داري ، وما حملك على الهجوم عليّ في بيتي؟ فقال له : أما الذي أدخلني الدار فرها ، أنا الذي لا يمنعني الحجاب ، ولا أستأذن على الملوك ، ولا أخاف صولة السلاطين ، فأسقط في يد الجبار وأرعد حتى سقط منكباً على وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستخدياً^(٦) متذللاً ، فقال له : فأنت إذن ملك الموت؟! قال : أنا هو ، قال : فهل أنت ممهلي حتى أحدث عهداً؟ قال : هيهات ، انقطعت مدتك ، وانقضت أنفاسك ، ونفدت^(٧) ساعاتك ، فليس إلى إمهالك سبيل ، قال : فإلى أين أذهب؟ قال : إلى عملك الصالح الذي قدمت ، وإلى بيتك الحسن الذي مهدت ، قال : فإني لم أقدم عملاً صالحاً ، ولا مهدت بيتاً حسناً ، قال : فإلى لظى^(٨) ، نزاعه للشوى^(٩) ، ثم قبض روح ، فسقط بين أهله ، فمن صارخة تصرخ ، وبياكية تبكي . قال يزيد : ولو يعلمون سوء المنقلب لكان العويل أعظم ، والبكاء أكثر .

-
- (٦) مستخدياً : منقاداً .
(٧) نفدت : فرغت وانقطعت وفنيت .
(٨) لظى : تلهب ، وتشتعل بشدة .
(٩) الشوى : جمع شواة وهي جلدة الرأس .

الباب الثاني ما يستحب من أحوال الميت عند الموت وفي تلقين الشهادتين للمسلم وغيره وما يستحب للمسلم من الرجاء وحسن الظن بالله عند الموت

اعلم رحمك الله أن المحبوب من حال الميت عند الموت أن يعلوه الهدوء والسكون، ومن لسانه الكلمة بالشهادتين، ومن قلبه حسن الظن بالله تعالى . وذكر الترمذي من حديث بريدة بن حصيب عن النبي ﷺ أنه قال المؤمن يموت بعرق الجبين، ويروى في خبر أنه قال ارقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جبينه، وإذا ذرفت عيناه، ويبست شفتاه، فذلك من رحمة الله نزلت به، وإذا غط غطيظ المخنوق، واحمر لونه، واربدت شفتاه، فهو من عذاب الله نزل به (١).

وأما انطلاق لسانه بالشهادتين فهو علامة الخير، ودليل السعادة وأمانة الاتصال بالحضرة الإلهية . وذكر أبو داود من حديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة . وذكر أيضا من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من مات وهو

(١) قال العلامة عبدالرحيم العراقي في تخريج أحاديث الإحياء، ٤/٤٦٥ عن هذا الحديث : أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان، ولا يصح .

يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة (٢).

وذكر أيضا من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله (٣).

وذكر مسلم من حديث عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة (٤).

ومن غير كتاب مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: حضر ملك الموت رجلا فنظر في عمله فلم يجد له شيئا، ففك لحيه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا إله إلا الله. فغفر الله له بكلمة الإخلاص (٤). وقال عمر رضي الله عنه: احضروا موتاكم ولقنوهم لا إله إلا الله فإنهم يرون ما لا ترون.

وذكر مسلم من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة ٣٥/أ فقال رسول الله ﷺ: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله يعرضها عليه، ويعيدان له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به: هو على ملة عبدالمطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فأنزل الله عزوجل: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم (٥)». وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء (٦).

(٢) حديث صحيح روى بصيغ مختلفة كلها صحيحة. انظر جامع الأصول ٣٦٣/٩.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. جامع الأصول ٨٣/١١.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي في الشعب. وإسناده جيد.

(٥) آية ١١٣ التوبة.

(٦) رواه البخاري ١٤٩/٧ في فضائل أصحاب الرسول، وفي الجنائز وفي التفسير، ورواه مسلم رقم ٢٤ في الايمان. والنسائي ٩٠/٤ و ٩١ في الجنائز.

ويروى عن أنس بن مالك أن غلاما من اليهود كان يخدم النبي فمرض، فأتاه ﷺ بعوده، ففعد عند رأسه فعرض عليه الاسلام فقال له أسلم، فنظر الغلام إلى أبيه وهو عنده فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فأسلم، فقام النبي وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه بي من النار. (٧)

ذكر هذا الحديث البخاري وأبو داود وغيرهما.

وينبغي أن لا يلح على الميت بتلقين الشهاداتتين. قال ابن المبارك لقنوا الميت لا إله إلا الله، فإن قالها فدعوه، ولأنه يخاف عليه إذا ألح عليه بها أن يبرم ويضجر ويثقلها الشيطان عليه، فيكون ذلك سببا لسوء الخاتمة.

ذكر أبو بكر الدينوري في كتاب المجالسة عن الحسن بن عيسى قال: لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاة: أجعل رأسي على التراب، قال فبكى نصر. فقال: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هذا تموت فقيرا غريبا، فقال: اسكت فإني سألت الله أن يجيئني حياة السعداء ويميتني ميتة الفقراء. ثم قال: لقني الشهادة ولا تعد علي إلا أن أتكلم بكلام ثان.

والمقصود أن يموت الرجل ولا يكون في قلبه إلا الله وحده لأن المدار على القلب، وعمل القلب هو الذي ينظر فيه وتكون النجاة بسببه، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما في القلب فلا فائدة فيها ولا خير عندها.

وأما حسن الظن بالله تعالى عند الموت فواجب، قال عليه الصلاة والسلام: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى (٨). ذكره مسلم.

وقال عبدالله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يحسن أحدكم الظن بالله إلا أعطاه الله ظنه وذلك أن الخير بيده.

وقال عبدالله بن عباس: إذا رأيتم الرجل قد نزل به الموت فبشروه حتى يلقى ربه وهو حسن الظن بالله تعالى: وإذا كان حيا فخوفوه بربه واذكروا له شدة عقابه.

(٧) رواه البخاري ١٧٦/٣ في الجنائز. وأبو داود رقم ٣٠٩٥ في الجنائز أيضا.

(٨) رواه مسلم رقم ٢٨٧٧ في صفة الجنة. وأبو داود رقم ٣١١٣ في الجنائز.

وقال المعتمر بن سليمان: قال لي أبي عند موته: يا معتمر^(٩) حدثني بالرخص لعلي أن ألقى الله تعالى وأنا حسن الظن به . وكانوا يستعجبون أن يذكروا العبد بمحاسن عمله عند موته كي يحسن الظن بربه .

٣٥/ب وقال الفضيل بن عياض: ما دمت حيا فلا يكن شيء عندك أخوف من الله عز وجل ، وإذا نزل بك الموت فلا يكن عندك شيء أرجى من الله عز وجل . ويروى أن حذيفة بن اليمان لما نزل به الموت قال: حبيب جاء على فاقة قد كنت قبل اليوم أخشاك وأنا اليوم أرجوك .

ويروى عن الحسن بن الليث قال: رأيت محمد بن محمد الرازي في المنام فقلت له يا أبا عبدالله ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي قلت: بم؟ قال: برجائي له منذ ثمانين سنة .

ودخل وائلة بن الأسقع على رجل فوجده في الموت، فقال: اخبرني كيف ظنك بالله تعالى: فقال الرجل: اغرقتني ذنوبي وأشرفت بي على الهلكة ولكن أرجو رحمة الله تعالى، فكبر وائلة وكبر أهل البيت لتكبيره، وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيرا ما شاء^(١٠)

ويروى أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: كيف تجددك؟ قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال عليه السلام: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه الذي يخاف، أخرجه الترمذي^(١١).

ورأى بعض الصالحين الحسن بن هانيء بعد موته في النوم، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قال: بماذا؟ قال: بأربعة أبيات قتلتهن في طي فراشي، فمشى الرجل إلى دار الحسن، فالتمسها فوجدتها، وهي:

(٩) الاحياء ٤/٤٦٦ .

(١٠) رواه البخاري ١٣/٣٢٥ في التوحيد . ومسلم رقم ٢٦٧٥ في الذكر وفي التوبة .

(١١) الاحياء ٤/٤٦٦ .

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة
أدعوك رب كما أمرت تضرعا
إن كان لا يرجوك إلا محسن
مالي إليك وسيلة إلا الرجاء
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
فمن الذي يرجو المسيء المجرم
وجميل ظني ثم أي مسلم (١٢)

وقال ثابت البناني : كان شاب به حدة وكانت أمه تعظه وتقول له : يا بني إن لك يوما فاذا ذكر يومك ، وإن لك مصرعا فاذا ذكر مصرعك ، فلما نزل به أمر الله تعالى اكبت عليه امه فجعلت تقول : أي بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا ، فقال لها يا أمة إن لي ربا كثير المعروف وإني لأرجو أن لا يعذبني بكرمه ورحمته . قال ثابت فرحمه الله عز وجل بحس ظنه بربه (١٣) أخبر بذلك في النوم أو أخبر به عنه .

وقال جابر بن عبد الله : كان شاب به زهو ، فنزل به الموت فقالت أمه : يا بني توصي بشيء؟ قال : نعم خاتمي ادفنيني به فإن فيه ذكر الله تعالى فلعله يرحمني . فلما دفن رئي في المنام فقال : اخبروا أُمِّي أن الله قد غفر لي .
وقال ذو النون المصري رحمه الله : كان في جوارِي شاب مسرف على نفسه كثير الخطايا ، فمرض فدخلت عليه أعوده فإذا هو قد مات وأوصى أن يكتب على قبره شيء فرأيته في منامي فقلت له ما فعل الله بك؟ قال : غفر لي . فقلت : بماذا؟ قال : فكرت في جرمي وفي عفوه فرأيت عفوه أكثر من جرمي . قال ذو النون : فلما أصبحت جئت إلى قبره فإذا عليه مكتوب .

حسن ظني بك يا رب جرأني عليك
فأرحم اللهم عبدا صار رهنا في يديك

ويروى عن بعض الصالحين قال : قال مالك بن دينار : رأيت مسلم بن يسار في

(١٢) الخبر والأبيات انفردت بها نسخة «ل» .

(١٣) الإحياء ٤/٤٦٦ .

النوم بعد موته بسنة، فسلمت عليه. فلم يرد علي السلام: فقلت له: لم لا ترد علي السلام؟ قال: وكيف أرد عليك وأنا ميت؟ فقلت له: وماذا لقيت بعد الموت؟ قال: ودمعت عينا مالك عند هذا القول - لقيت أهوالا وزلازل وعظام وشدائد. قال مالك ٣٦/ أ فقلت له: فما كان بعد ذلك؟ قال: وما تراه يكون من الكريم إلا الكرم؟ قبل منا الحسنات، وغفر لنا السيئات، وضمن عنا التبعات كما كان حسن ظني به.

قال: ثم شهق مالك شهقته خرمغشيا عليه فلبث في غشيته أياما مريضا ثم مات من مرضه ذلك، وكان يقال إن قلبه انصدع.
ولولا حسن الظن بالله تعالى لهلك الخلق.

وقال عبدالواحد بن زيد: وما كان سبب موت مالك بن دينار إلا هذه الرؤيا، سألته عنها فقصها عليّ فجعل يشهق ويضطرب حتى ظننت أن كبده تقطعت في جوفه، ثم هدأ فحملناه إلى منزله، فلم يزل مريضا منها يعاد حتى مات.

وقال أبو عمر الضرير: حدثني سهيل أخو حازم قال: رأيت مالك بن دينار في النوم بعد موته بسنة، فقلت له: يا أبا يحيى ماذا فعل الله بك؟ وماذا قدمت به عليه؟ فقال: قدمت عليه بذنوب كثيرة فمحاها حسن ظني به تبارك وتعالى.

وقال عمار بن سيف: رأيت الحسن بن صالح في منامي بعد موته فقلت له: لقد كنت متمنيا للقائك فماذا عندك؟ أخبرنا. فقال: لم أر شيئا مثل حسن الظن به تبارك وتعالى.

وأنشدوا:

أحسن الظن برب لم يزل	دائم الإحسان برا لم يمل
من غدت نعاؤه في ذا الورى	جُملًا ترفق في إثر جُمل
وسع العالم فضلا وجدا	مرسل العزلاء سجام متصل
وإذا لم تحسن الظن به	فمن تحسن إن خطب نزل
وإذا لم ترجمه من يرتجى	وإذا لم تسألننه من ذا تسل

فلتطب نفسا عليه وله ال
وقالوا أيضا:

احسن الظن ما استطعت بربك
وإذا ما أصبت يوما بضر
وإذا ما انتحاك أمر عسير
وذنوب خبأتهن قديما
تب إليه والجا منها إليه
ودموع الحزين لا تمسكها
واقدحن في الضلوع نار متاب
وإذا ما تعاظمتك ذنوب
ومرض أعرابي فقيل له: إنك تموت. فقال: فإذا مت أين يذهب بي؟ قيل إلى
الله تعالى. قال: ما أكره أن يُذهب بي إلى من لا يرى الخير إلا عنده.



الباب الثالث في الجنائز وفضل اتباعها

ذكر البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من تبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقراطين، كل قيراط مثل أحد ومن صلى عليها ثم رجع قبل الدفن فإنه يرجع بقيراط (١)».

وذكر مسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: من صلى على جنازة فله قيراط، فإن شهد دفنها فله قيراطان، القيراط مثل أحد (٢)

واعلم رحمك الله أن في الجنائز عبرة للمعتبرين وفكرة للمتفكرين وتنبهها للغافلين وإيقاظاً للنائمين. بينما الإنسان في قيام وعود ونزول وصعود، وخذ هذا ودع هذا، وابن هذا واهدم هذا، وقد كان وما كان، وأين ذهب فلان؟ ومن أين جاء فلان إذ جاءه أمر إلهي وحادث سماوي وحكم رباني فسكن حركته وأطفأ شعلته، وأذهب نضرته، وتركه كالحشبة الملقاة والحجر المرمي، إن صيح به لم يسمع وإن دعي لم يجب، وإن قطع أو أحرق لم يتكلم. إن ربك على ما يشاء قدير.

ولكن حب الدنيا وحجاب الهوى الذي غطى القلوب وأعشى (٣) البصائر يمنع الفكرة في الجنائز والاعتبار بها، فصارت لا تزيد رؤيتها إلا غفلة، ولا مشاهدتها إلا قسوة، حتى كأن الميت إنما هونائم يستيقظ بعد ساعة ويهب عن

(١) البخاري ١٥٨/٣ في الجنائز. جامع الأصول ٤٤٣/٩.

(٢) مسلم رقم ٩٤٦ في الجنائز. نفس المرجع. والقيراط في أصل اللغة هو عرض الأصبع.

(٣) أعشى: العشى ضعف البصر وقد يطلق على العمى.

قريب، أو كأن الذي يراها لا يكون مثلها ولا يدخل مدخلها، وكأن ذلك الميت نزل به ملك الموت وحده وإياه قصد خاصة .

نعم يعلم الانسان منا أن سيموت كما مات هذا ٣٦/ب وتشيع جنازته كما شيعت جنازة هذا، وربما مات بحيث لا تشيع جنازته ولا توارى له جثة، ولكن لا يظن ذلك عن قريب، ولا يحسب أنه منه غير بعيد، قد فسح لنفسه في المدة ومدّها في المهلة، وحكم أنه لا يموت إلا بعد سنين، وإن قال ربما أموت اليوم أو غدا فقول ضعيف لا يتحرك منه بسببه ساكن، ولا يظهر عليه منه أثر نازل، لأنه عند رؤية الجنازة كما كان قبل أن يراها وربما يحدث بحديثه الذي كان يتحدث والميت يدفن أو هو وراءه يشيعه إلى قبره، وإن جاءه ضحكٌ ضحكٌ، وإن حضره نادر من لغو الكلام تكلم به وأودعه صحيفته وبعث به إلى ربه .

وقلما يبكى على الجنازة إلا أهلها تألما لفراقها لا لنفس الموت، كبراء الصبي والمرأة اللذين لا يعقلان ولا يعلمان، ولو كانوا يعلمون لكان بكاءؤهم على أنفسهم لا على ميتهم، لأن ميتهم قد مات وهم ينتظرون الموت .
وأنشدوا:

إن لم تعينيني فاتركيني ووبخيني وفنديني وسقم جسمي وما تريني قد كان دنيائي ذا ودين وحييت في دمة الحزين كل أوإن وكل حين لا لقريب ولا خدين أتل فيه على الجبين أخذ شديد القوى متين وعن شمالي وعن يميني من حيث ما رحلت يلتقيني	أعاذل ^(٤) حتى ما تعذليني لومي بما شئت من ملام ولا تظني بأن حزني أثار ذاكم إن مات ميت تركته في القبور فردا لا والذي جوده يرجى ما أنا باك إلا لنفسي ومصرع للمنون ضيق أؤخذ فيه من كل أفق فمن أمامي ومن ورائي وفوق رأسي معا وتحتي
--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

(٤) العاذل: اللاتم .

ولا احتيال ولا افتداء لا برفيع ولا بدون
فخّني عاذلي وشأني فليس شأني من ذي الشئون

واعلم أن الجنازة تمر بالانسان ولا يدري حالها، ولا يتبين حقيقة مصيرها، وإنما يرجى لها بحسب ما ظهر منها من الطاعات، ويخاف عليها بحسب ما بدا منها من المخالفات، وإن لها كلاما لو سمعه الانسان لانصدع له حجاب قلبه وشغله عن بنيه وأهله، بل أذهله عن النظر في خاصة نفسه.

ذكر البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت قدّموني قدّموني، وإن كانت غير صالحة قالت يا ويلتي اين تذهبون بي، يسمع صوتها كل شيء إلا الانسان ولو سمعها الانسان لصعق^(٥).

وهما ميتان: فميت يستريح من تعب هذه الدار ويفضي إلى راحة دار القرار، وميت يستريح منه البلاد والعباد ويفضي إلى سوء المصير وبئس المهاد. ذكر أبو قتادة قال: مرّ على رسول الله ﷺ بجنازة، فقال: مستريح أو مستراح منه. فقالوا: يارسول الله ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وإيذائها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب^(٦).

وذكر هذا الحديث مسلم بن الحجاج وغيره.

وربما يكون منا من يهتز عند رؤية الجنازة ويرتاع عند مشاهدتها ثم لا يلبث أن يعود إلى حاله إلا بمقدار ما يكون بين يديه أو ساعة تمر عليه. [قال أبو عمرو بن العلاء:] جلست إلى جريرو وهو يملي علي كتابه شعرا، فاطلعت جنازة فأمسك وقال: شيبتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول:
تروعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات

(٥) البخاري ١٤/٣ في الجنائز. والنسائي ٤١/٤. جامع الأصول ١١/١٢٧.
(٦) رواه مسلم رقم ٩٥٠ في الجنائز، والبخاري ١١/٣١٤ في الرقاق ومالك في الموطأ ١/٢٤١ و ٢٤٢ في الجنائز، والنسائي ٤٨/٤ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٦٣.

كروعة ثلثة^(٧) لمغار ذئب فلما غاب عادت راتعات
وكان هذا البائس الغافل لم يسمع برجل قد شيع جنازة ثم مات المشيع
بعد جمعة، وربما كان بعد يوم واحد ٣٧/أ أو أقل من يوم، أو كأنه لم يعلم أن
هذا الميت كان طويل الأمل ممتد الرجاء، يطمع في العيش ويحرص على البقاء،
حتى هجم عليه ملك الموت في الوقت الذي لم يكن يظن به وقام معه من المكان
الذي لم يكن يحسبه، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم بخلاف هذا، كانوا إذا رأوا
الجنازة نظروا إليها نظر المعتبرين، وتكلموا عندها بكلام الموفقين، وكانوا يقولون
القول ويعملون بمقتضاه.

وسأذكر لك من كلامهم وأحكي لك من أقوالهم ما أمكنني، لعله يحرك
منك ساكنا ويوقظ منك نائما. والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا
بالله سبحانه.

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان إذا رأى جنازة قال: امض
ونحن على أترك.

وكان مكحول الدمشقي رحمه الله إذا رأى جنازة قال: اغد فإنا رائحون،
موعظة بليغة وغفلة سريعة، يذهب الأول، والآخر لا عقل له^(٨).

ومرت بالحسن البصري رحمه الله جنازة فقال: يالها موعظة ما أبلغها
وأسرع نسيانها، يالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ثم قال: يا غفلة شاملة
للقوم، كأنهم يرونها في النوم. ميت غد يدفن ميت اليوم.

وقال أسيد بن حضير: ما شهدت جنازة وحدثت نفسي بشيء سوى ما
يفعل بالميت وما هو صائر إليه^(٩).

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته، فوقف على قبره

(٧) الثلثة: بفتح الثاء وتشديدها: قطع الغنم. والمغار: الإغارة.

(٨) الإحياء ٤/٤٨٤.

(٩) نفس المصدر.

وبكى ثم قال: والله يا أخي لا تقر عيني بعدك حتى أعلم إلى ما صرت إليه، ولا والله لا أعلم ذلك ما دمت حيا.

وقال الأعمش: كنا نشهد الجنازة ولا ندري من المعزى فيها لكثرة الباكين، وإنما بكأؤهم على أنفسهم لا على الميت.

وقال ثابت البناني: كنا نشهد الجنازة فلا نرى إلا باكيا^(١٠)

وقال إبراهيم النخعي: كانوا يشهدون الجنازة فيرى فيهم ذلك أيما كأن فيهم الفكرة في الموت وفي حال الميت.

وقال مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه، أنه كان يلقي الرجل في الجنازة من خاصة إخوانه قد بعد عهده به فلا يزيد على السلام حتى يظن الرجل أن في صدره عليه موجدة^(١١)، كل ذلك لانشغاله بالجنازة وتفكره فيها وفي مصيرها، حتى إذا فرغ من الجنازة لقيه وسأله ولاطفه وكان منه أحسن ما عهد.

ورأى عبدالله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ رجلاً يضحك في جنازة، فقال: أتضحك وأنت في جنازة؟ والله لا أكلمك أبدا.

وفي الخبر أن الله يكره لكم ثلاثا، العبث في الصلاة، والرفث^(١٢) في الصوم، والضحك عند المقابر.

ولما مات ذر بن عمر بن ذر ووضع في قبره قال أبوه عمر: يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك؟ ثم قال: اللهم إن هذا ولدي ذر متعتني به ما متعتني، ووفيته أجله ورزقه ولم تنقصه حقه، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي، وإني قد وهبت له ما فرط فيه ٣٧/ب من طاعتي، فهب له ما فرط فيه من طاعتك. اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتني فقد وهبت ذلك له فهب لي عذابه ولا تعذبه وأنت أجود الأجودين وأكرم الأكرمين.

(١٠) الإحياء ٤/٤٨٤.

(١١) موجدة: غضب.

(١٢) الرفث: الفحش، دواعي الجماع.

قال: فأبكى الناس، ثم قال عند انصرافه: يا ذر ما علينا بعدك من خصاصة، وما بنا مع الله إلى إنسان من حاجة.

ياذر مضيئا وتركناك، ولو أقمنا عندك ما نفعناك. (١٣)

ألا ترى إلى هذا لم يشغله الحزن على ولده وثمرة كبده عن الحزن بما قال وبما قيل له، لأنهم إنما كانوا يقدمون الأهم فالأهم ويبدأون بالأعظم فالأعظم. يروى عن الأصمعي قال: حجت امرأة من العرب ومعها ابن لها فأصيبت به، فلما دفن قامت على قبره وهي موجعة فقالت: يا بني والله لقد غذوتك رضيعا، وفقدتك سريعا، وكأن لم يكن بين الحالتين مدة ألتذ فيها بعيشك وأتمتع فيها بالنظر إلى وجهك وبقيت مدة أتذكرك فيها وأذوب فيها بالحزن عليك (١٣).

ثم قالت: اللهم منك العدل، ومن خلقك الجود، اللهم وهبني قرة عيني فلم تتمعني به كثيرا بل سلبتنيه وشيكائ ثم أمرتني بالصبر عليه ووعدتني الأجر فصدقت وعدك ورضيت قضاءك اللهم ارحم غربته واستر عورته يوم تنكشف العورات وتظهر السوات، فرحم الله من ترحم على من استودعته الردم ووسدته الثرى.

فلما أرادت الخروج إلى أهلها وقفت على قبره وقالت: أي بني قد تزودت لسفري من الدنيا فليت شعري ما زادك لسفرك ويوم معادك؟ اللهم أسألك الرضى له برضاي عنه. ثم قالت: استودعك من استودعنيك جنينا في الأحشاء وأذاقني عليه غصة الثكلى. واثكل الولدات ما أقل أنسهن وأشد وحشتهن. وصلت عند قبره ركعتين وانصرفت:

ولعلك (١٥) يا هذا ممن يلبس النعش الثياب الملونة، ويجعل عليه الأردية المصبغة، ويحليه الحلية المبيضة، ويخرجه كالفاتنة المحلاة، والعروس المجلاة، ولا يتفكر في ميتة هل كسي أثواب الحرير أو قطران السعير، وإنه لموضع الفكرة وإرسال العبرة وإطالة العويل والحسرة.

(١٣) الإحياء ٤/٤٨٩.

(١٤) هذه العبارة من وبقيت سقطت من ش وز.

(١٥) من هنا إلى: اثواب زهرتها، انفردت به نسخة «ل».

وأشردوا :

مثل العروس تقام عند جلوتها
لتستميل قلوباً بزینتها
كالأرض قد زال عنها ثوب نصرتها
تعشى العيون بمراها وكثرتها
وبين صارخة تعدي بصرختها
فغادروه بها رهين وحشتها
دار المقامة أولظى بلفحتها
للنائبات فحازوا بجملتها
عنه القضاء ولا استشفى بلذتها
من الكبائر لا يقوى لعدتها
فهو المحير مغمور بحسرتها
ولا الرياض نضت أثواب زهرتها

وألبسوا النعش أثواباً ملونة
مثل العروس تنص في منصتها
وفيه ميت أزال الله نصرته
وشيعوه جماعات تطوف به
من بين باك يكف فيض دمعته
حتى أتوا حفراً إزاء بلدتهم
وما دروا هل تلقته بنفحتها
ثم انثنوا نحو أموال قد احرزها
وذاكم البائس المغرور ما دفعت
لكن تحمّل منها كل فادحة
ومر: ترفعه الدنيا وتسعفه
فما بكته السماء والأرض حين مضى



الباب الرابع في الثناء الحسن على الميت والثناء السوء

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث أنس بن مالك قال: مرَّ بجنّازة فأثني عليها خيرا، فقال نبي الله ﷺ: وجبت وجبت ومُرَّ بجنّازة فأثني عليها شرا فقال: وجبت وجبت فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فذاك أبي وأمي، مرَّ بجنّازة فأثني عليها خيرا فقلت وجبت، ومرَّ بجنّازة فأثني عليها شرا فقلت وجبت فقال رسول الله ﷺ: من أثنتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثنتم عليه شرا وجبت له النار، وأنتم شهداء الله في الأرض.

وفي بعض طرق البخاري فقليل يارسول الله قلت لهذا وجبت ولهذا وجبت؟ قال: شهادة القوم، المؤمنون شهداء الله في الأرض (١).

وعن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال: من شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة. قلنا: وثلاثة؟ قال وثلاثة، قلنا: واثنان؟ قال واثنان. ثم لم نسأله عن الواحد. وهذا الحديث مخصوص.. والله أعلم.

والذي قبله يعطى العموم وإن من كثرت شهوده وانطلقت السنة المسلمين ٣٨/أ فيه بالخير والثناء الصالح كانت له الجنة والله أعلم. وغير مستكثر إذا أحب الله عبدا أن يلقي على السنة المسلمين الثناء عليه وفي قلوبهم المحبة له. قال الله تبارك وتعالى: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا. وقال عليه السلام: إذا أحب الله عبدا دعا جبريل عليه السلام

(١) مسلم رقم ٩٤٩ في الجنائز، والبخاري ١٨١/٣ في الجنائز، والترمذي رقم ١٠٥٨ في الجنائز، والنسائي ٤٩/٤ و ٥٠ في الجنائز. جامع الأصول ١٨٠/٩.

فقال: إن الله يحب فلانا فأحبوه. قال: فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض. وذكر في البغض مثل ذلك وهذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج وغيره.

وقد شهد رجال من المسلمين علماء وصالحون كثر الثناء عليهم وصرفت القلوب إليهم في حياتهم وبعد مماتهم، ومنهم من كثر المشيعون والحاملون لجنازته والمشتغلون به. وربما كثر الله الخلق بما شاء من الجن والانس وغيرهم مما يشاء يكونون في صور الناس.

ذكر قاسم بن أصبغ قال حدثنا أحمد بن زهير قال حدثنا محمد بن يزيد الرفاعي قال: مات عمرو بن قيس الملاي بناحية فارس، فاجتمع بجنازته ما لا يحصى عددهم من الخلق، فلما دفن نظروا فلم يروا أحدا، قال الرفاعي: سمعت هذا ممن لا أحصي كثرة.

وكان سفيان الثوري بتبرك بالنظر إلى عمرو بن قيس هذا.

ولما مات أحمد بن حنبل رضي الله عنه صلى عليه من المسلمين ما لا يحصى، فأمر المتوكل أن يمسح موضع الصلاة عليه من الأرض، فوجدوا موقف ألفي ألف وثلاثمائة ألف (٢) أو نحوها.

ولما انتشر خبر موته أقبل الناس من البلاد يصلون على قبره فصلى عليه ما لا يحصى.

ولما مات الأوزاعي رضي الله عنه اجتمع للصلاة عليه خلق لا يحصى. ويروى أنه أسلم ذلك اليوم من أهل الذمة اليهود والنصارى نحو ثلاثين ألفا لما رأوا من كثرة الخلائق على الجنازة، ولما رأوا من العجب ذلك اليوم.

ولما مات سهل بن عبد الله التستري رحمه الله انكب الناس على جنازته وحضرها من الخلق ما لا يعلمه إلا الله، وكان في البلد ضجة فسمع بها يهودي شيخ كبير، فخرج فلما رأى الجنازة صاح وقال: هل ترون ما أرى؟ قالوا: وماترى؟ قال: أرى قوما ينزلون من السماء يتمسحون بالجنازة. ثم أسلم وحسن إسلامه.

(٢) أي مليونين وثلاثمائة ألف من الناس.

ويقال إن الكعبة لم تخل من طائف يطوف إلا يوم مات المغيرة بن حكيم
فإنها خلت لانحشار^(٣) الناس بجنائزه تبركا بها ورغبة في الصلاة عليها .
وقد شوهد من جنائز الصالحين من تشيعها الطير وتسير معها حيث
سارت . حدث بذلك الثقات .

وذكر أبو الحسن بن جهضم قال : أخبرنا محمد بن جعفر أبو الحسن ساكن
دمشق قال سمعت أبا بكر المصري يقول : لما مات أبو الفيض ذو النون المصري
بالجيزة : حمل في قارب مخافة أن تتقطع الجسور من كثرة من شيع جنازته من
الناس . وكنت قائما مع الناس على كوم أنظر ، فلما أخرج من القارب ووضع
على الجنازة - يعني ٣٨/ ب النعش ، وحمله الرجال على أعناقهم رأيت طيورا
خضرا قد اكتنفت الجنازة ترفرف عليها ، حتى عطف به إلى حمام المغاروغاب
عني . قال أبو بكر : فحدثت به خالي الحسن بن يحيى ، فقال : قد رأيت مثل هذه
الطيور على جنازة أبي إبراهيم المزني ، وذكر مرثاة رثى بها ، فقال منها :

ورأيت أعجب ما رأيت ولم أكن من قبل ذلك رأيت له لمشيح
طيورا ترفرف نعشه وتحفه حتى توارى في حجاب المضجع
قد احتجب عن العيون ولم أحط علما بكنه مسيره في المرجع
وأظنها رسل الاله تنزلت والله أعلم فوق ذلك الشرجع^(٤)

ويجب ألا يحتقر أحد من المسلمين وإن كان ظاهر الفسوق فلعل له بطانة
من خير وخبيثة من عمل صالح ، ولأنه أيضا قد صار إلى أرحم الراحمين .

وحكى أن رجلا من المهملين في الفساد مات في نواحي البصرة فلم تجد
امراته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه وتحمي
الناس له ، فاستأجرت امرأته حمالين يحملونه إلى المصلى فما صلى عليه أحد ،
فحملوه إلى الصحراء ليدفنوه بها ، وكان بالقرب من الموضع جبل فيه رجل من

(٣) انحشار: اجتماع .

(٤) الشرجع: السرير يحمل عليه الميت . النعش .

الزهاد الكبار، فنزل ذلك الزاهد للصلاة عليه فانتشر الخبر في البلد وقالوا نزل فلان ليصلي علي فلان، فخرج الناس فصلوا عليه مع الزاهد وجعلوا يتعجبون من صلاته عليه، فقال لهم: إني قيل لي في المنام انزل إلى الموضع الفلاني ترى فيه جنازة رجل ليس معها أحد إلا امرأته فصل عليه فإنه مغفور له، فزاد تعجب الناس، فاستدعى الزاهد زوجته فسألها عن ذلك وكيف كانت سيرته، فقالت: كان كما سمعت، كان طول النهار في الماخور مشتغلاً بشرب الخمر. فقال انظري هل تعرفين له شيئاً من أفعال الخير؟

قالت: لا والله إلا أنه كان يفيق في كل يوم من سكره عند صلاة الصبح فيبدل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح ثم يعود إلى ما هو عليه فيشتغل بشربه وهواه، وكان لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين يفضله على ولده، وكان يفيق في أثناء سكره فيبكي ويقول: إلهي أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث؟ يعني نفسه.

وكذلك إن كان الميت منبوذاً أو مطروحاً لا يعرف أو لا يحضره أحد فلا تحتقره ولا تنظر إلى الظاهر من حاله.

يروى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره. ذكره مسلم بن الحجاج^(٥). ومن غير كتاب مسلم: رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره.

ويروى عن عمر بن عثمان بن شعبة قال: رأيت في بعض الليالي في المنام كأن قائلاً يقول لي: إذا كان غدا فأت مصلي خولان فصل على ولي لنا. قال: فخرجت ٣٩/أقبل طلوع الفجر خوف أن يفوتني، ثم قعدت إلى قريب من غروب الشمس فلم يؤت بميت إلى ذلك المصلي، قال: فانصرفت فبينما أنا بين الأكام إذا أنا بميت على رأس حمال على فرد باب وعليه عباءة فقال لي الحمال يا هذا إن هذا الميت رجل غريب فهل لك أن تصلي عليه؟ فقلت في نفسي

(٥) مسلم رقم ٢٦٢٢ في البر والصلة، وفي صفة الجنة، جامع الأصول ٤/٦٧٧.

أنا قاعد له منذ اليوم، قال : فصليت عليه، ثم قال لي الجمال : ادخل معي حتى نواريه، فنزلت في قبره، فصوّبه عليّ فأضجعتة وحللت العقدة من عند رأسه، فالتفت الميت إليّ وقال سوف أشكرك عند الله غدا يا عمر، ثم عاد كما كان .

ويروى عن أبي علي الروذباري قال : قدم علينا فقير فمات فدفناه، فكشفت عن خده فجعلته على التراب ليرحم الله غربته ففتح عينيه وقال : يا أبا عليّ أتدللني بين يدي من يدلّني؟ فقلت : ياسيدي أحياء بعد الموت؟! فقال : بلى أنا محب لله وكل محب لله فهو حي، ياروذباري لأنصرك غدا لجاهي عنده .

وقال أبو سعيد الخراز: كنت بمكة فجزت^(٦) على باب بني شيبه فرأيت به شابا حسن الوجه ميتا، فنظرت في وجهه فتبسم في وجهي وقال يا أبا سعيد أما علمت أن الأحباء أحياء وإن ماتوا فإنما ينقلون من دار إلى دار .

واعلم رحمك الله أن الميت وإن كان لا يتكلم فقد يُسمع الله تعالى كلاما منه . . . به علم، صيرة حياة بشارة له بصلاته عليه ودفنه إياه واشتغاله به .

وقد حدثني الفقيه أبو القاسم عبدالرحمن بن يحيى القرشي قال لما مات أبي غسله المقريء أبو الحسن بن عطية، فقال لي أبو الحسن : لما كشفت الثوب عن وجهه لأغسله ضحك في وجهي لا أشك في ذلك ولا أرتاب .

وإذا جاز الخبر الأول جاز هذا أيضا فأبو القاسم وأبو الحسن صادقان عدلان من أهل المعرفة والذكاء .

وذكر الوليد بن عثمان وكان من الصالحين قال : قدم علينا في إشبيلية رجل أسود، فأقام في المسجد الذي كنت فيه، ثم انتقل عنه لعله أصابته، فأقام في فرن يرقد فيه على الخطب ويُتصدق عليه، ثم إنه مات فنقلته إلى داري لأغسله، فكشفت عنه الثوب لأغسله فبينما أنا أغسله إذ رأيت وجهه قد ابيض بياضا شديدا وصار مثل القمر ليلة البدر حسنا، وعم البياض وجهه وعنقه خاصة دون سائر جسده، فراعني ما رأيت وأرعدت وأصابني دهش عظيم، فرددت الرداء على وجهه وخرجت فأنذرت جماعة من أصحابي وجئت بهم معي وأعلمتهم قصته، فلما كشفوا الرداء عن وجهه راعهم حسنه وجماله وبيضاضه،

(٦) جزت: مررت.

وسائر جسده أسود كما كان . وتسامع الناس به فما كدنا نبليغ قبره إلى الليل من
كثرة الزحام على نعشه وكثرة من حضر جنازته رحمه الله .
ذكر هذه القصة ابن مغيث في كتاب التهجد، وذكرها غيره أيضا .
وذكر عمر بن ذر أنه مات رجل من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتحامى (٧) كثير
من الناس جنازته فلم يحضرها، وحضرها عمر، فلما دفن وقف على قبره فقال :
يرحمك الله فلقد عشت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود، وإن قالوا
ب/٣٩ مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وذو خطايا

* * *

(٧) تحامى : ترك واجتنب :

الباب الخامس ما يقال عند حضور الميت وما جاء في البكاء عليه

ذكر مسلم بن الحجاج عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيرا فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون.

قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله إن أبا سلمة قد مات، قال: قولي اللهم اغفر لي وله، واعقبني منه عقبى حسنة، قالت: ففعلت، فأعقبني الله من هو خير لي منه محمدا ﷺ (١).

وعنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه ثم قال لي: إن الروح إذا قبض تبعه البصر. فضج ناس من أهله فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون. ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه (٢).

وأبو سلمة هذا كان زوج أم سلمة.
وعن أم سلمة قالت: لما مات أبو سلمة قلت: غريب وفي أرض غربة، لأبكيه بكاء يتحدث به عنه، فكنت قد تهيأت للبكاء عليه إذ أقبلت امرأة من

(١) مسلم رقم ٩٢٠ في الجنائز جامع الأصول ٨٥/١١.

(٢) مسلم رقم ٩٢٠. وأبو داود رقم ٣١/٥ في الجنائز. جامع الأصول ٨٤/١١.

الصعيد (٣) تريد أن تسعدني (٤) فاستقبلها رسول الله ﷺ فقال: أتريدان أن يدخل الشيطان بيتا أخرجه الله منه مرتين؟ قال: فكففت عن البكاء فلم أبك . وعن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: لما طعن عمر أغمي عليه، فصيح عليه، فلما أفاق قال: أما علمتم أن رسول الله ﷺ قال: إن الميت ليعذب ببكاء الحي .

وعن عمر أيضاً في هذا الحديث قال: قال رسول الله ﷺ: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه .

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: المعول عليه يعذب .

وعن ابن عباس قال: لما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة يعني قول عمر عن رسول الله في البكاء على الميت فقالت: يرحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ قط أن الميت يعذب ببكاء أحد ولكنه قال: إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه . وقالت عائشة: حسبك القرآن: «لا تزر وازرة وزر أخرى» . قال: وقال ابن عباس عند ذلك: والله أضحك وأبكي .

وعن عروة بن الزبير قال: ذكر لعائشة أن ابن عمر يرفع إلى النبي ﷺ: إن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله» .

فقالت: إنما قال رسول الله: إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه وإن أهله ليكون عليه الآن (٥) .

وعن عمرة بنت عبدالرحمن أنها سمعت عائشة رضي الله عنها وقد ذكر لها أن عبدالله بن عمر يقول: إن الميت ٤٠/أ ليعذب ببكاء الحي، فقالت عائشة: يغفر الله لأبي عبدالرحمن أما انه لم يكذب ولكنه نسي أو أخطأ، إنما مر رسول الله ﷺ بيهودية يبكي عليها، فقال: إنهم ليكون عليها وإنما لتعذب في قبرها (٦) .

(٣) الصعيد الأرض المرتفعة: والحديث أخرجه مسلم رقم ٩٢٢ في الجنائز .

(٤) تسعدني: تعاونني وتشاركني البكاء .

(٥) أخرجه الروايات السابقة البخاري ١٢٧/٣ . ومسلم رقم ٩٢٨ في الجنائز . والنسائي ١٨/٤ في الجنائز . جامع الأصول ٩١/١١ .

(٦) أخرجه البخاري ١٢٨/٣ في الجنائز . ومسلم رقم ٩٣١ في الجنائز . ومالك في الموطأ ٢٣٤/١ في الجنائز . والنسائي ١٧/٤ في الجنائز . جامع الأصول ٩٤/١١ .

قد صح حديث عمرو ابن عمر رضي الله عنهما في تعذيب الميت ببكاء الحي من حديثهما، وصح أيضا من حديث المغيرة بن شعبة .

وذكر مسلم بن الحجاج عن المغيرة بن شعبة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من نبح عليه فإنه يعذب بما نبح عليه يوم القيامة .

وعائشة رضي الله عنها إنما حدثت بما سمعت ، وأنكرت ما لم تسمع وقال بعض العلماء أو أكثرهم : إنما يعذب الميت ببكاء الحي عليه إذا كان البكاء من سنة الميت واختياره ، أو يكون قد وصي به . (٧)

وقد روى ما يدل على أن الميت يصيبه عذاب ما ببكاء الحي وإن لم يكن من سنته ولا من اختياره ولا مما أوصى به .

ذكر ابن أبي خيثمة من حديث قبلة بنت مخزومة - وذكرت عند رسول الله ﷺ ولدا لها مات ثم بكت فقال رسول الله ﷺ : أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفا فإذا حال بينه وبينه من هو أولى به منه استرجع ثم قال : اللهم أثبني فيما أمضيت ، وأعني على ما أبقيت ، فوالذي نفس محمد بيده إن أحدكم ليبيكي فيستعبر إليه صويحبه ، فياعباد الله لا تعذبوا اخوانكم ، وإسناده لا بأس به .

ومساق هذا الحديث يدل على أن بكاء هذه لم يكن من اختيار ابنها ، لأن ابنها صاحب من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا كان هذا البكاء المعروف في الجاهلية الذي كان من اختيار الميت ، ومما يوصي به .

ذكر البخاري من حديث النعمان بن بشير قال : «أغمي على عبد الله بن رواحة ، فجعلت أخته تبكي وتقول : واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لي : أنت كذلك؟ فلما مات لم تبك عليه (٨)» وهذا أيضا لم يكن من سنة عبد الله بن رواحة ولا من اختياره ولا مما أوصى به لأن منصبه في الدين أجل وأرفع من أن كان يأمر بهذا أو يوصي به . (٩)

(٧) هذا القول هو الصحيح إذ لا يعقل أن يعذب الميت لأمر لا دخل له فيه وليس من عمله . والله تعالى إنما يعذب الناس بما فعلوا لا بما يفعله غيرهم .

(٨) البخاري ٣٩٧/٧ في المغازي .

(٩) نقل القرطبي هذا الكلام حرفيا في التذكرة ص ١٠٣ .

وفي هذا الباب حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «الميت يعذب ببكاء الحي عليه» (١٠) إذا قالت النائحة: واعضدها واناصراه واكاسباه جذب الميت وقيل له: أنت عضدها؟ أنت ناصرها؟ أنت كاسبها؟ ذكره أبو عمر بن عبد البر في الاستذكار.

وأيضاً فإن البكاء عند العرب يكون البكاء المعروف وتكون النياحة، وقد يكون معها الصياح وضرب الخدود وشق الجيوب، ولا أعلم خلافاً أن ذلك حرام، وقد ورد الوعيد (١١) على هذا كله.

ذكر مسلم بن الحجاج رحمه الله من حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: وجع أبو موسى وجعا، فغشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً، فلما أفاق قال: أنا بريء ممن بريء منه رسول الله ﷺ فإن رسول الله بريء من الصالقة والحالقة والشاقة.

وفي لفظ آخر عن عبد الرحمن بن يزيد وأبي بردة قالا: أغمى على أبي موسى فأقبلت امرأته أم عبد الله تصيح برنة، ثم أفاق، فقال: ألم تعلمي، وكان يحدثها أن رسول الله ﷺ قال: أنا بريء ممن حلق وصلق وخرق (١٢).

الصالقة هي التي ترفع صوتها بالعويل عند المصيبة، والحالقة التي تحلق شعرها عند المصيبة، والشاقة التي تشق ثوبها، كل ذلك عند المصيبة.

ذكر مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ٤٠/ب ودعا بدعوى الجاهلية (١٣). وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: قال: اثنتان في الناس هما بهم كفر:

(١٠) رواه البخاري ١٢٨/٣ وليس فيه إذا قالت الخ. جامع الأصول ٩٧، ٩٩.

(١١) الوعيد: الوعد بالعذاب والتهديد به.

(١٢) رواه البخاري ١٣٢/٣ في الجنائز. ومسلم رقم ١٠٤ في الايمان. وأبو داود رقم ٣١٣٠ في الجنائز. والنسائي ٢٠/٤ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٠٤.

(١٣) البخاري ١٣٣/٣ في الجنائز. ومسلم رقم ١٠٣ في الايمان. والترمذي رقم ٩٩٩ في الجنائز. والنسائي رقم ٢٠/٤ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٠٤.

الطعن في النسب، والنياحة على الميت. (١٤)

وعن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر في الاحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت (١٥).

وقال: النائحة على الميت إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب (١٦).

وأما البكاء من غير نياحة فقد ورد فيه الإباحة، وهو بكاء الرحمة والرأفة التي لا يكاد يخلو منها البشر، ولا يوجد قلب إلا وبه منها أثر.

وقد قال عمر رضى الله عنه: دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نقع أو لقلته. والنقع: ارتفاع الصوت، واللقلة تتابع ذلك.

وقال أبو عبيدة: قال بعضهم يريد عمر بالنقع وضع التراب على الرأس.

قال أبو عبيد: وليس النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد، واللقلة: زفع الصوت.

وأما حديث النبي ﷺ في هذا الباب في إباحة البكاء من غير نياحة ولا صياح فصحيح مشهور.

ذكر مسلم بن الحجاج عن أسامة بن زيد قال: كنا مع رسول الله ﷺ،

فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيا أو ابنا لها في الموت، فقال

لرسول: ارجع إليها فأخبرها أن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده

بمقدار بأجل المسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب. فعاد الرسول فقال: إنها قد

أقسمت لتأتينها. قال: فقام الرسول ﷺ، وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن

جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال وانطلقت معهم، فرفع إليه الصبي

ونفسه تققع كأنها شن، ففاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة: ما هذا

يارسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب العباد، وإنما يرحم الله من

(١٤) رواه مسلم رقم ٦٧ في الإيمان. جامع الأصول ١١/٧٣٨.

(١٥) رواه مسلم رقم ٦٧ جامع الأصول ١١/٧٣٨.

(١٦) رواه مسلم في الجنائز وهو جزء من الحديث الذي تقدمه. انظر جامع الأصول ١١/١١٠.

عباده الرحماء. (١٧)

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ولد لي الليلة غلام سميته باسم أبي إبراهيم. وذكر الحديث وفيه: فدعا النبي ﷺ بالصبي فضمه إليه وقال ما شاء الله أن يقول: قال أنس: لقد رأيته وهو يكيده بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ فدمعت عينار رسول الله، فقال: تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك المحزونون (١٨).
قوله يكيده بنفسه: يعني يموت.

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتى رسول الله ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه وجدته في غشية، فقال: أوقد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فبكى رسول الله ﷺ. فلما رأى القوم بكاءه بكوا فقال: ٤١/أ ألا تسمعون؟ إن الله عز وجل لا يعذب بدمع العين ولا يحزن القلب، وإنما يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم (١٩).

وذكر أبو عبد الرحمن النسائي من حديث أبي هريرة قال: مات رجل من آل رسول الله ﷺ فاجتمع النساء يبكين عليه، فقام عمر ينهاهن، فقال رسول الله ﷺ دعهن ياعمر فإن العين دامة، والفؤاد مصاب، والعهد قريب. (٢٠)
وعن جابر بن عبد الله قال: قتل أبي يوم أحد فجعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وجعل الناس ينهونني، ورسول الله لم ينهني، وجعلت عمتي تبكيه، فقال رسول الله ﷺ تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه.

(١٧) مسلم رقم ٩١٣ في الجنائز، والبخاري ١٢٤/٣ و١٢٦ في الجنائز، وفي المرضى، وفي القدر، وفي الأيمان والندور، وفي التوحيد. والنسائي ٢٢/٤ في الجنائز. جامع الأصول ٩٠/١١.

(١٨) رواه مسلم رقم ٢٣١٥ في الفضائل. جامع الأصول ٢٢٢/١١.

(١٩) رواه البخاري ١٤٠/٣ في الجنائز، ومسلم رقم ٩٢٤ في الجنائز جامع الأصول ١٠٢/١١.

(٢٠) النسائي ١٩/٤ في الجنائز. جامع الأصول ٩٥/١١.

ويروى عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما مات عثمان بن مظعون كشف رسول الله ﷺ الثوب عن وجهه ، وقبّل بين عينيه وبكى بكاء طويلا ، فلما رفع على السرير قال : طوبى لك يا عثمان ، لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها . وبكاء النبي ﷺ على عثمان بن مظعون مشهور ، وذكره ابوداود وغيره .

وأما نعي الميت والإعلام بموته إذا قصد بذلك اجتماع الناس للصلاة عليه لما يناله من دعائهم له واستغفارهم ورجبتهم إلى الله تعالى فيه وسؤالهم ، ولما ينالون أيضا من ثواب الصلاة عليه ، فمنه مفروض ومندوب إليه ، ومنه غير جائز .

وقد نعى (٢١) النبي ﷺ النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه ، وقال : استغفروا لأخيكم ، وخرج بالناس إلى المصلى فصف بهم وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات .

وكان موت النجاشي ببلد بعيد عن مدينة النبي ﷺ .

ذكر نعي النجاشي والصلاة عليه مسلم بن الحجاج وغيره من حديث أبي هريرة وغيره .

وقد نعى النبي ﷺ زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة ، نعامهم قبل أن يجيء خبرهم ، وعيناه تذر فان .

وقد قال عليه السلام : لا يموت فيكم ميت إلا أعلمتموني به . (٢٢) فأمر بأن يعلم بكل ميت من المسلمين ليصلي عليه ، لما في صلاته ﷺ من البركة والرحمة ، ولإقامة سنته أيضا في الصلاة على موتى المسلمين ، وفي صلاة المسلمين بعضهم على بعض ، ودعاء بعضهم لبعض .

وقال ﷺ إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء .

ذكره ابوداود من حديث أبي هريرة .

وقال (٢٣) عليه السلام : من صلى على جنازة ولم يتبعها فله قيراط فإن

(٢١) نعاه : أخبر بموته .

(٢٢) رواه النسائي ٨٤/٤ في الجنائز جامع الأصول ٢٤١/٦ .

(٢٣) من هنا إلى غيره سقط من ش .

تبعها فله قيراطان . قيل : وما القيراط؟ قال أصغرهما مثل أحد . يريد مثل جبل أحد . (٢٤)

ذكره مسلم وغيره من حديث أبي هريرة وغيره .
وأما إذا كان نعي الميت والإعلام بموته ليجمع الناس عليه على معنى التعظيم له والمصيبة بفقده، والتفاخر بما يجتمع له من الناس، ومحضره من الاشراف، فهذا لا يجوز.

وعلى هذا يخرج نهي النبي ﷺ عن النعي .
ذكر الترمذي من حديث حذيفة بن اليمان قال : إذا مت فلا تؤذنوا (٢٥) بي أحدا، إني أخاف أن يكون نعيًا، فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن النعي .
وأما المفروض من هذا الباب فهو أن يدعى للصلاة على الميت من تقوم به سنة الصلاة عليه .

(٢٤) مسلم رقم ٩٤٦ في الجنائز . جامع الأصول ٩/٤٤٣ .

(٢٥) تؤذنوا: تُحَبِّروا .

الباب السادس ما يحذر من سوء الخاتمة وما سبق من ذلك لأكثر الخلق في السابقة

اعلم رحمك الله أن هذا أمر إذا ذكر حقيقة ذكره انفطرت (١) ٤١ / ب له القلوب، وتشققت وانصدعت له الأكباد وتقطعت، ولولا أن الأجل محدودة، والأنفاس معدودة، فلا يتجاوز ذلك المحدود، ولا يزداد على ذلك المعدود، لزهقت (٢) الأنفس عند أول ذكره زهوقاً لا تجد لسرعه طعم وفاة، بل تكاد تنعدم معه انعداماً لا تعود معه إلى وجود ولا حياة، ولكنها مربوبة (٣) مدبرة مقهورة مصرفة تخرج إذا أذن لها في الخروج، وتلج إذا أذن لها في الولوج، وقد كتب عليها الوجود والبقاء فلا انعدام ولا مطمع لها في ذلك ولا مرام.

وما يمنع القلوب رحمك الله من الانشقاق والانصداع والانفطار والانقطاع، والذي يلقي المختوم له بهذه الخاتمة عذاب لا تقوم السموات والأرض لشدته، ولا آخر لمدته، وما منا أحد إلا ويخاف أن يكون هو، وما الذي أمنه منه؟ وما الذي حاد به عنه، والخاتمة مغيبة والعاقبة مستورة، والأقدار غالبية، والنفوس كما تدري، والشيطان منها بحيث تدري، وهي مصغية (٤) إليه ملتفتة نحوه، مقبلة عليه.

(١) انفطرت: انشقت.

(٢) زهقت: هلكت.

(٣) مربوبة: لها ربٌ يديرها.

(٤) مصغية: منصته مستمعة.

وأشددوا في هذا المعنى :

هي النفس إن تنظر إلى الحق نظرة فإن لها في غيره نظرات
وإن نهضت يوماً إلى الله نهضة فإن لها عنه غدا نهضات
إلى الله أشكوها فبالله حولها وبالله تمضي في الأمور وتأتي
كذا جرت الأقلام وانبرمت الأحكام ، فقسم الخلق إلى قسمين وفرقهم
إلى فريقين : شقي وسعيد ، غوي ورشيد ، قريب وبعيد ، ذميم وحميد ، ارتفاع
واتضاع ، واتصال وانقطاع ، إجابة وامتناع وانت يا هذا ما تدري بما جرى
سهمك ، ولا كيف ثبت في هذه الأسماء اسمك :

قد حكم الله بما شاء من وضع لمن شاء وإعلاء
وقدر الأمر على ما يرى من منع أقوام وإعطاء
وأبرمت أحكامه في الورى من قبل بإسعاد وإشقاء
وأنت لا تدري بماذا جرت طيرك في محكم الأجواء
هل بشقاء أو بسعد وهل مرت برشد أو بإغواء
فاقدح زناد الخوف بين الحشا واقنع من النوم بإغفاء
وابك على نفسك حتى ترى ما اسمك في مثبت الأسماء

ورد في الخبر الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : إن الرجل ليعمل عمل
أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار
فما يبدو للناس وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم^(٥) . وروي أيضا من
طريق آخر ليس فيه . . فيما يبدو للناس .

وصح عنه ﷺ أنه قال : جف القلم بما أنت لاق^(٦) .

وقال ﷺ رفعت الأقلام وجفت الصحف^(٧) .

(٥) أخرجه البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي . البخاري ٤٣٦/١١ . في
القدر ، ومسلم رقم ١١٢ في الايمان .

(٦) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٤٤ في الايمان .

(٧) خاتمة حديث عن ابن عباس ، أوله يا غلام إني أعلمك كلمات . . وقد رواه الترمذي وقال =

ذكر هذه الأحاديث مسلم والبخاري والترمذي : وعند أحدهم ما ليس
عند الآخر:

وأنشد بعضهم :

قد جرت الأقلام في ذا الوري^(٨) بالختم من أمر العليم الحكيم
وخطت الشيء على حكمه في علمه السابق منه القديم
فمن سعيد وشقي ومن مثر من المال وعار عديم
ومن عزيز رأسه في السهى^(٩) ومن ذليل وجهه في التخوم^(١٠)
ومن صحيح شدت أركانه وآخر واهي المباني سقيم
كل على منهاجه سالك ذلك تقدير العزيز العليم

فانظر رحمك الله كيف تفرعين عاقل في هذه الدار وكيف يستقر به فيها قرار
مع هذه الحال وتوقع هذا المآل ، واشتغال هذا الخاطر وتقسيم هذا البال .
كلا لا حلول له ولا قرار ، ولا ريع ولا دار ، ولا قلب إلا مستطار ، ولا نوم
ينامه إلا غرار حتى يدري أين مسقط رأسه ، ومحط رجله ، وما المورد والمنهل^(١١) ،
وفي أي ٤٢ / أ المحال يحل ، وفي أي المنازل بعد الموت ينزل .
كما قال الأول :

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المنازل تنزل
وقال غيره :
وكيف بالنوم على زارة من أسد تكشر أنيابه
وانت في ذا غير مستعتب في منزل قد كسرت أبوابه

= حسن صحيح رقم ٢٥١٨ في صفة القيامة . جامع الأصول ١١ / ٦٨٦ .
(٨) الوري : الناس .
(٩) السهى : نجم عال .
(١٠) التخوم : الحدود في الأرض .
(١١) المورد والمنهل : موضع الشرب .

وثلمت بالروع حيطانه وفرقت بالخوف حجابيه

لكن حجاب الغفلة الذي غطى القلوب كثيف فلا يرى ما وراءه، والوقر الذي في الأذان عظيم فلا يسمع من ناصح دعاءه.

روى في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشربون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت ثم يقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشربون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت. فيذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ وأشار بيده إلى الدنيا (١٢).

وقال البخاري: ﴿وهم في غفلة﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا وهم لا يؤمنون.

فانظر رحمك الله إلى عظيم هذه الغفلة وكثافة حجابها، وكيف منعت من النظر في هذا الحديث، والفكرة فيه والعمل بمقتضاه.

وقد بكى أولو الألباب على هذا فأكثروا، وسهروا من أجله الليالي الطويلة وأسهروا، ورام عاذلوهم كفهم (١٣) عما هم فيه فلم يقدروا وكلموهم في الإقصار فلم يقصروا، ولم يسمعوا ولم يبصروا، وذلك للعلم الذي لاح لهم، والتأييد الذي شملهم، والتوفيق الذي قطع عنهم ما صدهم عن طريق الله عز وجل وشغلهم، وربما هبت عليهم نفحات الرجاء فاستبشروا وسكنوا من ذلك الهيجان وفتروا، ثم ذكروا ما هم معروضون له فعادوا لما كانوا عليه من الاجتهاد، وربما زادوا عليه وأكثروا.

ومع هذا فإنهم لشدة خوفهم وكثرة جزعهم يحسبون كل صيحة عليهم ويظنون كل إشارة إنما يشار بها إليهم.

(١٢) رواه البخاري ٣٦١/١١ في الرقاق. ومسلم رقم ٢٨٥٠ في الجنة.

وآية: أنذرهم يوم الحسرة رقم ٣٩ سورة مريم.

(١٣) كفهم: منعهم.

كما روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿والطور*﴾
 وكتاب مسطور^(١٤) ﴿ قال: هذا قسم حق. فلما بلغ القاريء إلى قوله عز وجل: ﴿إن عذاب ربك لواقع^(١٥)﴾ ظن أن العذاب قد وقع به فغشي عليه.
 وسمع آخر قارئاً يقرأ خذوه فغلوه* أو آية نحوها فغشي عليه.
 ومر آخر على رجل يبيع الخيار وهو يقول: الخيار عشرة بدائق^(١٦)، فغشي عليه، فلما أفاق قيل له: مم غشي عليك؟ فقال: أوما سمعته يقول: الخيار العشرة بدائق، وإذا كانت قيمة الخيار^(١٧) هذه فكم تكون قيمتي وقيمة أمثالي؟
 فانظر إلى هذا لم يلق باله إلى أنه الخيار المأكول لشدة خوفه وسوء ظنه بنفسه.

والأخبار في هذا الباب كثيرة: فلتسلك رحمك الله على منهاج هؤلاء العقلاء، ولتمش على آثار هؤلاء الفضلاء، ولتتزين بزينة هؤلاء الحكماء، وأدم حسرتك، وأطل زفرتك، وامزج بدم الفؤاد عَبرَتَكَ، وابك ثم ابك، وصيل البكاء بالبكاء، والأسى بالأسى حتى تنكشف لك هذه الغشاوة، وتنجلي عنك هذه العمائة، كما قال الأول: وقد دعي إلى الخلافة وكان قد تعرض له متعرض دونها:

زويدك حتى تنظري عم تنجلي عماية هذا العارض المتألق
 وبكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فقيل له: أبكاؤك هذا على الذنوب؟ فأخذ تبنة من الأرض وقال: الذنوب أهون من هذه إنما أبكي خوف الخاتمة.

وبكى سفيان وغير سفيان لأنه الأمر الذي يبكى عليه ويصرف الاهتمام كله إليه. وقال القائل:
 والذي أبكى الجفون دما فغدت من ذاك في غَدَر

(١٤) آية ١ و ٢ من سورة الطور.

(١٥) آية ٧ الطور.

(١٦) الدائق: سدس الدرهم. والكلمة فارسة الأصل.

(١٧) الخيار: ظن الرجل أن المراد خيار الناس أن أفاضلهم.

سابقاً لم يدر كيف جرى في القضاء الحتم والقدر
وأمر في الورى خفيت عن ذوي الألباب والنظر
فدع الأنفاس صاعدة ودموع العين تنحدر
وابك لا جفت دموعك ما ضاع من أيامك الغرر

وقد قيل: لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربعك^(١٨). وقيل: لا
تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم.
وقيل: لا تبت وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور.
وقيل: لا يخصب لك الجناب^(٢٠) ولا تأنس بكعاب^(٢١) حتى ترى ما خط
لك في أم الكتاب، وتستين العاقبة والمآب.
وأُشِد:

حاسب النفس قبل يوم الحساب وأذقها العذاب قبل العذاب
وأصبها من الأسى بشواظ ينضج اللحم قبل نضج الإهاب
وإذا ما بكيت يوماً بدمع فدمع من الفؤاد مُشاب
وحذار حذار أن تتهنا بطعام تناله أو شراب
أو منام تنام بالليل حتى تستبين المآل يوم المآب

وقيل: يا ابن آدم الأقلام عليك تجري، وأنت في غفلة لا تدري يا ابن آدم دع
المغاني والأوطار، والمنازل والديار، والتناسف في هذه الدار حتى ترى ما فعلت في
أمرك الأقدار.

وسمع بعض الصالحين منشداً ينشد:

أيا راهبي نجران ما فعلت هند؟

(١٨) الغدر: بفتح الدال: الظلام، الوحل، الموضع الصعب كثير الحجارة.

(١٩) الرُبُع: الدار، المنزلة.

(٢٠) الجناب: الناحية، ما قرب من المحلة.

(٢١) كعاب: فتاة نهد ثديها أي ارتفع.

فبكى ليلته كلها، فلما أصبح قيل له : ما كان شأنك البارحة؟ وما الذي أبكاك؟
فقال : سمعت منشدا ينشد (٢٢) :

أيا راهبي نجران ما فعلت هند

فقلت في نفسي : ما فعلت الأقدار في، وماذا جرت به علي؟

وقد علمت - رحمك الله - أن الناس صنفان : صنف مقرب مصان، وآخر
مبعد مهان . صنف نصبت له الأسرة والحجال وجمعت لهم الرغائب والآمال
والأرائك والكلال، وآخرون أعدت لهم الأرقام (٢٣) والصلال، والمقامع
والأغلال (٢٤) وضروب الأهوال والأنكال (٢٤) . وأنت لا تعلم من أيها أنت، ولا
في أي الفريقين كتبت .

وأنشدوا :

ونزلت بالبيداء أبعد منزل
وطُرحت بالصحراء غير مظلل
وسُقيت دمة واله متململ
وقضية ثبتت لأمر الأول
فتزيل من داء البعاد المعصل
والعقل يسمعها إذا لم تعقل
فاكفف سؤالك بعد ذا أو فاسأل

نزلوا بمكة من قبائل نوفل
وتقلبوا فرحين تحت ظلالهم
وسقوا من الصافي المعتق ريم
يا قسمة قسمت ولم يعلم بها
هل فيك للملك المهيمن نظرة
فأجاب يسمع نفسه عن نفسه
هيهات قد سبق القضاء بما ترى
البيت الأول قديم ٤٣ / أ .

وقيل : من قعد به جدّه لم ينهض به جدّه (٢٥) .

قال أبو القاسم القشيري كان أبو علي الدقاق كثيرا ما ينشد :

ما خيلتي تفعل الأقدار ما أمرت والناس ما بين ذي غي وذي رشد

(٢٢) من أيا راهبي إلى هنا سقط من ش وز .

(٢٣) الأرقام : جمع أرقم وهو أخت الحيات . والصلال : جمع صل وهو نوع خبيث من الحيات أيضا .

(٢٤) الأنكال : جمع نكل وهو القيد الشديد . ومثلها الأغلال .

(٢٥) جدّه : بفتح الجيم حظه . وجدّه بكسر الجيم اجتهاده أي أن الاجتهاد لا ينفع صاحبه مع سوء حظه .

وقال : إذا كان الرضا والغضب صفة أزلية فما تنفع الأذيال المقصرة
والأقدام المورمة والوجوه المصفرة؟

وقيل يا ابن آدم أي شيء يمنحك ، وأي مكان يعصمك إذا كانت الأقدار
تطلبك؟

ومر على بعض الصالحين بيهودي ميت قد أوصى أن يدفن ببيت
المقدس ، فقال : أيكابر هؤلاء الأقدار؟ أما علموا أنهم لودفونوا في الفردوس
الأعلى لجاءت لظي بأنكالها حتى تأخذه إليها وتنطلق به معها؟
وقال آخر: من حكم له بالسعادة لا يشقى أبداً ، وإن ألح غاويه وكثر معاديه ،
وأحيط به من جميع نواحيه ، ومن حكم له بالشقاوة لا يسعد أبداً ، وإن عمر
ناديه ، وأخصب واديه ، وحسنت أواخره ومبادئه . كم من عابد ظهرت عليه أنوار
العبادة وأثار الإرادة وبدت منه مخايل السعادة ، وارتفع صيته وانتشر في الآفاق
ذكره وعظم في الناس شأنه وقدره جمحت الأقدار به جمحة ردت على عقبه ،
وسلبته ما كان في يديه ، وأخذت بناءه من قواعده فألقته عليه ، فنعوذ بالله من
درك الشقاء وجهد البلاء وشهاتة الأعداء برحمته .

وأعلم رحمك الله أن لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسباباً ، ولها طرق
وأبواب ، أعظمها الإكباب على الدنيا ، والإعراض عن الآخرة والإقدام
بالمعصية على الله تعالى .

وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ، ونوع من المعصية وجانب
من الإعراض ، ونصيب من الافتراء ، فملك قلبه وسبى عقله وأطفأ نوره وأرسل
عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ، ولا نجعت فيه موعظة ، فربما جاءه الموت
على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين المراد ولا علم ما أراد وان
أعاد عليه وأعاد .

يروى أن بعض رجال الناصر بن علناس نزل به الموت ، فجعل ابنه يقول
له : قل لا إله إلا الله ، فقال الناصرياً مولاي ، فأعاد عليه ، فأعاد هو ثم أصابته

غشية، فلما أفاق قال الناصر أمولاي، ثم قال لابنه: يا فلان، الناصر إنما يعرفك بسيفك فالقتل ثم القتل، ثم مات.

وقيل لآخر وقد نزل به الموت قل: لا إله إلا الله فقال: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والجنان الفلاني افعلوا فيه كذا.

هذا فيما حدثت عنه ولم أشهده، وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أخطه في الديوان الذي وقع فيه هذا الحديث أن رجلا نزل به الموت، فقيل له قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية: ده يازده دوازده، تفسيره عشرة أحد عشر اثنا عشر، كان هذا الرجل من أهل العمل والديوان، فغلب عليه الحساب والميزان.

كما روي أن رجلا نزل به الموت، فقيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟.

وهذا الكلام فيه قصة، وذلك أن رجلا كان واقفا على باب داره، وكان بابها يسببه باب حمام، فمرت به جارية لها منظر وهي تقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب، وأشار إلى داره، فدخلت الدار، فدخل وراءها، فلما رأت نفسها معه في داره وليست بحمام علمت أنه خدعها فأظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة في تلك الدار، وقالت له: يصلح أن يكون عندنا ما يطيب به عيشنا وتقربه عيوننا. فقال لها: الساعة أتيك بكل ما تريدين وبكل ما تشتهين، وخرج فتركها في الدار ولم يغلقها وتركها مفتوحة على حالها، ومضى فأخذ ما يصلح لهما، ورجع ودخل الدار، فوجدها قد خرجت وذهبت ولم يجد لها أثرا، فهام الرجل بها، وأكثر الذكر لها والجزع عليها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول:

٤٣/ب

يارب قائلة يوما إذا بلغت أين الطريق إلى حمام منجاب
وبعد أشهر مرّ في بعض الأزقة وهو ينشد هذا البيت وإذا بجارية تجاوبه من طاق
وهي تقول:

هلا جعلت لها إذ ظفرت بها حرزا على الدار أوقفلا على الباب

فزاد هيئانه واشتد هيجانه ، ولم يزل كذلك حتى كان من أمره ما ذكر . فنعوذ بالله من المحن والفتن (٢٦) .

ويروى أن رجلا عشق شخصا ، واشتد كلفه به ، وتمكن حبه من قلبه حتى وقع لما به ، ولزم الفراش من أجله ، وتمنع ذلك الشخص واشتد نفاره عنه ، فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعوده فأخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمه ، وجعل ينتظر الميعاد الذي ضرب له ، فبينما هو على ذلك إذ جاءه الماشي بينهما وقال : إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع ، فرغبت إليه وكلمته في إنجاز وعده والوفاء بعهده ، فقال : إني أخاف الفضيحة ولا أدخل مداخل السوء والرَّيب ، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم ، وسألته فأبى وانصرف ، فلما سمع اليائس هذا سقط في يده وعاد إلى أشد مما كان به ، وبدت علامت الموت وأماراته عليه .

قال الراوي فسمعتة يقول وهو في تلك الحال :

سلام يا راحة العليل وبراء داء المدنف (٢٧) النحيل
لنفاك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالق الجليل

قال : فقلت له : يا فلان اتق الله . فقال : قد كان ، فقامت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه . فنعوذ بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة بكرمه .

واعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - لا يكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ، وإنما يكون ذلك لمن كان له فساد في العقل وإصرار على الكبائر ، وإقدام على العظائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة ، ويثب عليه قبل الإنابة ، ويأخذه قبل إصلاح الطوية ، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله ثم العياذ بالله أن يكون لمن كان مستقيما لم يتغير عن حاله ، ويخرج عن سنته ، ويأخذ في غير طريقه

(٢٦) ذكر هذه القصة حرفيا القرطبي في التذكرة وعزاها إلى المؤلف انظر ص ٣٥ من التذكرة .

(٢٧) المدنف : الذي ثقل عليه المرض . والمراد هنا من شدة الحب .

فيكون ذلك سببا لسوء الخاتمة وشؤم العاقبة ، والعياذ بالله «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال» .

وقد سمعت بقصة بلعام بن باعوراء ، وما كان آتاه الله من آياته ، وأطلعه عليه من بيناته ، وما أراه من عجائب ملكوته .

أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فسلبه الله سبحانه جميع ما أعطاه ، وتركه مع من استماله وأغواه .

ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجدا للأذان والصلاة فيه وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة ، فرقي يوما المنارة على عادته للأذان ، وكان ٤٤ / أ تحت المنارة دار لدمي نصراني ، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها ، فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها ، فقالت له : ما شأنك وما تريد؟ فقال : أنت أريد . قالت : لماذا؟ قال لها : قد سلبت لبي وأخذت بمجامع قلبي . قالت له : لا أجيبك إلى ريبة .

قال لها : أتزوجك . قالت : أنت مسلم وأنا نصرانية ، وأبي لا يزوجني منك ، قال لها : أتنصر . قالت : إن فعلت أفعل . فتنصر الرجل ليتزوجها ، وأقام معهم في الدار فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات ، فلا هوبها اتصل ، ولا هوبدينه حصل . فنعوذ بالله ثم نعوذ بالله .

الباب السابع

تلقين الميت بعد الدفن ، والدعاء له ، وقراءة القرآن عنده
وذكر محاسنه والسكوت عن مساوئه

يروى عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا مات أحدكم فسويتم التراب عليه فليقم أحدكم على رأس قبره ، ثم يقول : يا فلان ابن فلانة ، فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية ، فإنه يستوي جالسا ، ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة فإنه يقول : أرشدنا يرحمك الله ، ولكنكم لا تسمعون ، فيقول : اذكر ما خرجت عليه من دار الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وأنت رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديننا ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن إماما .

فإن منكرنا ونكيرنا يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ، ويكون الله حجيجهما دونه : فقال رجل : يارسول الله فإن لم تُعرف أمه؟ قال ينسبه إلى أمه حواء .

ويروى عن النبي ﷺ أنه حضر جنازة رجل فلما دفن قال : سلوا الله لأخيكم التثبيت فإنه الآن يُسأل (١) .

وعن بعض الصالحين أنه قال : مات أخ لي ، فرأيت في النوم فقلت يا أخي ما كان حالك حين وضعت في قبرك؟ قال : أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعالي لهلكت (٢) .

(١) رواه أبو داود رقم ٣٢٢١ في الجنائز . جامع الأصول ١١/١٤٩ .
(٢) من : ويروى عن النبي إلى هنا جاء في «ل» بعد خبر شبيب الآتي .

قال شبيب بن أبي شيبه: أوصتني أُمي عند موتها فقالت لي يا بني إذا دفنتني فقم عند قبري وقل يا أم شيبه قولي لا إله إلا الله . قال : فلما دفنتها قمت عند قبرها فقلت : يا أم شيبه قولي : لا إله إلا الله ، ثم انصرفت . فلما كان من الليل رأيتها في المنام ، فقالت لي : يا بني كدت أن أهلك لولا أن تداركني لا إله إلا الله ، فلقد حفظت وصيتي يا بني .

وروى أن رجلا قال : رأيت رجلا - وقد ذكر رجلا معروفا - قال : رأيت في النوم وكأنه قد مات وحمل إلى قبره ، وكنت ممن شهدته ، فرأيت أنه قد وضع في قبره ، فرأيت بابا قد فتح في جانب القبر كأنه باب مغارة ، وهي مملوءة ظلمة ، فخرج من ذلك الباب أسودان مهيبا المنظر ، فأخذا ذلك الميت وجعلا يجذبانه إلى المغارة ، والميت ساكت ، فبينهما كذلك إذ أقبل رجل كان ٤٤ / ب مشهورا بالعبادة ، وكان ذلك الميت يحسن إليه ، فلما رآه الميت استغاث به يا فلان ، فقال ذلك الرجل : سلام لا بأس ، وأخذ بيده واستنقذه منها ، فقعد الميت يذكر الله وإذا بثوب قد وقع من السماء ، فألبسه الرجل ذلك الميت ثم صعد به إلى السماء .

قال الراوي فاستيقظت فوجدت ذلك الرجل المجذوب قد مات ، وكنت ممن شهد جنازته .

فأول أهل العلم بالتأويل ان ذلك الحذب الذي كان الناس يجذبون ذلك الميت دعاؤهم له ورغبتهم إلى الله فيه ، وأخذ ذلك الرجل بيد الميت هو دعاؤه له وثواب الخير الذي كان يعمل معه .

وروى مسلم بن الحجاج من حديث عبدالرحمن بن شماسه المهدي ، قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت ، فبكى طويلا ثم حوّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : ما يبكيك يا أبتاه؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك بكذا؟ قال فأقبل بوجهه وقال : إن أفضل ما نعدّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . اني كنت على أطباق ثلاثة ، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله ﷺ مني ، ولا أحب إلي أن أكون قد تمكنت منه فقتلته ، فلومت على تلك الحال لكنك من أهل النار .

فلما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك أبايك، فبسط يمينه فقبضت يدي. قال: مالك ياعمرو؟ قلت: أردت أن اشترط. قال: تشتط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله. وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالا له، فلوسئلت أن أصفه لم أطق ذلك لأنني لم أكن أملاً عيني منه إجلالا له، فلومت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم ولينا أشياء وما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مت فلا تصحبي نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا عليّ التراب شناً، ثم أقيموا حول قبري قدما ينحرو جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وانظر ماذا أراجع به رسل ربي (٣). قوله: حتى استأنس بكم: يريد أن يستأنس بدعائهم له وبذكرهم الله عز وجل عنده.

وروى أبو عبد الرحمن النسائي من حديث معقل بن يسار المزني عن النبي ﷺ أنه قال: اقرأوا يس على موتاكم (٤). فيحتمل أن تكون هذه القراءة عند موته، ويحتمل أن تكون عند قبره. ويروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها أنه أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة.

وقد روى إباحة القراءة عند القبر العلاء بن عبد الرحمن. ويروى أيضا أن ٤٥/أ أحمد بن حنبل رجع إلى هذا بعدما كان ينكره. وذكر أبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساوئهم (٥). وعن عائشة أيضا قالت: ذكر عند رسول الله ﷺ هالك بسوء، فقال:

(٣) رواه مسلم رقم ١٢١ في الأيمان. جامع الأصول ١٠٥/٩.
(٤) في جامع الأصول ٨٤/١١ أن الذي رواه أبو داود رقم ٣١٢١ في الجنائز. كما رواه أحمد ٢٦/٥.
(٥) أبو داود رقم ٤٩٠٠، والترمذي رقم ١٠١٩ جامع الأصول ٧٦٦/١٠.

ﷺ لا تذكروا هلكاكم إلا بخير^(٦)

وروى البخاري عنها أن النبي ﷺ قال: لا تسبوا الأموات فإنهم قد

أفضوا إلى ما قدموا^(٦)



ع

(٦) رواه البخاري ٢٠٦/٣ في الجنائز. والنسائي ٥٢/٤ و٥٣ جامع الأصول ٧٦٥/١٠.

الباب الثامن ذكر القبور

اعلم رحمك الله أن في القبر وظلمته وضيقه ووحشته، وطرح الميت فيه غير مؤسّد ولا ممهد، قد باشر الثرى وواجه البلى وترك دنياه للورى، ونبذ منها ما كلن في يديه بالعراء، مع حبيب تركه، وقريب أسلمه، ونصير أفرده وترك ما كان عهده، ما يفظم النفوس عن الشهوات، وإن كانت صعبة الفطام، ويقطعها عن اللذات وإن كان قطعها بعيد المرام، إذا بحث عن الحقيقة ونظر بعين البصيرة وسمع النداء من قريب.

بينما المرء في بُلْهَنِيَّة^(١) مرتكضا في أمنيته، غافلا عن يوم صرعته ومنيته، قد فتح للهوبابه، وأرسل عليه حجابيه، ولم يبال بمن لاهه في ذلك أوعابه، إذ هجمت عليه المنية فهتكت أستاره وكسفت أنواره، وطمست أعلامه وآثاره، فأخرجته من ذلك القصر المشيد والمنزل المنجد والمتاع المزخرف المنضد إلى حفرة من الأرض سوداء ضيقة الجوانب والأرجاء^(٢)، أعملوة من الفزع والرعب ما شاء.

فحذار رحمك الله حذار أن تنزع هذا المنزع، وبيدار^(٣) - عصمك الله - بدار أن تصرع هذا المصرع، فيفت في عضدك ويسقط في يدك، ويرمي بك عن أهلك وللدك في مهواة تزدحم فيها الأهوال، وتنقطع فيها الآمال، قد جمعت فيها جمعا ورصعت فيها رصعا، وتركت للهوام والدود طغماً ومرعى.

(١) بلهنية: رخاء العيش.

(٢) الأرجاء: النواحي.

(٣) بدار: اسم فعل بمعنى يادروسار.

وأنشدوا:

يا نائما والمنون يقضى
جاءك أمر وأي أمر
هل بعد هذا المشيب شيء
فليس ذا الأمر بالهويني^(٦)
من بعدما المرء في براح^(٧)
ساكن نفس قرير عين
إذ عصفت في ذراه ريد
فبات في أهله حصيدا
فعاد ذاك النعيم بؤسا
وسيق سوقا إلى ضريح
وبات للودود فيه طعاما
وليته لم يكن رهينا

وغائبا والحمام أوفى^(٤)
طم على غيره وعفى
غير تراب عليك يُحفى^(٥)
ولا بشيء عليك يخفى
يهتز تيتها به وظرفا
يرشف ثغر النعيم رشفا
ح تقصف كل الظهير قصفا
قد جعفته^(٨) المنون جعفا
وصار ذاك السكون رجفا
يرصف بالرغم فيه رصفا
وللهوام العطاش رشفا
بكل ما قد هفا وأهفا

ولعلك قد كنت في الدنيا ممن يشكو تبديل المنازل وإن كانت حسانا ويكثر فيه
تلونا وافتنانا ولا ترى لربك عز وجل فيها تفضلا ولا امتنانا.

فانظر الآن كم بين المنزلتين، وكم قدر ما بين الوحشتين إلا أن يدركك
فيض الرحمة، وتغشاك روائح المنة، فتتسع من القبر أقطاره وتمتد أنواره، ويكثر
مؤنسوه وزواره.

وأنشدوا في هذا المعنى:

من كان يوحشه تبديل منزله وأن يبدل منها منزلا حسنا

(٤) أوفى: أدرك.

(٥) يحفى: يوضع بكثرة ويبالغ في وضعه.

(٦) الهويني: السهولة.

(٧) براح: متسع.

(٨) جعفته: صرعته، قلعته.

ماذا يقول إذا ضمت جوانبها
 ماذا يقول إذا أمسى بحفرته
 هناك يعلم قدر الوحشتين وما
 يا غفلة ورماح الموت شارعة
 ولم أعد مكانا للنزولا ولا
 إن لم يجد من توالى جوده أبدا
 فيا إلهي ومزن (٩) الجود واكفة (٩)
 آنس هنالك يا رحمن وحشتنا
 نحن العصاة وانت الله ملجؤنا
 فكن لنا عند بأساها وشدتها
 عليه واجتمعت من هاهنا وهنا
 فردا وقد فارق الأهلين والسكنا
 يلقاه من بات باللذات مرتنا
 والشيب ألقى برأسي نحوه الرسنا
 أعددت زادا ولكن غرة ومنى
 ويعف من عفوه من طالبيه دنا
 سحا فتمطرنا الأفضال والمننا
 والطف بنا وترفق عند ذاك بنا
 وأنت مقصدنا الأسنى ومطلبنا
 أولى فمن ذا الذي بها يكون لنا

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل
 لحيته . فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتبكي من هذا؟
 فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن
 نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه .
 وسمعت رسول الله ﷺ يقول : ما رأيت منظرا قط إلا والقبر أفضع منه . ذكره
 الترمذي (١٠) .

وذكر الترمذي أيضا من حديث أبي سعيد الخدري قال : دخل رسول الله
 ﷺ مصلاه فرأى أناسا كأنهم يكثرون ، فقال : أما أنكم لو أكثرتم ذكر هادم
 اللذات لشغلكم عما أرى ، أكثروا ذكر هادم اللذات الموت ، فإنه لم يأت على
 القبر يوم إلا تكلم فيه ، فيقول أنا بيت الغربية ، أنا بيت الوحدة ، أنا بيت
 التراب ، أنا بيت الدود والهوام فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر مرحبا وأهلا ،
 أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إلي ، فأد وليتك اليوم وصرت إلي

(٩) المزن الواكفة : السحب المنهمة .

(١٠) أخرجه الترمذي رقم ٢٣٠٩ في الزهد ، وإسناده حسن . جامع الأصول ١١ / ١٦٥ .

فسترى صنعي بك، قال فيفسح له مد بصره، ويفتح له باب إلى الجنة، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحبا ولا أهلا، أما إن كنت لمن أبغض من يمشي على ظهري إليّ، فإذا وليتكَ اليوم وصرت إليّ فسترى صنعي بك، قال: فيلتئم عليه حتى يلتقي عليه وتختلف أضلاعه. قال: وقال رسول الله ﷺ بأصابع يديه، فأدخل بعضها في بعض وقال: ويقيض الله له سبعين تيناً^(١١) لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبت شيئاً ما بقيت الدنيا، فتنهشه وتحدشه حتى يبعث إلى الحساب قال: وقال رسول الله ﷺ إنها القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار^(١٢).

وروى أبو الحجاج الشامي قال: قال رسول الله ﷺ يقول القبر للميت إذا وضع فيه: ويحك يا ابن آدم ما غرك بي؟ ألم تعلم أني بيت الفتنة، وبيت الظلمة، وبيت الوحدة، وبيت الدود، ما غرك بي إذ كنت تمر بي فداداً^(١٣)، قال فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر فيقول: أرأيت إن كان ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ٤٦/أ؟ قال: فيقول القبر فإني إذن أعود عليه خضراً، ويعود جسده نورا، ويصعد روحه إلى رب العالمين.

ذكر هذا الحديث أبو أحمد الحاكم في كتاب الكنى، وذكره أيضا قاسم بن أصبغ.

قيل لأبي الحجاج: ما الفداد؟ قال: الذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، يعني الذي يمشي مشية المتبختر.

وقال مجاهد: أول ما يكلم ابن آدم حفرة، تقول أنا بيت الدود، وبيت الوحدة، وبيت الوحشة، وبيت الظلمة، وبيت الغربة، هذا ما أعددت لك يا ابن آدم، فماذا أعددت لي.

وقال بعض الحكماء: أربعة أبحر لأربعة: الموت بحر الحياة، والنفس بحر الشهوات، والقبر بحر الندامات، وعفو الله بحر الخطيئات.

(١١) التنين: بكسر التاء والنون وتشديدهما: الحية العظيمة.

(١٢) رواه الترمذي رقم ٢٤٦٢ في صفة القيامة. وإسناده ضعيف جامع الأصول ١١/١٧٠.

(١٣) الفداد: المتكبر، شديد الوطاء على الأرض.

وقال أبو الدرداء: ألا أخبركم بيوم فقري؟ يوم أنزل قبري .
 وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلا ويقول: يا أهل القبور مالكم إذا
 دعوتكم لا تجيبوني؟ ثم يقول: حيل بينهم والله وبين الجواب، وكأنني أكون
 مثلهم وأدخل في جملتهم، ثم يستقبل القبلة ويصلي حتى يطلع الفجر.
 وانشدوا:

يا نائما بالضريح هُبا	هاك نسيم الصباح هُبا
وكل من نام قد تشقى	وقام من نومه وهُبا
قم تروحه النهار طلقا	وصدره للأنام رحبا
والناس كل إلى هواه	حرك طرفا وسلَّ عضبا (١٤)
قم ويك طال ذا هجوع	وطال حزني له وأرسي (١٥)
كم ذا أنادي ولا يجيب	يجيب دامي الفؤاد صبا
ولو أنادي جهاد صخر	لرق لي لوعة ولبي
فقال لي ينطق اعتبارا	تفهمه الفتية الألبا (١٦)
يمنعني أن أجيب خطب	صير سلّم الخطوب حربا
أخرس مني الدَّ (١٧) خصما	وقاد مني أشم صعبا
فخل عني وعن جوابي	فبحر همي يعب عبا
ولتبك إن كنت ذا بكاء	نفسك ذنبا أتت فذنبا
فيا إلهي ومن إليه	مددت كفي رهبا ورغبا
بدد لحمي ورض عظمي	وردني للهوام نهبا
وروعة للنشور عظمي	قدت فؤادي خوفا ورعبا
رحمك في بائس فقير	قد طاف شرقا وطاف غربا
فلم يجد حاجة تقضي	ولا رأى دعوة تلبى

(١٤) العضب: السيف القاطع.

(١٥) أرسي: زاد.

(١٦) الألبا: جمع لبيب وهو الذكي.

(١٧) الدَّ: شديد العداوة.

إلا ومن افقكم حياها تسكب فوق الأنام سكبها
 فاغفر إلهي ذنوب عبد تبت يداه بين ثنا
 إن لم ينل من رضاك حظاً ولم يصب من جذاك شرباً
 فالحمد في ذاكم وفي ذا نال أجاجا أو نال عذبا
 قال عمر بن عبدالعزيز لبعض جلسائه: يافلان لقد أرتق البارحة تفكرا في القبر
 وساكنه انك لو رأيت الميت في قبره بعد ثلاث لاستوحشت منه بعد طول الأنس
 به، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصيد، وتخرقه الديدان، مع تغير
 الريح وتقطع الأكفان، وكان ذلك بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب ثم
 شهق شهقة ثم خر مغشيا عليه.

حدثنا^(١٨) سليمان بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن زكريا العلائي، قال:
 أخبرنا معدي بن سابق البهدي، قال [بلغنا] أن عمر بن عبدالعزيز شيع جنازة،
 فلما انصرفوا تأخر عمر عنها وأصحابه، فقال له أصحابه يا أمير المؤمنين أنت لم
 تأخرت عنها وتركتها؟ فقال: نعم ناداني القبر من خلفي، يا عمر بن عبدالعزيز
 ألم تسألني ما صنعتُ بالأحبة؟ قلت: بلى، قال: خرقت الأكفان ومزقت
 الأبدان، ومصصت الدم وأكلت اللحم، ألا تسألني ما صنعت بالأوصال؟
 قلت بلى، قال: نزعت الكفين من الكوعين، وكذلك ٤٦/ب الفخذين من
 الركبتين، والركبتين من الساقين، والساقين من القدمين.

ثم بكى عمر وقال: ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير،
 شابها يهرم، وحيها يموت، ولا يغركم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدارها،
 والمغرور من اغتربها، أين سكانها الذين بنوا مرابعها وشققوا أنهارها وغرسوا
 أشجارها؟ وأقاموا فيها أياما يسيرة وغرتمهم بصحبتهم وغروا بنشاطهم فركبوا
 المعاصي، إنهم كانوا والله في الدنيا مغبوطين بالمال على كثرة المنع عليه،
 محسودين على جمعه، ما صنع التراب بأبدانهم، والرمل بأجسامهم والديدان
 بعظامهم وأوصالهم؟ وإذا مررت فنادهم إن كنت مناديا، وادعهم إن كنت لا بد

(١٨) هاتان الحكایتان عن عمر بن عبدالعزيز من هنا إلى قوله: وفي بعض الخطب الروية سقط
 من ش وزوانفردت به نسخة ي.

داعيا، ومر بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم وسل غنيهم ما بقي من غناه، وسل فقيرهم ما بقي من فقره، وأسألم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانوا بها ينظرون، وسلهم عن الأعضاء الرقيقة والوجوه الحسنة والأجساد الناعمة ما صنعت بها الديدان، محت الألوات وأكلت اللحمان، وعفرت الوجوه ومحت المحاسن، وكسرت الفقار وأبانت الأعضاء ومزقت الأشلاء.

قد حيل بينهم وبين العمل، وفارقوا الأحبة، فكم من ناعم وناعمة أصبحت وجوههم بالية، وأجسادهم من أعناقهم بائنة^(١٩) وأوصالهم متمزقة، وقد سألت الحدق على الوجنات^(٢٠) وامتلات الأفواه دما وصديدا ودبت دواب الأرض في أجسامهم، وتفرقت أعضاؤهم، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيرا حتى عادت العظام رميما، قد فارقوا الحداثق فصاروا بعد السعة إلى المضايق، قد تزوجت نساؤهم وترددت في الطرق أبناؤهم، فمنهم والله الموسع له في قبره الغض الناعم فيه، المتنعم بلذته، فيا ساكن القبر ما الذي غرك في الدنيا؟ هل تظن أنك تبقى أو تبقى لك؟ أين دارك الفيحاء ونهرك المطرد، وأين ثمرتك الحاضر ينعمها؟ وأين رفاق ثيابك؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك؟ هيهات هيهات يا مغمض الوالد والأخ وغاسله، يا مكفن الميت وحامله، يا مدليه في قبره وراجل عنه.

ليت شعري كيف نمت على خشونة الثرى؟ ياليت شعري بأي خديك بدأ البلى؟ يا مجاور الهلكى صرت في محلة الموتى.

ليت شعري ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا؟ وما يأتيني به من رسالة ربي. ثم أنشد.

تغربها يفني وتشغل بالصبا لقد غرب بالذات في النوم حام
نهارك يامغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم

(١٩) بائنة: مفترقة، مقطوعة.

(٢٠) الوجنات: جمع وجنة وهي رأس الخد.

وتعمل فيما سوف تكره حبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم
٤٧/أ ثم انصرف فما بقي بعد ذلك إلا جمعة .

حدثنا عبد الله بن محمد قال : حدثنا محمد بن الحسين الحضرمي قال :
أخبرنا أسد بن زيد قال : كنا مع عمر بن عبدالعزيز في جنازة ، فلما أن دفن الميت
ركب بغلة له صغيرة ثم جاء إلى قبر فركز عليه المقرعة فقال : السلام عليك يا
صاحب القبر ، قال عمر : فناداني مناد من خلفي : عليك السلام يا عمر بن
عبد العزيز ، عم تسأل؟ فقلت : عن ساكنك وجارك ، قال : أما البدن فعندي ،
وأما الروح فعرج به إلى الله عز وجل ، وما أدري أي شيء حاله ، قلت : أسألك
عن ساكنك وجارك ، قال : أسلت المقلتين على الخدين ، ومزقت الأكفان ،
وأكلت الأبدان ، ثم ذكر نحوه وزاد ، فلما ذهبت ألقى ناداني : يا عمر عليك
بكفن لا يبلى ، قلت : وما كفن لا يبلى؟ قال : اتقاء الله والعمل الصالح .

وفي بعض الخطب المروية : يا ابن آدم لا يغرنك ارتفاع ذكرك ونفاذ
أمرك ، وتشيد قصرك مع ما جمعت فيه من الظباء الشرد والأوانس النهد ، والمتاع
المزخرف المنجد ، فإنك تخرج منه بالرغم والأمر الجزم إلى بيت الحجارة
والرضم ، فتغتسل فيه بصديك ، وتأنس فيه بحشراتك ودودك ، إلى أن تبلغك
الرجفة لهلاك هذا المعمور ، ثم الصيحة ليوم الشور وبعثرة القبور ، فتخرج
بالأمر الكبار إلى دارك دار القرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وأشد بعضهم :

من كان مسكنه قصرا يشيده فإن مسكنه من بعد ذا جدت^(٢١)
ومن تكن فرشته فيها مرقشة ففرشه في ضريح بعدها الرث^(٢٢)
ومن تكن آنسوه خردا^(٢٣) لعبا فآنسوه هناك الدود والعث^(٢٤)
ومن غدا وسط نادشعره جزل فإن آخره التمزيق والشعث^(٢٥)

(٢١) الجدت : القبر .

(٢٢) الرث : جمع رثة وهي الخلقان .

(٢٣) الخرد : الفتيات الأبقار ذوات الحياء .

(٢٤) العث : جمع عثة وهي السوسة أو الأرضة .

(٢٥) الشعث : التفرقة والانتثار .

وليته مع هذا لو أقام غدا ولكنه لمهول بعد ينبعث
 وليس ذا الأمر مما استطاع له وصف ولكنها الأمثال تعثرث (٢٦)
 فبالبحر مضربه لذي الندى مثل والنار تذكرها إذ يذكر الغرث (٢٧)

وقيل لبعض الزهاد: ما أبلغ العظا؟ فقال: النظر إلى محلة الأموات.
 يروي (٢٨) أن الاسكندر مر بمدينة قد ملكها عدة ملوك، وبادوا، فقال:
 هل بقي من نسل هؤلاء الملوك أحد؟ ف قيل له: ما بقي منهم إلا رجل واحد
 يكون في هذا المقابر، فدعا به، فلما حضر قال له: ما الذي حملك على لزوم
 المقابر؟ قال: أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت الكل
 سواء، فقال له الاسكندر: هل لك أن تتبني فأحيي بك شرف أباتك إن كانت
 لك همة؟ فقال: إن لي همة عظيمة، فإن كان بغيتي عندك تبعتك، قال: ما
 بغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب ليس معه هرم، وغنى ليس معه فقر،
 وسرور ليس معه مكروب، قال: ليس ذلك عندي، فقال: وأي خير أرجوه عندك
 إن لم يكن عندك هذه الأشياء فامض لشأنك ودعني أطلب ذلك ممن يملكه ومن
 هو عنده، ثم عاد إلى مكانه.

ومر رجل مسافر بغلام في صحراء، فقال له: يا غلام أين العمران؟ فقال
 له: اصعد الراية تشرف على العمران، فصعد، فأشرف على قبور، فرجع
 إليه، فقال: سألتك عن العمران فدللتني على القبور؟! فقال: إني رأيت أهل
 هذه الدنيا ينقلون إلى تلك، ولم أر أحدا من تلك ينقل إلى هذه، وإنما ينتقل
 من الخراب إلى العمران، ولو سألتني عما يواريك ويواري دابتك لدللتك عليه.
 وكان يزيد الرقاشي رحمه الله يقول: أيها المقبور في حفرة المستخلي في
 القبر بوحدته، المستأنس في بطن الأرض بعمله، ليت شعري بأي أعمالك
 استبشرت؟ وبأي أحوالك اغتبطت، ثم يبكي حتى يبيل عباةته، ثم يقول:

(٢٦) تعثرث: فعله عرث بمعنى انتزع.

(٢٧) الغرث: الجوع.

(٢٨) من هنا إلى قوله: لدلتك عليه انفردت به نسخة «ل».

استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط بإخوانه المعاونين له على طاعة الله عز وجل .

وكان إذا رأى القبور يخور كما يخور الثور .

ومر داود الطائي رحمه الله بامرأة تبكي على قبر، وهي تقول :

عدمت الحياة فلا نلتها إذا أنت في القبر قد وسدوكا
وكيف ألد بطعم الكرى وها أنت في القبر قد أفردوكا

ثم قالت : يا أبناه بأي خديك بدأ الدود أولاً؟ قال : فخر داود مغشياً عليه .

وقال حاتم الأصم : من مرفئ القبور ولم يتفكر في نفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم .

وعن صلة بن أشيم أنه دفن أخاه له ، ثم وقف على قبره وقال :

فإن تنج منه تنج من ذي عزيمة وإلا فإني لا أخالك (٢٩) ناجياً
وكان بكر العابد يقول لأمه : يا أماه ليتك كنت بي عقيماً، وإن لابنك في القبر حسبا طويلاً، وإن له من بعد ذلك رحيلاً .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام ، فانظر من أين تجيبه ، إن أجبتك من دنياك دخلتها وإن أجبتك من قبرك منعته .
وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القبور قال : ما أحسن ظواهرك ، إنما الدواهي في بواطنك .

وكان عطاء السلمي إذا جن (٣٠) الليل يخرج إلى القبور، فيقول : يا أهل القبور ، متم فواماتاه، وعانيتم أعمالكم فواعملاه ، ثم يقول : غدا يكون عطاء في القبور، فلا يزال ذلك دأبه إلى الصبح .
وقال سفيان الثوري رحمه الله : من أكثر ذكر القبر وجدده روضة من رياض الجنة ،

(٢٩) لا أخالك : لا أراك ولا أظنك .

(٣٠) جنّ الليل الناس : سترهم وأظلم عليهم .

ومن غفل عن ذكره وجدته حفرة من حفر النار.

وقال أحمد بن حرب رحمه الله: تتعجب الأرض ممن يمهد مضجعه، ويسوي فراشه للنوم، تقول: يا ابن آدم ألا تذكر طول رقادك في جوفي وما بيني وبينك شيء؟! .

وأنشد بعضهم:

ياليتني والأمني غير طائلة
علمت أي بلاد الله مضطجعي
لعلني أن أشوب (٣١) أدمعي بدمي
وأن أسوي من تربائه بيدي
هيئات هيئات ما للقبر تسوية
إلا تعلل مشغوف بها شغلا
إذا تباين عني الروح وانفصلا
فيه واشرح من حزني به جُملا
حتى يكون وثير (٣٢) المس معتدلا
إلا اليقين وإلا القول والعملا

ومر (٣٣) علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمقابر، فوقف عليها، فقال السلام عليكم أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع وبكم عما قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي في جميع أحواله عن الله تعالى.

ثم قال: يا أهل القبور، أما الزوجات فقد نكحت وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، هذا خير ما عندنا، فما خير ما عندكم، ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما أنهم لو تكلموا لقالوا وجدنا خير الزاد التقوى. ويروى أن رجلا دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فرآه قد تغير لونه من كثرة العبادة، واستحالت صفته، فجعل يتعجب من تغير لونه، فقال له عمر: يا ابن أخي وما تعجبك مني؟ فكيف لورأيتني بعد دخول قبري بثلاث، وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين، وتقلصت الشفتان عن

(٣١) اشوب: أمزج وأخلط.

(٣٢) وثير: لين، ناعم.

(٣٣) من هنا إلى: خير الزاد التقوى، انفردت به نسخة «ل».

الأسنان، وخرج الصديد والدود من المناخر والضم، وانتفخ البطن فعلا على الصدر، وخرج الصلب عن الدبر؟! لرأيت إذ ذاك مني أعجب مما رأيت الآن .
واعلم رحمك الله أنه من أقام هذا الخيال نصب عينيه، وتفكر في الميت وما يؤول إليه، ثم نظر فيما يقدم بعد ذلك عليه، وعلم أن جسمه الغض (٣٤) وبدنه اللين سيترح في حفرة تقطع أوصاله وتغير أحواله، ثم يتبين بعد ذلك مآله، ويُطلب بكل ما عمله وفاله، لم يشغل بميت باله، ولم يبك إلا لنفسه، لا له .
وأنشدوا:

وأرسل في شجواهموم عناني
كما هو من كأس الشجون سقاني
أعالج قلبا دائم الخفقان
على حالة فيها وشيك أراي

لمن جدت أبصرته فشجاني
سفكتُ عليه أدمعي فسقيته
وقفت به حيران وقفة هائم
وما بي من في القبر لكن رأيتَه
وأنشدوا أيضا:

ملأت صدري شجوا وأسى
بعد حسن وجمال وضيا
بعد زهو وشباب وانتشا (٣٥)
روعة الحرب بروعات الثرى
بسيوف الهند رعبا والقنا (٣٦)
فتكّت قبل بأساد الشرى
تنفر الأنفس منها إذ ترى
ألبيت جسمي أثواب الضنا
ما بذأ بأس نوارسلت الدما
علقت مني بأثناء الحشا

لمن الأقبر في تلك الرى
لمن الأوجه فيها كسفت
لمن الأجسام فيها بليت
ومن الفرسان فيها قد نسوا
ورموا إذ هتف الموت بهم
ومن الخُردّ فيها شدّ ما
نظر الموت إليها فغدت
لمن الأقبر في تلك الرى
ياجفوننا أرسلت أدمعها
صاح يا صاح ونيران الجوى (٣٧)

(٣٤) الغض: الطري .
(٣٥) الانتشاء: السكر والمراد فرحة الشباب .
(٣٦) القنا: جمع قناة وهي الرمح .
(٣٧) الجوى: شدة الوجد من حزن أو عشق، داء في الصدر .

ليس والله لهم هذا البكا
فكأنى اليوم فيهم أو غدا
دائم الحسرة مقطوع العرى
ما ترى في عبد سوء ما ترى
وطغى ثم طغى ثم طغى
كل شيء وهو رب لا يرى
دفعه تنزله قعر لظى
يلتوي في يده جبل الرجا
يقصد اليوم له أو يرتجى

لا تظنن بكائي لهم
إنما أبكي لنفسي لا لهم
هامد الجمرة موهون القوى
رب يارب يارب الورى
كفر الإحسان قدما وبغى
ما ترى في أمره يا من ترى
ليس إلا عفوك المرجو أو
وعياذا بك يا مولاي أن
وإذا اسلمته رب فمن

ولعلك يا هذا الباكي على ميته لا تفرغ من بكائك عليه حتى ينزل بك
ما نزل به، فتكون قد ضيعت وقتك بسببه، ولم تشف صدرك من وصبه، ولا
قضيت ببكائك جميع أربه، كما روى عن عبد الملك بن قريب الأصمعي قال:
رأيت بالبادية امرأة على راحلة تطوف حول قبر تبكي وتتشد وتقول:

قد كان منك تطاول الأمر
كذبوا وقبرك ما لهم عذر
صلى الاله عليك يا قبر
ألا يمر بأرضه القطر^(٤٠)
وليورقن بقبرك الصخر
منك الجبال وخافك الذعر
وإذا انتبهت فوجهك البدر
إلا قتلت لفاتي الوتر^(٤٢)

يا من بمقلته^(٣٨) أزها الدهر
زعموا قُتِلت وما لهم خبر
يا قبر سيدنا المجن^(٣٩) سباحة
ما ضر لحدا أنت ساكنه
فلينبعن سماح جودك في الثرى
وإذا غصبت تصدعت فرقا^(٤١)
وإذا رقدت فأنت منتبه
والله لو بك لم أدع أحدا

(٣٨) المقلّة: العين.

(٣٩) المجن: الحامي، الواقي.

(٤٠) القطر: المطر.

(٤١) الفرق: الخوف.

(٤٢) الوتر: الانتقام.

قال الأصمعي : فأعجبني شعرها ، فدنوت منها لأكلمها وأسألها عن أمرها ، فإذا هي قد سقطت ميتة .

وقال ميمون بن مهران رحمه الله : خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقابر ، فلما نظر إليها بكى ، ثم قال وأقبل علي : يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأن لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وطيب عيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلاث (٤٣) ، واستحكّم فيهم البلى وأصابت الهوام في أجسامهم مقيلاً؟! ثم بكى وقال : والله لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله عز وجل .

وقال ثابت البناني : دخلت المقابر ، فلما أردت الخروج منها إذا بصوت يقول : يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها ، فكم من نفس معذبة فيها .

ويروى أن فاطمة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم نظرت إلى جنازة الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقالت :

وكانوا رجاءً ثم عادوا رزيةً لقد عظمت تلك الرزايا وجلت (٤٤)
ثم ضربت على قبره فسطاطاً (٤٥) وأقامت عليه سنة ، فلما مضت السنة
قلعوا الفسطاط ليدخلوا المدينة ، فسمعوا صوتاً من جانب البقيع (٤٦) ، - يعني
المقابر - يقول : هل وجدوا ما طلبوا؟ فسمعوا صوتاً من الجانب الآخر يجاوبه : بل
يشسوا فانقلبوا .

ويروى أن بعض المتعبدين أتى قبراً كان يألف صاحبه ، فأنشأ يقول :

مالي مررت على القبور مسلماً قبر الحبيب فلا يرد جوابي
فأجبت مالك لا تحيب منادياً أمكّلت بعدي خلة الأصحاب
أكل التراب محاسني فنسيتمكم وحجبت عن أهلي وعن أحبائي
قال : فهتف بي هاتف يقول :

(٤٣) المثلاث : العبر ، العقوبات .

(٤٤) جلت : عظمت .

(٤٥) الفسطاط : الخيمة .

(٤٦) البقيع : مقبرة المدينة المنورة .

قال الحبيب وكيف لي بجوابكم وأنا رهين جنادل و تراب
فعلیکم مني السلام تقطعت مني ومنکم عقدة الأسباب
وقال أبو موسى التيمي: توفيت النوار امرأة الفرزدق، فخرج في جنازتها
وجوه أهل البصرة وقراؤها، وفيهم الحسن بن أبي الحسين البصري، فقال
الحسن للفرزدق: يا أبا فراس ما أعددت لهذا اليوم؟

فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة، وخمس نجائب لا يدركن
- يعني الصلوات الخمس - فلما دفنت النوار قام الفرزدق على قبرها وقال:

أخاف وراء القبر إن لم يعافني أشد من القبر التهابا وأضيقا
إذا قادي يوم القيامة قائد عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا
يساق إلى نار الجحيم مسربلا سرابيل قطران لبوسا محرقا
إذا شربوا فيها الحميم رأيتهم يذوبون من حر الجحيم تمزقا

وقال مالك بن دينار: أتيت القبور يوما، فقلت فيها بيتين:

أتيت القبور فناديتها وأبن المعظم والمحتقر
وأين المدل (٤٧) بسلطانه وأين العزيز إذا ما افتخر

قال: فنوديت من بينها، أسمع صوتا ولا أرى شخصا، وهو يقول:

تفانوا جميعا فلا مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر
وصاروا إلى مالك قاهر عزيز مطاع إذا ما أمر
تروح وتغدو بنات الثرى وتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا أمالك فيما ترى معتبر
لقا. قلد القوم ما قدموا فإما نعيم وإما سقر
قال مالك: فرجعت وأنا أبكي.

وأنشد بعضهم:

قف بالقبور بأكباد مصدعة ودمعة من سواد القلب تنبعث

(٤٧) المدل بسلطانه: المفتخر به، الواثق، الشجاع.

ثغر النعيم وما في ظله مكثوا
عليه فيها وما من أجله ارتبثوا (٤٨)
طول المقام يبطن الأرض واللبث
نهشا نزول له الأعضاء والنجث (٤٩)
هل كان فيهن ذا التغيير والشعث
ولن يجيب وأنى ينطق الجحدث
فإنه الجحد لا هزل ولا عبث
ومن أمامك فيه الروع والجأث (٥٠)

وسل بها عن أناس طالما رشفوا
ماذا لقوا في خباياها وما قدموا
وعن محاسنهم إن كان غيرها
وما لهم حشرات الأرض تنهشهم
وتلكم الفتيات إذ طرحن بها
فإن يجيبك على لأي مجيبهم
فانظر مكانك في أفناء ساحتهم
واعمل لمصرع يوم هال أوله

ولعلك (٥١) أيضا من يرفع قبروليهِ ويزخرفه ويشيده، ويشتغل بظاهره ويغفل عن
باطنه، ولا يدري هل أبيض على من فيه أو أسود، وهل انفرج له أو انسد؟ وما
ساكنه؟ أشقي أم سعيد، غوي أو رشيد؟ وأحسن عنده أن يتصدق بتلك النفقة
عنه، ليزداد بها حسنة، أو يحبط عنه بها سيئة.
وأنشدوا:

هل وجدت اليوم فيه من مزيد
هو في الظاهر تزويقا وشيد
نيرات أو بأعمالك سود
أو سعيـر ما لها فيه نخود
أشقي أنت فيه أم سعيد
وسع العالم إحسانا وجود
طرقت دارك بالويل البعيد

ليت شعري ساكن القبر المشيد
وهل الباطن فيه مثل ما
وهل الأركان منه بالتقى
وهل المضجع فيه لين
ليت شعري ساكن القبر المشيد
أقرب أنت من رحمة من
أم بعيد أنت منها فلقد

(٤٨) ارتبثوا: تفرقوا واختلّفوا.

(٤٩) النجث: غلاف القلب، ونجث على وزن ثلث وربيع.

(٥٠) الجأث: الفزع. وفي الحديث أنه عليه السلام رأى جبريل، قال: فجئنت منه فرقا حين
رأيت، أي ذعرت.

(٥١) من هنا إلى: واعلم رحمك الله انفردت به نسخة «ل».

ولقد حل بأرجائك ما ضاق عنه كل ما في ذا الوجود
أيا الغافل مثلي وإلى كم تعامى وتلوى وتحيد
ادن فاقراً فوق رأسي أحرفاً خرجت وبحك من قلب عميد
صرعته فكرة صادقة وهموم كلما تمضي تعود
وندامات لأيام مضت هو منها في قيام وقعود
وغدا ترجع مثلي فاتعظ بي وإلا فامض واعمل ما تريد
قد نصحناك فإن لم تره سيراه بصر منك حديد

واعلم رحمك الله أن الشيء الممكن وجوده لا يعرف مقداره على الحقيقة إلا إذا عدم وفقد، وطلب فلم يوجد، كما قال القائل:
مر الشباب ولم أقدر أراجعه ولم أحييه إلا بعدما انصرفا
والمرء يجهل قدر الشيء يمكنه حتى إذا فاته إمكانه عرفا
ألا ترى رحمك الله أن الصحة لا يعرف مقدارها على الحقيقة إلا
المرضى، والعافية لا يعرف مقدارها إلا المبتلى، فكذلك الحياة لا يعرف
مقدارها إلا الموتى، لأنهم قد ظهرت لهم الأمور، وانكشفت لهم الحقائق،
وتبدت لهم المنازل وعلموا مقدار الأعمال الصالحة، إذ ليس ينفق هناك إلا عمل
صالح زكي، ولا يرتفع هناك إلا عبد تقي وكلما ازداد هنا عملاً صالحاً كان هناك
أرفع درجة واشرف رتبة، وأكثر وجاهة، وكلما ازداد في الدنيا فضيلة كان أقرب
إلى الله وسيلة.

فلما استبان لهم ذلك، وعلموا مقدار ما ضيعوا، وقيمة ما فيه فرطوا ندموا
وأسفوا، وودوا لو أنهم إلى الدنيا رجعوا، وإلى حالتهم الأولى ردوا، وكل على
حاله، فالذي عمل صالحاً يود أن لورجع إلى الدنيا فازداد من عمله الصالح،
وأكثر من متجره الربح.

والمقصر يود لو ردّ فاستدرك ما فات، ونظر فيما فرط فيه.

فالمفرط المهمل بالجملة يكون تمنيه الرجوع أكثر وحرصه على الإقالة
أشد، كل يتكلم عن حاله، ويخبر عما هو فيه، حتى قال الشهيد الذي قتل في

سبيل الله لما قيل له: ما تشتهي؟ قال: أريد أن أرجع إلى الدنيا فأقاتل فأقتل مرة أخرى، وذلك لما يرى من فضل الشهادة وازدحام الحور العين عليه حال قتله.

وقال غيره: «رب ارجعون لعلني أعمل صالحا فيما تركت» وقالوا: ياليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل».

وقال: ﷺ ما من أحد يموت إلا ندم، قالوا: وما ندامته يا رسول الله؟ قال: إن كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع. أخرجه الترمذي (٥٢).

ويروى أن رجلا جاء إلى القبور وصلى ركعتين، ثم اضطجع على شقه فنام، فرأى صاحب القبر في المنام، فقال له: يا هذا إنكم تعملون ولا تعلمون، ونحن نعلم ولا نعمل، ولأن تكون ركعتك في صحيفتي أحب إليّ من الدنيا وما فيها.

وقال بعض الصالحين: مات أخ لي في الله، فرأيته في النوم فقلت له: يا فلان ما فعل الله بك عشت الحمد لله رب العالمين قال لي: لأن أقدر- يعني علي أن أقول الحمد لله رب العالمين- أحب إليّ من الدنيا وما فيها، ثم قال: ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإن فلانا جاء فصلى ركعتين، لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إليّ من الدنيا وما فيها.

ألا ترى- رحمك الله إلى ندمهم على تفریطهم، وتأسفهم على تضييعهم، ندموا والله حيث لا ينفع الندم، وطلبوا ما لا يمكن، وسألوا فيما ٤٩/أ لا يجوز فتركوا على حالهم، ولم يسعفوا في سؤلهم، وبقي كل واحد منهم فيما هو فيه.

ولما أشرف بعضهم على الآخرة، وأخذ في الانحدار إلى أوديتها والتدلي في مهاويها، وأراد التمسك فلم يمكنه ذلك، وأراد التثبيت فلم يقدر عليه، والرجوع فلم يجد إليه سبيلا، أمر أن يكتب على قبره كذا، ويرسم عليه كذا، ليكون تذكرة لمن رآه، وموعظة لمن مر به، كما قال القائل.

(٥٢) الترمذي رقم ٢٤٠٥ في الزهد. وإسناده ضعيف. جامع الأصول ١١/١٨٠.

أبها المشي بين القبور غافلا عن حقيقة المقبور
 أنا ميت كما تراني طريح بين أطباق رزمة^(٥٣) وصخور
 ادن مني أنبيك عني ولا ينبيك عني مثل خبير
 أنا في بيت غربة وانفراد مع قربي من جيرتي وعشيري
 ليس لي فيه مؤنس غير سعي من صلاح سعيته أو فجور
 وكذا أنت فاتعظ بي وإلا فعذيري منك الغداة عذير

فمن رأى قبرا فإنها رأى واعظا يعظه، ومذكرا يذكره، فإن كان القبر ساكتا فإنه ناطق بلسان الحال، ومفصح بما يكون منك في المأل، فكأنه إنما يخاطبك إنسان ويبين لك عاقبتك، ويقول لك: يا هذا كنت حيا مثلك وقد مت، وكذلك أنت تموت، فضيقت أمر ربّي وندمت، وكذلك إن ضيقت أمر ربك ستندم، كما قال القائل:

ألا قل لماش على قبرنا غفول عن أشياء حلت بنا
 سيندم يوما لتفريطه كما قد ندمننا لتفريطنا
 فويحك كفت خطام الهوى وقدمّ جيلا تفرّز بالمنى
 والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، وإنما هي ساعة واحدة وإن طال المدى وامتد العمر واتصلت الأيام، كما قال القائل:

وإنما عمرك المرجى هذا الذي نلته كساعة
 وقال الأصمعي: أصيب حصير حول الحيرة أدرج فيه رجل عليه خلقان، وعند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا عبد المسيح بن حيان بن نفيلة:

حلبت^(٥٤) الدهر أشطره حياتي ونلت من المنى فوق المزيد
 وكافحت الأمور وكافحتني فلم أخضع لمعضلة كؤود
 وكدت أنال بالشرف الثريا ولكن لا سبيل إلى الخلود

(٥٣) الرزمة: مكان مرتفع من الأرض دون الهضبة، وفي الحديث: لما نزل وانذر عشيرتك الأقربين أتى رزمة جبل فعلا أعلاها. اللسان - رضم.
 (٥٤) حلبت الدهر أشطره: أي جربت أموره خيرا وشرها. الأشطر: اخلاف الناقة.

وحدثني أبو الطاهر السلفي نزيل الاسكندرية فيما أذن لي أن أحدث به
عنه بإسناده إلى وهب بن منبه قال: أصيب على قبر إبراهيم الخليل مكتوبا
خلفه على حجر:

ألهى جهولا أمله يموت من جاء أجله
وكيف يبقى آخر قد مات عنه أوله
ومن دنا من حتفه (٥٥) لم تغن عنه حيله
ووقع في كتاب المجالسة لأبي بكر أحمد بن مروان المالكي الدينوري
ووجد على قبره مكتوبا:

يا أيها الناس كان لي أمل
فليتق الله ربه زجل
ما أنا وحدي نقلت حيث تروا
وعلى آخر مكتوبا:

تناجيك أجداث وهن سكوت
أيام جمع الدنيا لغير بلاغه
وسكانها تحت التراب خفوت
ومن تجمع الدنيا وانت تموت
ووجد على آخر مكتوب:

وقفت على الأحبة حين صُفِّتْ
فلما أن بكيت وفاض دمعي
قبورهم كأفراس الرهان
رأت عيناي بينهم مكان
ومما يذكر أنه وجد شعر قديم بالشام مكتوبا على قبر، وقيل إنه على قصر
من قصور اليمن:

ماتوا على قلل (٥٦) الأجل تحرسهم
واستنزّلوا بعد عز من معاقلهم
غلب (٥٧) الرجال فلم تمنعهم القلل
وأنزلوا حفرة يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دُفِنوا
أين الوجوه التي كانت منعمة
من دونها تضرب الأستار والكلل

(٥٥) حتفه: هلاكه، موته.

(٥٦) قلل الأجل: أعالي رؤوسها.

(٥٧) غلب الرجال: جمع أغلب وهو غليظ العنق، والمراد العظاء.

فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
لطال ما أكلوا دهرًا وما نعموا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
قال أبو القاسم محمد بن سعد: رأيت قبرًا في بستان كثير النخل والرمان وأصناف
الشجر، وعليه مكتوب:

كم ساكن في حفرة يلى جديد جماله
ترك الأحبة بعده يتلذذون بماله

وقال جعفر بن محمد المستملي عن أبيه: قرأت على قبر:

ما حال من سكن الثرى ما حاله أمسى وقد صرمت (٥٨) هناك حباله
أضحى ولا روح (٥٩) الحياة يصيبه يوماً ولا لطف الحبيب يناله
أضحي وحيداً موحشاً متفرداً متشتتاً بعد الجميع عياله
أمسى وقد درست محاسن وجهه وتفرقت في قبره أوصاله
واستبدلت منه المجالس غيره وتقسمت من بعده أمواله
هل من قبيل (٦٠) تعلمون مكانه سلمت على حدث الزمان رجاله
قال: وقرأت على قبر أيضاً:

يا باكي الميت على قبره امض ودعه سوف تسلاه
من عاين الموت فذاك الذي لم تر مثل الموت عيناه
كم من شقيق لم يجد غير أن أغمض من يهوى وسجّاه (٦١)
وكم محب لحبيب إذا سوى عليه اللحد خلاه
ووجد على قبر مكتوباً:

الموت أخرجني من بيت مملكتي والترب مضطجعي من بعد تشرifi
لله عبد رأى قبري فأعبره (٦٢) وخاف من دهره ريب (٦٣) التصاريف

(٥٨) صرمت: قطعت.

(٥٩) روح: راحة.

(٦٠) قبيل: جماعة.

(٦١) سجّاه: مد علوه الثوب وغطاه.

(٦٢) أعبره: اعطاه العبرة والعظة، أو جعله يبكي بعبره أي بدمعه.

(٦٣) ريب التصاريف: أحداث الدهر.

هذا مصير بني الدنيا وإن نعموا
استغفر الله من جرمي ومن زلي

فيها وغرهم طول التساويف (٦٤)
وأسال الله فوزا يوم توقيف

ووجد على آخر مكتوبا:

قف واعتبر فكان قد حلت هذا المحللا
هذا مكان يساوي فيه الأعر الأذلا
ما كان لي من صديق إلا جفاني وملا
وما جفاني ولكن طال المدى فتسلى

وعلى قبر أبي عامر بن شهيد مكتوب، وهو مدفون بإزاء صاحبه أبي
مروان الرجال، وكأنه إنما يخاطبه، وقد دفنا في بستان كانا كثيرا ما يجتمعان فيه:
يا صاحبي قم فقد أطلنا أنحن طول المدى هجود
فقال لي لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصعيد (٦٥)
تذكر كم ليلة نعمنا في ظلها إذ الزمان عيد
وكم سرور همي (٦٦) علينا سحابه ثرة (٦٧) يجود
كل كأن لم يكن تقضى وشؤمه حاضر عتيد
حصّله كاتب حفيظ وضمّه صادق شهيد
يا جسرتا إن نكبتنا (٦٨) رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فأنت مولى قصّر في حقه العبيد

ورأيت على قبر أحد بني حبيب بإشبيلية مكتوبا في لوح رخام:

عمّرت خمسين واثنتين بي حالة لم تقرّ عيني
أطيع دنيا دُفعت عنها إلى التي آذنت بحيني (٦٩)

(٦٤) التساويف: جمع تسويف وهو التأجيل بأن يقول سوف أفعل.

(٦٥) الصعيد التراب.

(٦٦) همي: نزل.

(٦٧) ثرة: السحاب الثر: غزير المطر.

(٦٨) نكبتنا: عدلت عنا، تحجبنا واعتزلتنا.

(٦٩) الحين: بسكون الياء: الهلاك، المحنة.

وحيل ما بينهم وبيني
ليس كبين الحياة بيني
من بعد خمسين واثننتين
فسرني أن قضيت ديني

لا يمنع الموت حجاب ولا حرس
يا من عليه يعدّ اللفظ والنفس
وانت دهرك في اللذات تنغمس
ولا الذي كان منه العلم يقتبس
عن الجواب لسانا ما به خرس
فقبرك اليوم في الأجداث مندرس
طبيب عصره أن يكتب على قبره:

وأبصر مكانا دفعنا إليه
كأني لم أمش يوما عليه
فها أنا قد صرت رهنا لديه

عن ذنوب العالمينا
تركت قلبي حزينا
في عيون الناظرينا
خاليا فيه رهينا
في جوار الهانكينا
ل لعمرى والبنينا

تركت في الحي أصفيائي
قد بنت عنهم أخرى الليالي
وسوف ينسونني وشيكا
إن كان دين الحياة ديني
ومما وجد على قبر مكتوبا:

إن الحبيب من الأحباب مختلس^(٧٠)
وكيف تفرح بالدينا ولذتها
أصبحت يا غافلا في النقص منغمسا
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته
كم أخرس الموت من قبر وقت به
قد كان قصرك معموراه شرف
وأمر أبو العلاء بن زهير، وكان

ترحم بفضلك يا واقفا
تراب الضريح^(٧١) على صفحتي
أداوي الأنام^(٧٢) حذار المنون
ووجد على قبر مكتوبا:

أنا مشغول بذنبي
وخطايا موبقات^(٧٣)
ولقد كنت جليلا
صرت في ظلمة قبري
في ثرى الأرض وحيدا
وتركت الأهل والمال

(٧٠) مختلس: مأخوذ.

(٧١) الضريح: القبر.

(٧٢) الأنام: الناس.

(٧٣) موبقات: مهلكات.

ولقد عمّرت دهرًا
 في نعيم وسرور
 وملكت الشرق والغرب
 وفتحت المدن قهرا
 فأتى الموت علينا
 أيها المغرور بادِرْ
 كل حي سوف يفنى
 بعد أحقاب سنيننا
 فوق وصف الواصديننا
 ب وكان الملك فينا
 وغلبت الغالبيننا
 بعد هذا ففنيننا
 لثواب الصالحيننا
 غير محيي الميتيننا

ووجد على قبر مكتوبا:

هذي منازل أقوام عهدتهم
 صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا
 وما يذكر أنه وجد على قبر بطليظة إذ كانت للمسلمين مكتوبا:

كأنك قد رحلت عن المباني
 وناداك الحبيب فلم تجبه
 وأصبح مالك المجموع نهباً
 وصار بنوك أيتاما صغاراً
 وأكبر منه أنك لست تدري
 ووجد على باب مقبرة مكتوبا:

سلام على أهل القبور الدوارس
 ولم يشربوا من بارد الماء شربة
 ولم يك منهم في الحياة منافس
 ألا ليت شعري أين قبر خليلكم
 كأنهم لم يجلسوا في المجالس
 ولم يطعموا من كل رطب يابس
 طويل المنى فيها كثير الوسائس
 وقبر العزيز الشامخ المتشارس (٧٧)

(٧٤) الجنادل: الصخور.

(٧٥) عرسك: زوجتك.

(٧٦) البعل: الزوج.

(٧٧) المتشارس: الذي به شراسة أو يدعيها ويتظاهر بها.

لقد صرّحت في غاية التربّ واحدا
ولو عقل المرء المنافس في الذي
فهاهم بها ما بين راج ويائس
تركتهم من الدنيا له لم ينافس



الباب التاسع

في زيارة القبور والبكاء عندها، وما جاء أن الميت يعرف من زاره، ويبلغه دعاء من دعا له وسلام من سلّم عليه، وفي إباحة زيارة قبر الوالدين المشركين، وما جاء أن الموتى يسألون عن الأحياء ويعرفون أحوالهم وأعمالهم.

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى الناس من حوله وقال ﷺ: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم بالموت^(١)

وذكر أبو داود من حديث بريدة بن حصيد قال: قال رسول الله ﷺ نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن في زيارتها تذكرة^(٢).
وذكر النسائي عن بريدة أيضا عن النبي ﷺ قال: من أراد أن يزور قبرا فليزره ولا تقولوا هجرا.

وذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: ما من رجل يزور قبر أخيه المؤمن كان يعرفه ويسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام. ويروى من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم.

(١) مسلم رقم ٩٧٦ في الجنائز. وأبو داود رقم ٣٢٣٤ في الجنائز. والنسائي ٩٠/٤ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٥٣.

(٢) أبو داود رقم ٣٢٣٥ في الجنائز. ١١/١٥٢ جامع الأصول.

وذكر النسائي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله ملائكة سياحين يبلغونني من أمتي السلام (٣).

وذكر أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام (٤).
وقال سليمان بن نعيم : رأيت النبي ﷺ ٤٩ / ب في النوم ، فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه منهم؟ قال نعم وأرد عليهم .
وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المقابر قال : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم لنا فرط ، ونحن لكم تبع ، أسأل الله لنا ولكم العافية (٥) . وكان عليه السلام يعلمهم مثل هذا أن يقولوه إذا دخلوا المقابر ، وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسلم عليه ، ودعاء من دعا له .

ويروى أن الفضل بن موفق قال : كنت آتي قبر أبي المرة بعد المرة وأكثر من ذلك ، فشهدت يوماً جنازة في المقبرة التي دفن فيها فتعجلت بحاجتي ولم آت ، فلما كان من الليل رأيته في المنام ، فقال لي : يا بني لم لا تأتيني؟ فقلت له : يا أبت وإنك لتعلم بي إذا أتيتك؟ قال : أي والله يا بني ، وإنك لتأتيني فما أزال أنظر إليك حتى تطلع من القنطرة ، حتى تصل إليّ وتقع عند عني ثم تقوم فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز (٦) القنطرة .

وكذلك أبيحت زيارة القبور للنساء كما أبيحت للرجال ، وأبيح هن البكاء عند القبور كما أبيح للرجال .

مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر صبي لها ، فقال لها : اتقي الله واصبري ، فقالت : إليك (٧) عني فإنك لم تصب بمصيبتي ، ولم تعرفه ، فلما ذهب

(٣) النسائي ٤٣/٣ في السهو ، باب السلام على النبي ﷺ ، ورواه أحمد والدارمي وابن حبان . جامع الأصول ٤٠٦/٤ .

(٤) أبو داود رقم ٢٠٤١ في المناسك ، باب زيارة القبور ، جامع الأصول ٥٤٥/٨ .

(٥) أخرجه مسلم رقم ٩٧٥ في الجنائز . والنسائي ٩٤/٤ في الجنائز . جامع الأصول ١٥٧/١١ . وليس فيه أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع . ومعنى فرط : سابق متقدم .

(٦) تجوز : تعبر ، تجتاز .

(٧) إليك عني : ابتعد .

قيل لها: إنه النبي ﷺ فأخذها مثل الموت، ، فأنت بابه فلم تجد على بابه بوابين
فقلت: يارسول الله لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى .

والحديث صحيح مشهور ذكره مسلم والبخاري وغيرهما .

ولو كان بكاء النساء عند القبور وزيارتهم لها حراما لأنها ﷺ ولزجرها زجرا يزجر
بمثله من أتى محرما وارتكب منها .

وماروي من النهي عن زيارة القبور للنساء فغير صحيح ، والصحيح ما
ذكرت لك من الإباحة، إلا أن عمل النساء في خروجهن ما لا يجوز لهن من تبرج
أو كلام أو غيره فذلك هو المنهي عنه . وقد أبيض لك أن تبكي على قبر ميتك حزنا
عليه أورحة له مما بين يديه، فإن وجدت لك بكاء فيبك، ومع بكائك على
ميتك فلا تغفل عن بكائك على نفسك، وعن الفكرة فيما عملته في يومك
وأمسك، وفي مآلك عند حلول رمسك .

بل لو أمكنك أن تجعل بكاءك كله عليك كان الأولى بك والأحمد لك .

وأشدوا:

صدعت عليه أكباد العميد
فذكرني بمنتبذ بعيد
أعاد عليّ أحزاني وعيد
ومثلي من بكى عند اللحد
غداة غد سأدخل في العديد

لمن جدث لدى باب البنود
نظرت إليه منتبذا بعيدا
مررت به فحدثني حديثا
وأبكاني وأبكاني وأبكي
وما بي من ثوى^(٨) فيها ولكن
وفي هذا المعنى:

تصان به هذي الجسم وتكرم
كأني لأنفاس الصبا اتنسم
مقابر منها لا طيء^(١٠) ومسنم

ولما حللنا من بجاية جانبنا
وجدت لها طيبا وروحا وراحة
فقلت لصحبي ما الذي أمرجت^(٩) له

(٨) ثوى: نزول وإقامة، ومنه المثوى .

(٩) أمرجت: وسعت وصارت كالمرج .

(١٠) لا طيء: لاصق، قريب من الأرض . ومسنم: غير مسطح كأنه السنام .

لأدري بذلك الأمر منهم وأفهم
سوى رمم ممن تحب وتعظم
تفتق من دارين مسك مختم
تُشهر بالدمع السرار المكتم
يراع لذكراها فؤادي ويكلم (١٣)
قدقت به مسودة الجوف تلطم
له هل يبشري أم بشنعاء تقصم
وما خصني أدهى علي وأعظم
أساق إليها أن أبيت وأرغم
عليه إذا ما كان ذلك أقدم
يُكى على هذا من المقلة الدم
وقد تقدم أن الميت يتأذى بكاء أهله عليه، وفيه حديث ابن أبي شيبه
يقول النبي ﷺ يا عباد الله لا تعذبوا أمواتكم .

فأوهمتهم أي جهلت وانني
فقالوا طلبنا علم ذاك فلم نجد
تضوع (١١) بطن الأرض منها كأنها
ففاضت دموعي عند ذاك وربما
خليلي ما بالي وبال نوائب (١٢)
وما شجاني وهو أعظم أنني
ولم أدر ما كانت تحية خصمه
وأعظم منها موقعا وأشده
بأنني في تلك المسالك سالك
وما أنا أدري ما الأقي وما الذي
فهل من دم أبكيه صرفا فإنها
وقد تقدم أن الميت يتأذى بكاء أهله عليه، وفيه حديث ابن أبي شيبه
يقول النبي ﷺ يا عباد الله لا تعذبوا أمواتكم .

وربما يتأذى كذلك أو أكثر من ذلك بكاء غير أهله، ويعتبر ذلك بالحكي
إذا بكى عنده من ليس له غرض في بكائه، ولا ارادة في عويله .

يروى عن أبي بكر بن اللباد قال : حدثني عائشة الأندلسية - وكانت
عائشة هذه من الصالحات - قالت توفي لي ولد بمصر فقدمت القيروان، فكنت
أخرج إلى المقابر في باب سلم، فأجلس عند قبر وأبكي، فرأيت ذات ليلة كأنني
خرجت إلى باب سلم على عادتي وإذا أهل القبور يعود على أفنية قبورهم
٥٠/أ، الرجال والنساء والصبيان، فلما أقبلت إلى الموضع الذي كنت أبكي
عنده، سمعت أهل القبور يقولون: قد جاءت هذه المرأة، أها عندنا قبر تبكي
عليه؟ قالوا: لا . قالوا: فلم تؤذينا بيكائها؟ قالت: ثم لطمني منهم ميت في
خدي الأيمن، قالت: فقلت لهم: أتلطمون خدي وقد مسست به الركن

(١١) تضوع: انتشرت رائحته .

(١٢) نوائب: جمع نائبة وهي المصيبة .

(١٣) يكلم: يبرح .

والحجر الأسود؟ فقالوا لي: قبرك بمصر وتؤذينا أنت هاهنا؟ قالت: فانتبهت وأثر اللطمة في خدي. قال أبو بكر: وكشفت لي عن وجهها فرأيت أثر اللطمة سوادا أقام نحو من أربعين يوما ثم تقشر وذهب.

فينبغي لمن زار القبور أن يسلم على أهلها، وأن يدعو لهم ويسأل الله عز وجل فيهم، ويترك الكلام عندهم بما لا يحل، والحديث على رؤوسهم بما لا يحب، فإن كان المتكلم لا يدري مقدار ما يقول فإن الميت يدري مقداره ويتحقق موقعه ويتبين ضرره، فواجب عليك ألا تؤذيه بسماع ما لا يريد سماعه، وألا تدخل عليه ما لا يريد إدخاله، وإلا فربما لم يف لك خير زيارتك إياه بشر ما تقلب به من عنده.

كان بقربة رجل من الزهاد المحتسبين يكنى بأبي مروان وكان ديناً فاضلاً، طلب العلم وروى الحديث وسمع من محمد بن وضاح، وسكن عنده إلى أن مات، وصلى عليه ابن وضاح ودفنه بمقبرة تعرف بمقبرة خلال، وتعرف أيضاً بمقبرة المساكين، وكان ابن وضاح بعد ذلك متى حضر جنازة في تلك المقبرة مشى إلى قبر أبي مروان هذا فوقف به وسلم عليه ودعا له. فحضر جنازة في بعض الأيام في تلك المقبرة، وأعجله أمر عن المشي إليه على عادته للسلام عليه والدعاء له، قال ابن وضاح فلما كانت الليلة المقبلة رأيت أبا مروان في نومي وكأنه يقول لي يا أبا عبد الله كن إذا دخلت هذه المقبرة وقفت بي وسلمت علي ودعوت لي فأنتست بك وفرحت بدعائك، ودخلت اليوم فلم تفعل شيئاً من ذلك فقلت: له يا أبا مروان وإنكم لتعرفون من يقف بكم ويسلم عليكم؟ فقال: نعم، ولقد قعد ابنك محمد على قبري اليوم مع رجل ما هو إلا يهودي، وتكلم بكلام ما هو إلا كفر، ولقد تأذيت بقعودهما وكلامهما. قال ابن وضاح: فلما أصبحت دعوت ابني محمداً فقلت له: أين قعدت أمس إذ حضرنا جنازة فلان؟ قال: عند قبر أبي مروان الزاهد، فقلت: مع من قعدت؟ فكتمني، فقلت له مع من قعدت وعزمت عليه، فقال لي: مع فلان وأعلمني بالقاعد معه، فعرفته، وكان ذلك الرجل مولعاً ببعض الكلام، وقلت له: فيم تكلمتم وفيم خضتم؟ فقال: تكلمنا في الباري تبارك وتعالى وفي القرآن وغير ذلك: فقلت

له: إياك أن تقاعده أو تتكلم معه أو مع غيره في شيء من هذا، فإن أبا مروان أتاني البارحة في نومي فأعلمني بكذا وكذا.

وهذه حكاية صحيحة عن ابن وضاح. وفي بعض طرقها ان ابنه قال: سبحان الذي جعل أبا مروان وكيلا علينا في حياته وبعد مماته.

٥٠/ب وكما يتأذى الميت - رحمك الله - بما يسمع من الكفر، فكذلك يتأذى بما يسمع من الفحش والهجر، ولكنه أذى دون أذى، فواجب عليك ألا تؤذيه بقليل ولا كثير، وإن لم تنفعه فلا تضره.

واعلم أن الميت كالحى فيما يعطاه ويهدي إليه، بل الميت أكثر وأكثر، لأن الحى قد يستقل بما يهدى إليه ويستحقر ما يتحف به، والميت لا يستحقر شيئا من ذلك ولو كان مقدار جناح بعوضة، أو وزن مثقال ذرة لأنه يعلم قيمته وقد كان يقدر عليه فضيعه.

ومما يدل على صحة وصول ما يهدى الحى إلى الميت قوله ﷺ إذا مات الانسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له (١٤).

فدعاء الولد يصل إلى والده، وينتفع به، وكذلك أمره عليه السلام بالسلام على أهل القبور والدعاء لهم، ما ذاك إلا لكون الدعاء لهم والسلام عليهم يصل إليهم ويأتيهم. والله أعلم.

ويروى أن النبي ﷺ قال: الميت كالغريق في قبره ينتظر دعوة تلحقه من ابنه أو أخيه أو صديق له، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها. والأخبار في هذا كثيرة.

قال بشر بن منصور: كان رجل زمن الطاعون يختلف إلى المقابر، ثم يستقبل القبور فيقول: أمن الله روعتكم، آنس الله وحشتكم، رحم الله غربتكم، تقبل الله حسناتكم، تجاوز الله عن سيئاتكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمات. قال الرجل: فانصرفت ذات يوم ولم أدع، فلما كان الليل رأيت فيما يرى النائم خلقا

(١٤) رواه مسلم رقم ١٦٣١ في الوصية. وأبو داود رقم ٢٨٨٠ في الوصايا والترمذي رقم ١٣٧٦ في الأحكام. والنسائي ٢٥١/٦ في الوصايا. جامع الأصول ١١/١٨٠.

كثيرا قد جاءوني فقلت لهم : من أنتم؟ قالوا : أهل المقابر . قلت : وما حاجتكم؟ قالوا إنك قد عودتنا منك هدية تهديها إلينا عند انصرافك ، قلت : وما هي؟ قالوا : الدعوات التي كنت تدعوبها لنا ، قلت : فإني أعود لما كنت أدعوبه ، قال : فما تركت ذلك بعد .

وقال بشار بن غالب : رأيت رابعة العدوية - يعني العابدة - في المنام ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت : يا بشار هديتك تأتينا في أطباق من نور عليها مناديل حرير ، وهكذا يا بشار دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا لأخوانهم الموتى فاستجيب لهم يقال هذه هدية فلان إليك .

ورأيت لبعض من يوثق به قال : ماتت لي امرأة فقرأت في بعض الليالي آيات من القرآن فأهديتها لها ، ودعوت الله عز وجل واستغفرت وسألت ، فلما كان في اليوم الثاني حدثني امرأة تعرفني وتعرفها ، قالت لي : رأيت البارحة فلانة في النوم - تعني الميتة المذكورة - في مجلس حسن في دار حسنة ، وقد أخرجت لي أطباقا من تحت سرير كان في البيت ، والأطباق مملوءة قوارير فقالت لي يا فلانة هذا أهدها لي صاحب بيتي . قال : وما كنت أعلمت بما أهديت من ذلك أحدا . وقال أبو قلابة : أقبلت من الشام إلى البصرة ، فمررت على مقابر ٥١/أ فنزلت الخندق فتوضأت وصليت ركعتين ، ثم وضعت رأسي على قبر فتمت ، فإذا بصاحب القبر في المنام قد وقف بي ثم قال : يا هذا لقد أذيتني منذ الليلة ، يعني بوضع رأسه على قبره ، ثم قال : جزى الله أهل الدنيا خيرا ، فإنهم لا يزال يدخل علينا من دعائهم أمثال الجبال ، فأقرئهم مني السلام .

وحدثني من أثق به قال : رأى فلان - وسمى رجلا موثوقا به - في النوم فلانة ، وكانت ميتة ، قال : فقالت لي : يا هذا إمض إلى ابنتي فلانة الفاعلة الصانعة - تسبها - وقل لها : أهذا من الصواب أو من البر أن أقعد مع النساء فتأتيهن الطرف والهدايا من عند بناتهن وإخوانهن وأهليهن ، وأطلع وأنا أنظر يمينا وشمالا رجاء أن يأتيني منها شيء فلا يأتي فأبقى خجلة عند النساء خزيانة بينهن ، وقل لها أول فلانة تمضي إلى موضع كذا وكذا فإن فيه دنائير مدفونة فتفعل بها كذا وكذا ، قال فوجدت الدنائير كما قالت .

والأخبار في هذا الباب كثيرة قديما وحديثا. فينبغي لمن دخل المقابر أن يتخيل أنه ميت وأنه قد لحق بهم ودخل في معسكرهم، وأنه محتاج إلى ما هم إليه محتاجون، وراغب فيما هم فيه راغبون، فليأت إليهم بما يجب أن يؤتي به إليه، وليتحفهم بما يجب أن يتحف به، وليتفكر في تغيير أحوالهم وألوانهم، وتقطع أبدانهم، وتتكبر أحوالهم، وكيف صاروا بعد الأنس بهم والتسلي بحديثهم إلى النفار من رؤيتهم والوحشة من مشاهدتهم ويتفكر أيضا في انشقاق الأرض وبعثرة القبور وخروج الموتى وقيامهم بمرة واحدة حفاة عراة غرلا مهطعين إلى الداعي مسرعين إلى المنادي.

قال مطرف بن أبي بكر الهذلي: كانت عجوز متعبدة في بني عبد قيس، وكانت إذا جاء الليل قامت في محرابها، فإذا جاء النهار خرجت إلى القبور، فعوتبت في كثرة إتيانها إلى القبور، فقالت: إن القلب إذا قسا وعتلم يلينه إلا زيارة الموتى والوقوف على رسوم البلى، فإني لآتي القبور فأقف عليها وأنظر إليها، وأعتبر بها وأفكر فيها، فكأنني أنظر إليهم وقد خرجوا من بين أطباقها وانبعثوا من تحت أحجارها، فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أشد نهكتها في الأجسام، وأعظم مرارتها في الأنفس.

وأعلم أن قبور الصالحين لا تخلو من بركة، وأن زائرها والمسلم عليها والقاريء عندها والداعي لمن فيها لا ينقلب إلا بخير ولا يرجع إلا بأجر، وقد يوجد لذلك أمانة ويبدو منها بشارة.

روى أن رسول الله ﷺ لما نزل بالمأزمين قال له أصحابه يا رسول الله إنا نجد هاهنا ريح مسك، فقال: وما يمنعكم وهاهنا قبر أبي معاوية، وأبو معاوية هو عبادة بن الحارث بن عبدالمطلب ابن عم النبي ﷺ قتل يوم بدر شهيدا، وكان خرج ذلك اليوم ومات هناك شهيدا، رضي الله عنه.

وروى يحيى بن سعيد عن شعبة بن الحجاج قال:

٥١/ب فتن الناس بقبر عبدالله بن غالب، كان يوجد ريح المسك منه.

قال مالك بن دينار رحمه الله: ذهبت إلى قبر عبدالله بن غالب رضي الله عنه فأخذت من ترابه فإذا هو مسك أو كأنه مسك.

وقال حماد بن زيد حدثني سعيد بن زيد قال : أدخلت يدي في قبر عبد الله بن غالب إلى المرفق ، فأخرجت منه ترابا فإذا ريح مسك .
وقصة هذا القبر صحيحة مشهورة ، ولما خيف على الناس منه الفتنة سُوي .

حدثنا أبو الوليد اسماعيل بن أحمد المعروف بابن افرند ، وكان هو وأبوه صالحين معروفين ، قال : قال أبو الوليد مات أبي رحمة الله عليه ، فحدثني بعض إخوانه ممن يوثق به وبحديثه - نسيت أنا اسمه - قال لي زرت قبر أبيك فقرأت عليه حزبا من القرآن ، ثم قلت له يا فلان هذا أهديته لك فماذا لي ؟ قال : فهبت عليّ نفحة مسك غشيتني وأقامت معي ساعة ، ثم انصرفت وهي معي ، فما فارقنتي إلا وقد مشيت نصف الطريق .

وروى أبو محمد عبد الله البكري ويعرف بالمغاور ، وكان من الصالحين والله أعلم مشهورا بالصدق والخير ، قال : زرت قبر الزبير بن العوام صاحب النبي ﷺ وقرابته ، وهو أحد العشرة ، وقبره بأرض البصرة قال : فبينما أنا على قبره إذ رأيتني قد صب عليّ ماء ورد من الجوفلني حتى بل مرقعتي ، رأيت ذلك وأنا حاضر الذهن مفتوح العين .

وغير بعيد أن يخلق الله على رأسه ماء ورد يبله بل يبل الأرض كلها إذا شاء ، كرامة لصاحب نبيه ﷺ وبشرى لهذا بزيارته إياه ، ولا يلزم أن يكون هذا لكل زائر ولا عند كل مزور ، بل يكون الزائر أفضل من هذا ، والمزور أفضل من ذلك ، ولا يكون شيء من هذا .
وللكلام على هذا موضع آخر .

وذكر ابن اسحاق قال : حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما مات النجاشي كان يُتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور . ويستحب لك رحمك الله أن تقصد بميتك قبور الصالحين ومدفن أهل الخير فتدفنه معهم وتنزله بإزائهم ، وتسكنه في جوارهم تبركا بهم وتوسلا إلى الله تعالى بقربهم ، وأن تجتنب به قبور من سواهم ممن يخاف التأذي بمجاورته والتألم بمشاهدته فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : إن الميت يتأذى بالجار السوء كما

يتأذى به الحي .

يروى (١٥) أنه دفنت امرأة بقرطبة، فأتت أهلها في النوم، فجعلت تعاتبهم وتشكوهم، وتقول: ما وجدتكم أن تدفنوني إلا إلى بيت فرن جير، فبحثوا وسألوا عمّن كان مدفوناً بإزائها، فوجدوه رجلاً سافراً كان لابن عامر، وقبره إلى قبرها، فأخرجوها من جواره، والله تعالى أعلم بحقيقة حال المقبور، وإنما لنا ما ظهر خاصة، والله عز وجل ما ظهر وما بطن .



(١٥) من هنا إلى: من جواره انفردت به نسخة «ل» .

الباب العاشر

٥١/ ب ذكر منامات رثيت لبعض الصالحين تدل على ما هم فيه من الخير وحسن العاقبة

قال ﷺ إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي، قال: فشق ذلك على الناس، فقال: لكن المبشرات، قالوا يارسول الله وما المبشرات؟ قال: رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة^(١) وقد فسرقوله تبارك وتعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ أنها الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له^(٢).
ذكر الحديثين الترمذي.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: الرؤيا الصالحة بشرى من الله.
ومن حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة^(٣). ذكر هذا الحديث مسلم وغيره.
وقال ﷺ رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة^(٤). وإذا ثبت صلاح العبد صدقت رؤياه، وإلا فهي تسر ولا تضر والله أعلم بمن يشبث صلاحه وبمن يصدق كل ما يراه، وليس هذا موضع الكلام وسأذكر لك جملاً من هذه الأخبار.

-
- (١) أخرجه الترمذي رقم ٢٢٧٣ في الرؤيا. وقال صحيح غريب. جامع الأصول ٥٢٦/٢.
 - (٢) رواه مالك في الموطأ ٩٥٨/٢ في الرؤيا. وإسناده صحيح جامع الأصول ٥٢٦/٢.
 - (٣) مسلم رقم ٢٢٦٥ في الرؤيا جامع الأصول ٥٢٥/٢.
 - (٤) رواه البخاري ٣٣١/١٢ في التعبير. جامع الأصول ٥٢٥/٢.

وذكر البخاري من حديث أم العلاء وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ
٥٢/أ قالت: طار لنا عثمان بن مظعون في السكنى حين أقرعت الأنصار على
سكنى المهاجرين، فاشتكى فمرضناه حتى توفي، ثم جعلناه في أثوابه، فدخل
علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد
أكرمك الله، فقال: وما يدريك أن الله أكرمه؟ قلت: لا أدري والله، قال: أما
هو فقد جاءه اليقين إني لأرجو له الخير من الله، والله ما أدري وأنا رسول الله ما
يفعل بي ولا بكم، قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده.

قالت وأحزني ذلك فمتم فرأيت لعثمان بن مظعون في النوم عينا تجري،
فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ذلك عمله يجري له.

ويروى عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال: رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته
بثلاث على فرس أبلق، وخلفه كرجال أهل منى، رجال بيض وعليهم ثياب
خضر على خيل بلق وهو قدامهم وهو يقول: ياليت قومي يعلمون بما غفري
ربي وجعلني من المكرمين، ثم التفت يمينه وشماله يقول: يا ابن رواحة، يا ابن
مظعون الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء
فنعم أحر العاملين، قال: ثم صافحني وسلم عليّ.

معاذ بن جبل وعثمان بن مظعون وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم
تشهد لهم صحبة رسول الله ﷺ بما هم فيه من الخير، وبما صاروا إليه من
الكرامة، ولا يحتاج لهم إلى رؤيا، ولكن أردت ألا أخلي هذا الباب من ذكر
بعض الصحابة رضي الله عنهم.

قال صالح بن بشير المري: رأيت عطاء السلمي في النوم بعد موته،
فقلت له: يرحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا، فقال: أما والله لقد
أعقبني ذلك فرحا طويلا وسرورا دائما، فقلت: في أي الدرجات أنت: قال:
مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولما مات سفيان الثوري رئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال:
وضعت أول قدم على الصراط، والثاني في الجنة، وقال إبراهيم بن إياس،
رأيت سفيان الثوري في النوم، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: أنا مع السفرة

قلت: وما السفارة؟ قال: الكرام البررة.

وقال عبد الله بن المبارك: رأيت الثوري في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لقيت محمدا وحزبه.

وقال صخر بن راشد: رأيت عبد الله بن المبارك في النوم بعد موته، فقلت له: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فما صنع الله بك؟ قال: غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب، قلت: فسفيان الثوري؟ قال: يخ (٥) يخ ذلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وعن قبيصة بن سفيان قال: رأيت سفيان الثوري في النوم بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي عيانا فقال لي هيننا رضائي عنك يا ابن سعيد لقد كنت قواما إذا الليل قد دجا (٦) بعبرة (٧) محزون وقلب عميد فدونك (٨) فاخترأي قصر تريده وزرني فيني منك غير بعيد ٥٢/ب وعن سفيان بن عيينة قال: رأيت سفيان الثوري في النوم وقد مات كأنه يطير في الجنة من شجرة إلى نخلة، ومن نخلة إلى شجرة وهو يقول: لمثل هذا فليعمل العاملون، ف قيل له: بم دخلت الجنة؟ قال: بالورع، ف قيل له: فما فعل علي بن عاصم؟ قال: ما نراه إلا مثل الكوكب.

وكان شعبة بن الحجاج ومسر بن كدام رحمهما الله رجلين فاضلين جليلين، وكانا من ثقات المحدثين وحفاظهم، وكان شعبة أكبر وأجل، فهاتا، قال أبو أحمد الزبيدي: فرأيتهما في النوم وكنت إلى شعبة أميل مني إلى مسعر، فقلت له: يا أبا بسطام ما فعل الله بك؟ قال: وفقك الله يا بني لحفظ ما أقول. ثم أنشد:

(٥) يخ: اسم فعل وتقال هذه الكلمة للرضى بالشيء أو المدح، وقد تكرر للمبالغة.

(٦) دجا: أظلم.

(٧) عبرة: بفتح العين وتسكين الباء: دمعة.

(٨) دونك: خذ.

حباني (٩) إلهي في الجنان بقبة
 وقال لي الجباريا شعبة الذي
 تنعم بقربي إنني عنك ذورضا
 كفى مسعرا عزا بأن سيزورني
 فهذي فعالي بالذين تنسكوا (١١)
 لها ألف باب من لجين (١٠) مجوهرا
 تبهر في جمع العلوم فأكثرها
 وعن عبدي القوام في الليل مسعرا
 وأكشف عن وجهي ويدنولينظرا
 ولم يألّفوا في سالف الدهر منكرا
 وذكر أبو الحسن بن جهضم عن أبي بكر أحمد بن محمد بن الحجاج قال: حدثني
 رجل من أهل طرسوس، قال: دعوت الله عز وجل أن يريني أهل القبور، حتى
 أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به؟ فرأيت بعد عشر سنين فيما يرى النائم
 كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادروني بالكلام وقالوا: يا هذا كم تدعو
 الله أن يريك إيانا؟

تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقكم تحفه (١٢) الملائكة تحت شجرة طوبى؟ .
 وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو عبارة عن علو درجة أحمد بن حنبل
 وارتفاع مكانته وعظم منزلته، فلم يقدرُوا أن يعبروا عن صفة حاله وعمّا هو فيه
 إلا بهذا أوبما هو في معناه .

وقال محمد بن أحمد الكندي: رأيت أحمد بن حنبل في النوم، فقلت له:
 يا أبا عبدالله ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي ثم قال لي: يا أحمد ضُربْتُ فيّ ستين
 سوطاً؟ قلت: نعم يارب، قال: هذا وجهي قد أبحتك فانظر إليه .

ويروى عن عبدة العابدة قالت: لما حضرت الوفاة رابعة العدوية قالت
 لي: يا عبدة لا تؤذني بموتي أحدا، وكفني في جبتي هذه وهي جبة من شعر
 كانت تصلي بالليل فيها، قالت: فكفناها في تلك الجبة وفي خمار (١٣) من صوف

(٩) حباني: خصني .

(١٠) لجين: فضة .

(١١) تنسكوا: تعبدوا وتزهدوا .

(١٢) تحفه: تحيط به .

(١٣) غطاء الرأس .

كانت تلبسه، قالت: عبدة: فرأيتها في منامي بعد دفنها وعليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر قط شيئاً أحسن منها، قالت: فقلت لها: يارابعة ما فعلت تلك الجبة التي كنا كفناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنها والله نزعا مني واستبدلت بهما هذا الذي ترين علي، وطويبا وختم عليهما ورفعنا في عليين ليكمل ثوابهما إلى يوم القيامة. قلت لها: فما فعلت عبدة بنت أبي كلاب؟ قالت: هيهات هيهات سبقتنا والله ٥٣/ أ إلى الدرجات العلى، قلت لها وبم وقد كنت انت عند الناس أكبر منها؟ قالت: إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا ولا أمست، قلت: فما فعل ضيغم بن مالك؟ قالت: يزور الله عز وجل متى شاء، قلت: فما فعل بشر بن منصور؟ قالت: يخ بخٍ أعطي والله فوق ما كان يأمل.

قالت: فقلت لها: فيم تأمريني أن أتقرب إلى الله عز وجل؟ فقالت: عليك بذكر الله فيوشك أن تغتبطي (١٤) بذلك في قبرك. وقال بعض الصالحين: رأيت بشر بن منصور في النوم بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فأعرض عني، فقلت له: فضيغم بن مالك؟ قال: ركب إلى الله الساعة.

وقال ابن ثعلبة العابد: رأيت ضيغم بن مالك في النوم بعد وفاته، فقال لي: يا ابن ثعلبة أما صليت علي؟ فذكرت له شيئاً منعي، فقال: أما أنك لو صليت علي لربحت رأسك، يقول لنجوت وغفر لك. وقال أبو جعفر السقاء صاحب بشر بن الحارث: رأيت بشر بن الحارث ومعرفة الكرخي رحمة الله عليهما وهما جاثيان وكأنهما في قبة أو كما قال: فقلت: من أين؟ قال: من جنة الفردوس زرنا كليم الله موسى عليه السلام. ولما احتضر حجاج الزاهد قيل له: ما تشتهي؟ قال: الله، ثم خرجت نفسه، فرآه بعض إخوانه في النوم يمشي على حائط، قال: فرفعت رأسي إليه وأنا أمشي بالأرض، فقلت له: أبا يوسف كيف حالك؟ وكيف أنت؟ وعلام

(١٤) تغتبطي: تفرحي.

قدمت؟ قال: فضحك وقال: ما الأمر إلا سهل ما رأيت شيئا مما كنت أخافه والحمد لله رب العالمين.

وعن سعيد بن أسد أن رجلا كان من دعائه: اللهم سهل عليّ الموت وَيَسِّرْ عليّ الحساب، وبارك لي في اللقاء، وأعذني من جهد البلاء، فمات، فرثي في النوم، فقيل له: ما فعلت؟ فقال: لقيت خيرا، وكل شيء سألت الله أن يعطينيه أعطانيه.

وقال بعض الصالحين: رأيت بشر بن الحارث في النوم، وما كنت رأيته في اليقظة ولا كلمته قط، فرأيت كأني واقف بين يدي الله عز وجل أسمع كلاما ولا أرى أحدا وهو يقول: يا بشر قد قبلناك وقبلنا ما كان منك، فسمعت بشرا يقول: ومن تبعني يارب، قال: قد غفرت لهم.

وقال عاصم الجزري: رأيت في النوم كأني لقيت بشر بن الحارث فقلت: من أين يا أبا نصر؟ فقال: من عليين. قال: فقلت له: ما فعل أحمد بن حنبل؟ قال: تركته الساعة مع عبد الوهاب الوراق بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان، قلت له: فأنت؟ قال: علم الله قلة رغبتني في الطعام فأباحني النظر إليه.

وقال أبو جعفر السقاء: رأيت بشر بن الحارث في النوم بعد موته، فقلت له: يا أبا نصر ما فعل الله بك؟ فقال: ألطفتني ورحمني وقال لي: يا بشر لو سجدت لي في الدنيا على الجمر ما أدبت شكر ما حشوت قلوب عبادي منك، وأباح لي نصف الجنة فأسرح فيها حيث شئت، ووعدني أن يغفر لمن تبع جنازتي فقلت له: ما فعل أبو نصر التمار؟ قال: ذاك فوق الناس لصبره على بلائه وفقره. لعله أراد بقوله: أباح لي نصف الجنة نصف نعيم الجنة، لأن نعيم الجنة نصفان: نصف روحاني ٥٣/ب ونصف جسماني، فيتنعمون أولا بالروحاني ثم إذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضيف لهم النعيم الجسماني إلى النعيم الروحاني والله أعلم بما أراد.

وذكر بعض الصالحين قال: رثي بشر بن الحارث في النوم وهو يهول (١٥) ويقول الساعة انطلقنا من السجن.

وقال أبو الحسن المالكي: صحبت خيرا النساج سنين كثيرة، فقال لي قبل موته بثمانية أيام: أنا أموت يوم الخميس قبل المغرب، وأدفن يوم الجمعة قبل الصلاة، وستنسى هذا فلا تنس، قال: فنسيته إلى يوم الجمعة، فلقيت من أخبرني بموته فخرجت لأحضر جنازته، فوجدت الناس قد أخرجوا جنازته قبل الصلاة كما قال، فسألت من حضر وفاته، فقال: إنه غشي عليه ثم أفاق فالتفت إلى ناحية البيت وقال: قف عافاك الله فإنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور والذي أمرت به أنت لا يفوتك، والذي أمرت به أنا يفوتني، ثم دعا بهاء فجدد الوضوء ثم صلى، ثم تمدد وغمض عينيه ومات رحمه الله، فرثي في المنام فقيل له: كيف حالك؟ فقال: لا تسأل ولكني تخلصت من دنياكم الوضرة (١٦).

وكان من دعاء بعض الصالحين: اللهم يا سيدي حبست من شئت عن خدمتك، وأطلقت لها من أحببت من خلقك، غير ظالم ولا مسئول عن فعلك، وقد تقدمت لي فيك آمال، فلا تجمع عليّ المنع من الطاعة وخيبة الأمل فيك يا كريم، فكان هذا خاتمة دعائه، فلما مات رثي في المنام في الجنة، فقيل له: بم نلت هذا؟ قال: بذلك التضرع، والاستغاثة في الأسحار، قيل: ورثي عليه حلة قال الرائي: فيما رأيت شبها لها، وعليها مكتوب بالذهب انعم فقد نلت الأمل، فقلت له: ما هذا الكتاب على ثيابك؟ قال: هذا خاتمة تضرعي وأملي الذي كنت أؤمله من سيدي.

وقال بعض الصالحين: رأيت أبا بكر الشبلي رحمه الله في المنام وكأني قاعد في مجلس الرصافة بالموضع الذي كان يقعد فيه، وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان، قال: فقمتم إليه وسلمت عليه، وجلست بين يديه، فقلت له: يا سيدي من أقرب أصحابك إليك؟ فقال مسرعا: ألهجهم بذكر الله، وأقومهم بحق الله، وأسرعهم مبادرة في مرضاة الله.

(١٥) يهول: يجري جريا خفيفا.

(١٦) الوضرة: الوسخة.

وقال أبو عبد الرحمن الساحلي: رأيت ميسرة بن سلم في المنام بعد موته، فقلت له: أصلحك الله طالت غيبتك، فقال: السفر طويل، قلت: فما الذي قدمت عليه؟ فقال: رخص لنا لأننا كنا نفتي بالرخص، فقلت له: فما تأمرني به؟ فقال: اتباع الآثار، وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقربان من الجبار. وروى عن شعيب بن حرب قال: كانت بمكة امرأة من الصالحات من أهل القرآن، فرأت فيما يرى النائم حول الكعبة وصائف بأيديهن الرياحين وعليهن المعصفرات، فقالت: سبحان الله أحول الكعبة يكون هذا؟! فقيل لها: أما علمت أن عبد العزيز بن أبي رواد تزوج الليلة؟ ٥٤/أ قالت: فاستيقظت فإذا عبد العزيز بن أبي رواد قد مات في تلك الليلة. وقال بعض الصالحين: رأيت في النوم كأي في السماء، ولأهل السماء ضجيج وحركة، وهم يقولون: جاء المحسن جعفر بن الزبير، فانتبهت فمشيت إلى منزله، فوجدته قد مات.

ويروى عن أبي جعفر الضرير أنه قال: رأيت عيسى بن زادان في النوم بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

لورأيت الحسان في الخلد حولي وأكاويها^(١٧) بصافي الشراب
يتزمن^(١٨) بالقرآن جميعا يتمشين مسيلات^(١٩) الثياب

وقال عبود المعلم، وكان يعرف بوجه الجنة: رأيت أبا عبد الله الفزاري المعلم في النوم بعد موته، فقلت له: كيف وجدت الأمر؟ قال: أسهل مما تذكرون، وأصعب مما تصفون، فقلت له: صاحبك سهل الوراق أمعك هو؟ قال: يدي في يده، ويده في يدي - يعني في الجنة - ولكنه أطول مني قامة. وقوله: أطول مني قامة: يريد أرفع مني مرتبة، وكان قد رآه بعد موته.

ويروى عن معوذ بن داود الباكرتي وكان من الصالحين أنه قال: رأيت أبا حفص عمر بن عبادل المرعيني الزاهد بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟

(١٧) أكواب: أكواب.

(١٨) يتزمن: يغنين.

(١٩) مسيلات: مطيلات.

فقال : لو كنت أعلم الغيب لا ستكثر من الخير، وهذا يدل على أنه فعل معه خيراً فأراد الزيادة منه .

وعن يعلي بن عبيد قال : جاء رجل إلى سفيان الثوري فقال له : يا أبا عبدالله رأيت في المنام كأن ملكاً نزل من السماء إلى الشام ، فاقطلع ربحانة ثم صعد بها إلى السماء ، فقال له سفيان : إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي ، فحفظ ذلك اليوم فجاء نعيه أنه مات فيه .

ويروى عن حماد بن زيد عن هشام بن حسان عن حفصة قالت : كان مروان المحلمي لنا جاراً ، وكان عابداً مجتهداً ، فمات ، فحزنت عليه حزناً شديداً ، فرأيت في النوم ، فقلت له : يا أبا عبدالله ما صنع بك ربك؟ قال : أدخلني الجنة ، قلت : ثم ماذا؟ قال : رفعت إلى أصحاب اليمين ، قلت : ثم ماذا؟ قال : ثم رفعت إلى المقربين ، قلت : فمن رأيت ثم من أصحابك؟ قال : رأيت الحسن البصري ومحمد بن سيرين وميمون بن سياه ، قال حماد : قال هشام : فحدثتني أم عبدالله وكانت من خيار نسل أهل البصرة قالت : رأيت فيما يرى النائم كأني دخلت بستاناً ، فذكرت من حسنه ما شاء الله أن تذكر ، فإذا أنا برجل متكئ على سرير من ذهب ، وحوله الوصائف بأيديهن الأكواب ، قالت : فأنا متعجبة من حسن ما أرى إذ أتى ذلك الرجل فقبل له هذا مروان المحلمي قد أقبل ، فوثب فاستوى جالساً على سريره ، قالت : فاستيقظت من منامي فإذا بجنازة مروان المحلمي قد مر بها على بابي تلك الساعة .

ويروى عن عبدالواحد^(٢٠) بن زيد - وكان من الصالحين ، قال : رأيت في المنام ليلة مات الحسن البصري كأن أبواب السماء قد فتحت وكان الملائكة صفوف ، فقلت : ما هذا إلا لأمر عظيم ، فسمعت منادياً ينادي ألا إن الحسن بن أبي الحسن قدم على الله وهو عنه راض .

٥٤/ب ويروى أن امرأة قالت لابن سيرين وهو يأكل : رأيت كأن شجرة ياسمين قلع من الأرض ورفعت إلى السماء ، وكان الثريا سقطت من السماء

(٢٠) عبدالواحد : في زعبدالرحمن .

في دارك، قال: فرفع ابن سيرين يده من الطعام وقال: أعظم الله أجري في نفسي، وإن كثر البقاء فيلى سبع. فكان كذلك.

ويروى عن عمرو بن عمرو بن صفوان عن بعض مشيخته قال: رأيت في النوم كأنى جئت إلى هذه المقبرة التي بمكة فرأيت على عامتها سرادقات ورأيت منها قبرا عليه سرادق وفسطاط وسدرة، فجئت حتى دخلت وإذا مسلم بن خالد الزنجي، فسلمت عليه وقلت: يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط وفيه سدرة؟ فقال: انى كنت كثير الصيام، فقلت له يا أبا خالد أين قبر ابن جريج؟ دلنى عليه فقد كنت أجالسه، وأنا أحب أن أسلم عليه، فقال هكذا بيده هيهات وأدار أصبعه السبابة وقال: وأين قبر ابن جريج؟ رفعت صحيفته في عليين.

ويروى عن بعض الصالحين قال: رأيت بعض جيرانى فى النوم فقلت له: ما حالك؟ فذكر شيئا، قلت: فما حال عبد الله بن المبارك؟ قال: ذلك مشهور فى الجنة.

ورثى حماد بن سلمة فى النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفنى بين يديه وقال لى: طال ما كددت (٢١) نفسك فى الدنيا فالىوم أطيل راحتك وراحة المتعبين.

وعن أسلم بن زرعة العبادانى قال: كان عندنا بالساحل رجل له فضل بارع، كان يعذب له الماء المالح، قال: قال لى يوما: رأيت البارحة فىما يرمى النائم كأن رجلا يقول لى: قد فرغنا من بناء دارك، ولورأيتها لقرت عيناك، وقد أمرنا أن ننجزها لك والفراغ منها إلى سبعة أيام، واسمها السرور، فابشر بخير، قال: فلما كان فى اليوم السابع بكر للوضوء ونزل للنهر وقد هدأ، فزلق فغرق فمات، فأخرجناه فدفناه، قال فأرئته بعد ثلاثة وهو يكبر وعليه حلل خضر، فقال لى: يا أبا الرضى أنزلنى الكرىم دار السرور وماذا أعد لى فيها؟ فقلت: صف لى هذا، فقال: هيهات يعجز الواصفون ان تنطق أسنتهم بما فيها، فىاليت عيالى

(٢١) كددت نفسك: أتعبتها.

يعلمون أنه قد هيء لهم منازل معي فيها كل ما اشتتهت أنفسهم ولذت أعينهم .
نعم وإخواني وأنت معهم إن شاء الله . قال : ثم انتبهت .

وقال أبو محمد اللباد الفقيه رحمه الله : رأيت ربيعا العطار في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك؟ فقال : في الجنة ، فقلت : وكيف حالكم فيها؟ قال : تارة تزخرف لنا الجنان ، وتارة تشرف علينا الحور العين ، وتارة تصطك لنا الحجب ، قال : فقلت له : فمن أعلى منزلة أنت أم فلان؟ - وسمي له رجلا معروفا عندهم - قال : فتبسم وقال : كلنا جمعنا في حديقة واحدة - يعني في جنة واحدة . ورأى بعض من يوثق به رجلا كان يعرف بالخير والعفاف ، بعد موته ، وعليه عمامة خز (٢٢) ، فأنكرها عليه ، وكأنه قال له : أتلبسها ولباس الخزمكروه؟ فقال له : هو عندنا في هذه الدار مباح .

ورثي غيره شابا وكان في الدنيا أشيب ، فقيل له : نراك دون شيب؟ فقال : لا يشيب أحد في هذه الدار (٢٣) .

وقال بعض الصالحين : كان لي ولد فاستشهد ، فرأيته في النوم ليلة مات عمر بن عبد العزيز ، فقلت له : يا بني أأست ميتا؟ قال : لا ولكني حي أرزق ، فقلت : فما جاء بك؟ قال : نودي في أهل السماء لا يبقى نبي ولا صديق ولا شهيد إلا ويحضر الصلاة على عمر بن عبد العزيز ، فحضرت ثم جئت لأسلم عليكم وأراكم .

والأخبار في هذا الباب لا تحصى .

(٢٢) الخز: ما عمل من الحرير والصوف .

(٢٣) هذه الفقرة من : ورثي إلى هنا سقطت من «ز» ومن «ل» .

الباب الحادي عشر ذكر منامات رثيت لرجال تدل على ما هم فيه من سوء الحال

روى عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال : كنت مؤاخيا لأبي لهب ، فلما مات أخبر الله عنه بما أخبر ، وحزنت عليه ، وأهمني أمره ، فسألت الله حولا كاملا أن يرينيه في المنام ، قال : فرأيتَه - يلتهب نارا ، فسألته عن حاله ، فقال : صرت إلى النار ، والعذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الليالي والأيام ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ولد في تلك الليلة محمد ﷺ ، فجاءتني أميمة فبشرتني بولادة أمه إياه ، ففرحت واعتقت وليدة فرحاً به ، فأثابني الله بذلك أن يرفع عني العذاب في كل ليلة اثنين .

ويروى أيضا أن أبا لهب كان قد أعتق أمة له يقال لها ثوية ، وكانت ثوية قد أرضعت رسول الله ﷺ ، فلما مات أبوهب أريه بعض أهله في منامه بشر خيبة أي بشر حال ، فقال له : ماذا لقيت ؟ فقال : لم ألق بعدكم خيرا غير أنني سقيت في هذه لعتاقتي ثوية .

ومعنى سقيت في هذه يريد النقرة التي بين الابهام والسبابة ذكر هذه الحكاية البخاري .

أبوهب كان عم النبي ﷺ وكان كثير الإذاية للرسول بعدما جاءته النبوة ، شديد العداوة له .

ويروى عن طارق بن عبد الله المحاربي قال : رأيت بسوق عكاظ رجلا شابا جميل الوجه يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ووراء رجل أعور قبيح يقول : أيها الناس لا تصدقوه فإنه كذاب ، وقد رمى كعبه (١)

(١) الكعبان : عظيمان ناتان على جانبي القدم .

وعرقوبيه بالحجارة حتى أدماه، فقلت: من هذا الشاب؟ قالوا هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يزعم أن الله أرسله، قلت ومن هذا الآخر وراءه؟ قالوا عمه أبو لهب.

وسوء حال أبي لهب أوضح من أن يحتاج فيه إلى شاهد، ولكنني أردت إلا أخلي هذا الباب من ذكره أو ذكر مثله.

وليعلم أيضا أن الكافر لا يغني عنه من الله شيء، وأنه ليس له من دون الله ولي ولا نصير، وهذا التخفيف الذي ذكر إن كان فإنما هو في البرزخ، وأما في الآخرة فلا تخفيف ولا تفتير ولا راحة، نعوذ بالله من عذابه.

يروى عن بعض الصالحين من أهل القيروان قال: كان لي جار يذكر أنه ليس بمسلم، فمات، فرأيت في النوم حجرا ململما^(٢) يتدحرج حتى وصل إلى باب ذلك الرجل، فدنوت منه فإذا بالحجر قد انفرج، فخرج منه رجل هو ذلك الرجل، فقلت له: ما هذا؟ فقال: هكذا نحن نعذب، وذكر سوء حاله، فقلت: لعل الله أن يغفر لك، قال: وكيف يغفر لي وأنا قد مت على غير الإسلام؟.

ويروى عن هشام بن حسان قال: ٥٥/ب مات ابن لي شاب فرأيته في النوم وهو أشيب، فقلت له: يا بني ما هذا الشيب؟ قال: قدم فلان فزفرت جهنم لقدمه زفرة لم يبق منا أحد إلا شاب.

ويروى أن رجلا رثي في المنام شاحب اللون متغير الوجه، وقد غلَّت يده إلى عنقه، ف قيل له: ما فعل الله بك؟ فأنشأ يقول:

تولى زمان لعبنا به وهذا زمان بنا يلعب
ويروى أن دلف بن أبي دلف العجلي رأى أباه في النوم وكأنه في بيت مظلم حيطانه وسقفه مسودة من الدخان، وهو جالس في صدر البيت، فقال له: يا أبت كيف حالك؟ فقال: يا بني الأمر صعب، والحساب دقيق، ثم أنشأ يقول:
ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي

(٢) ململما: على شكل كرة.

ولكننا إذ امتنابعثنا ونسأل بعده عن كل شي (٣) وفي رؤيا عمر بن عبد العزيز فذكر القيامة والبعث، وجمع الناس لفصل القضاء وكيف نوذي الخلفاء واحدا بعد واحد، وحسابهم وكل واحد منهم على منزلته، ثم نادى المنادي أين عمر بن عبد العزيز؟ قال: فتصبيت عرقا، ثم أخذت الملائكة بيدي، فأوقفتني بين يدي الله تعالى، فسألني عن الفتيل والنقير (٤) والقطمير، وعن كل قضية قضيتها، حتى ظننت أني لست بناج، ثم إنه تفضل علي برحمة منه فغفر لي وأمر بي ذات اليمين إلى الجنة، فمررت بجيفة ملقاة، فقلت للملائكة من هذا؟ قالوا كلمه يكلمك، فوكزته برجلي، فرفع رأسه وفتح عينيه، فإذا برجل أفضس أثرم شديد الأدمة وحش المنظر، فقال لي: من أنت؟ فقلت: عمر بن عبد العزيز فقال: ما فعل الله بك؟ فقلت: تفضل علي برحمته فغفر لي وأمر بي ذات اليمين إلى الجنة، قال: فما فعل أصحابك الخلفاء الذين معك؟ قلت: أما الأربعة فغفر الله لهم وأمر بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأما الباقيون فلا أدري ما فعل الله بهم، قال: وأخذني البكاء، ثم قال: هنأك الله بما صرت إليه. قلت: من تكون؟ قال: أنا الحجاج بن يوسف قدمت على ربي فوجدته شديد العقاب، قتلني بكل قتيل قتلته قتلة، وها أنذا موقوف بين يديه أنتظر ما ينتظر الموجودون.

والأخبار في هذا الباب كثيرة أيضا.

(٣) من وروى أن دلف إلى هنا سقط من ش وز.

(٤) الفتيل: ما فتلت بين أصابعك من الوسخ، والمراد أصغر الأشياء وأحقرها.

النقير: النكتة في ظهر النواة. القطمير: القشرة الرقيقة بين النواة والتمر.

الباب الثاني عشر

٥٥/ ب ذكر الأرواح أين يذهب بها وما جاء في عذاب القبر والسؤال فيه

ذكر أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضباثر^(١) ريحان، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين، ويقال أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية مرضيا عنك، إلى روح الله وكرامته، فإذا خرج روحه وضع على ذلك المسك والريحان، وطويت عليه الحريرة وذهب به إلى عليين.

وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح^(٢) فيه جمرة، فتتزع روحه انتزاعا شديدا، ويقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى هوان الله وعذابه، فإذا خرج روحه وضع على تلك الجمرة، ويطوى عليه المسح ويذهب بها إلى سجين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح ٥٦/ أ الله وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى انه ليناوله بعضهم بعضا يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فكلما أتوا سماء قالوا لهم مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أفرح به من أحدكم بغائبه إذا قدم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم الدينا، فإذا أصبح واستراح قال لهم: أما أتاكم فإنه قد مات؟ فيقولون ذهب به إلى أمه الهاوية.

(١) ضباثر: حُزم.

(٢) مسح: كساء من شعر.

وأما الكافر فإن ملائكة العذاب تأتيه بمسح من شعر، فيقولون: اخرجي
ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وسخطه، فتخرج كأنتن ريح جيفة،
فينطلقون به إلى باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح! كلما أتوا على
أرض قالوا ذلك، حتى يأتوا به أرواح الكفار (٣).

ذكره قاسم بن أصبغ وغيره من حديث أبي هريرة أيضا.
وذكر مالك في الموطأ من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول
الله ﷺ قال: إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى
جسده يوم يبعثه. (٤).

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رأيت عمرو بن
لحي بن قمعة بن خندف أخابني كعب وهو يجر قصبه في النار (٥).
القصب: الأمعاء.

وذكر مسلم أيضا من حديث أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت،
قال: قال أبو سعيد ولم أشهده من رسول الله ﷺ ولكن حدثني زيد بن ثابت
قال: بينما رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة، ونحن معه، إذ حادت
به فكادت تلقيه، وإذا أقبرسة أو خمسة أو أربعة، فقال: من يعرف أصحاب
هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا، قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراف،
فقال: إن هذه الأمة تتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن
يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه.

ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار، فقالوا: نعوذ بالله من
عذاب النار، قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر، فقالوا: نعوذ بالله من عذاب
القبر، قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قالوا: نعوذ بالله من
الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال، قالوا: نعوذ بالله
من فتنة الدجال (٦).

(٣) أخرجه النسائي ٨/٤ و٩ في الجنائز، ورواه أحمد وغيره. وإسناده حسن جامع الأصول
٨٦/١١.

(٤) موطأ مالك ١/٢٤٠ في الجنائز. والنسائي ١٠٨/٤ في الجنائز. وإسناده صحيح. جامع
الأصول ٤٢٢/١٠.

(٥) مسلم رقم ٢٨٥٦ في الجنة، والبخاري ٦/٣٩٩ و٤٠٠ في الأنبياء.

(٦) مسلم ١٦١/٨. مختصر صحيح مسلم رقم ٤٩٣.

وعن أبي أيوب الأنصاري قال: خرج علينا رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس فسمع صوتا، فقال: يهود تعذب في قبورها(٧).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول الله ﷺ وقال: إنما تفتن يهود، قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: هل شعرت أنه أوحى إلي أنكم تفتنون في القبور؟ قالت عائشة: فسمعتة بعد يستعيز بالله من عذاب القبر(٨).

٥٦/ب وعن عائشة أيضا قالت: دخلت عليّ عجوزان(٨) من عجز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل عليّ رسول الله ﷺ فقلت له: يارسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليّ فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فقال: صدقتا، إنهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم، ثم ما رأيته بعد في صلاته إلا يتعوذ بالله من عذاب القبر.

وفي هذا الحديث زيادة كثيرة تحييء بعد إن إ شاء الله .

وذكر أبو داود من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت فإنه الآن يسأل(٩).
وقد تقدم.

وذكر مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت، قال: نزلت في عذاب القبر، يقال له من ربك؟ فيقول ربي الله ونبيي محمد، فذلك قوله عز وجل: يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة(١٠).

(٧) البخاري ١٩٢/٣ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٦٩ في صفة الجنة، والنسائي ١٠٢/٤ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٧٢.

(٨) مسلم رقم ٥٨٤، والبخاري ١٨٦/٣ و ١٨٧ في الجنائز. جامع الأصول ١١/١٦٦.

(٩) أبو داود رقم ٣٢٢١ في الجنائز.

(١٠) رواه البخاري ١٨٤/٣ في الجنائز. ومسلم رقم ٢٨٧١ في الجنة، وأبو داود رقم ٤٧٥٠ في السنة، والترمذي رقم ٣١١٩ في التفسير. جامع الأصول ١١/١٧٧.

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : قد أوحى إليّ أنكم تفتنون في القبور قريبا، أو مثل فتنة المسيح الدجال - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيؤتى أحدكم فيقال له : ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن - المؤمن - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيقول هو محمد هو رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وأطعنا، ثلاث مرات، فيقال له : نم قد كنا نعلم أنك لمؤمن به، فتم صالحا.

وأما المنافق - أو المرتاب - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيقول : لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلت .

وذكر النسائي عن أنس أن النبي ﷺ قال : إن العبد إذا وضع في قبره وتولي عنه أصحابه إنه يسمع قرع نعالمه، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا [من الجنة]، قال رسول الله ﷺ فإيهما جميعا، وأما الكافر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول : لا أدري كنت أقول كما يقول الناس، فيقال له : لا دريت ولا تليت، ثم يضرب ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين (١٢).

ذكره البخاري وقال : ويضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح، وذكر باقي الحديث .

وذكر الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إذا قبر الميت - أو قال أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر، وللآخر النكير، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ٥٧/أما كان يقول هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله،

(١١) رواه البخاري ١٨٧/٣ في الجنائز، والنسائي ١٠٣/٤ و ١٠٤ في الجنائز. جامع الأصول ١٧٠/١١.

(١٢) رواه البخاري ١٨٨/٣ و ١٨٩ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٧٠ في الجنة وأبو داود رقم ٣٢٣١ في الجنائز، والنسائي ٩٧/٤ و ٩٨ في الجنائز.

فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : نم فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك . وإن كان منافقا قال سمعت الناس يقولون شيئا فقلت مثله لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض التثمي عليه ، فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعه ، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله عز وجل من مضجعه ذلك . (١٣) .

وذكر عبد بن حميد من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : جاءت يهودية فاستطعمت على بابي ، فقالت : أطعموني أعاذكم الله من فتنة عذاب القبر ومن فتنة الدجال ، فلم أزل أحبسها حتى جاء الرسول ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ما تقول هذه اليهودية؟ فقال : وما تقول؟ قلت : أعاذكم الله من فتنة عذاب القبر ومن فتنة الدجال ، قالت عائشة : فقام رسول الله ﷺ فرفع يده مدا يستعيد بالله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر ، قالت : ثم قال : أما فتنة الدجال فإنه لم يكن نبي إلا وقد حذر أمته وسأحذركموه تحذيرا لم يحذره نبي أمته ، إنه أعور وإن الله ليس بأعور ، بين عينيه مكتوب . . كافر . . يقرؤه كل مؤمن ، وأما فتنة القبر ففي تفتنون وعني تسألون ، فإذا كان الرجل الصالح أجلس في قبره غير فزع ولا مشعوف ، فيقال له : فيم كنت؟ فيقول في الإسلام ، فيقال له : ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله ربنا ، فأمننا به وصدقناه قال : فيقال له : هل رأيت الله؟ فيقول : ما ينبغي لأحد أن يرى الله ، فيفرج له فرجة قبْل النار ، فينظر إليها محطم بعضها بعضا ، فيقال له : انظر إلى ما وراك الله ، ثم يفرج له فرجة أخرى قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : هذا مقعدك منها ، ويقال له : على اليقين كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله ، وإذا كان الرجل السوء أجلس في قبره فزعا مشعوبا (١٤) ، فيقال له : فيم كنت؟ فيقول : لا أدري ، فيقال

(١٣) أخرجه الترمذي رقم ١٠٧١ في الجنائز . جامع الأصول ١١/١٧٦ .

(١٤) مشعوبا : مغلوبا على قلبه .

له : ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا : فيفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : انظر إلى ما صرف الله عنك ، ثم يفرج له فرجة قبل النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، فيقال له : هذا مقعدك ، على الشك كنت ، وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله ، ثم يعذب .

وقال عبد بن حميد أيضاً عن ابن أبي ذئب : قال محمد بن عمرو : فحدثني سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة وأبشري ٥٧/ب بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ويعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا؟ فيقال : فلان ، فيقولون : مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها عليون .

وإذا كان الرجل السوء قيل : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ويعرج بها إلى السماء ، فيقال : من هذا ، فية ال : فلان ، فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة فإنك لا تفتح لك أبواب السماء ، فيرسل من السماء ، ثم يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح ، فيقال له ، فيرد بها في حديث عائشة سواء ، وقد تقدم ، ويجلس الرجل السوء ، فيقال له ، فيرد بها في حديث عائشة سواء .

قال عبد وأخبرني عمرو بن عون ، أخبرنا أبو عوانة عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو عن زاذان أبي عمر عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتبهنا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنها على رؤوسنا الطير^(١٥) ، قال : فجعل النبي ﷺ يرفع

(١٥) كناية عن السكوت التام .

بصره إلى السماء، وينكت^(١٦) في الأرض ويحدث نفسه، ثم قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر، ثلاثا، ثم قال: إن الرجل إذا كان في قبل^(١٧) من الآخرة وانقطع من الدنيا، أتاه ملك الموت، فجلس عند رأسه، فإن كان مسلما قال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج نفسه تسيل كما تسيل قطرة السقاء، وتنزل الملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من أكفان الجنة، وحنوط^(١٨) من حنوط الجنة، فيجلسون منه مد البصر، فإذا أخذها قاموا إليه فلم يتركوها في يده طرفة عين، فذلك قوله عز وجل . . ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾، قال: فتخرج منه مثل أطيب ريح وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون به فلا يمرون على جند من الملائكة فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة، فيقولون هذا فلان بأحسن أسائه، قال: فتفتح له أبواب السماء، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهوا به إلى السماء السابعة، قال: فيقال: اكتبوا كتابه في عليين، ﴿وما أدراك ما عليون﴾ كتاب مرقوم * يشهده المقربون^(١٩) ﴿وأرجعوه إلى الأرض فإني وعدتهم منها خلقناهم وفيها نعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرجع روحه إلى جسده، قال: ويبعث اليه ملكان شديدا الانتهار، فيجلسانه ويتهرانه ٥٨ / أويقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: رسول الله، فيقولان له: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت به، فذلك قوله عز وجل: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة^(٢٠)﴾ وينادي من السماء: أن قد صدق فألبسوه من الجنة، وأفرشوا له من الجنة، وأروه منزله من الجنة، قال: فيلبس من الجنة، ويفرش له من

(١٦) نكت الأرض بعود: ضربها حتى أثر فيها.

(١٧) قبل: إقبال وقدم.

(١٨) الحنوط: ما يوضع على الميت لتطيب رائحته أو منع فساده.

(١٩) الآيات ١٩ - ٢١ المطففين.

(٢٠) آية ٢٧ سورة إبراهيم.

الجنة، ويرى منزله من الجنة، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويمثل له رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، قال: فيقول له أأشرب ما أعد الله لك من الكرامة، هذا يومك الذي كنت توعده، قال: فيقول له: من أنت رحمك الله؟ فوالله لوجهك الوجه الذي جاءنا بالخير، قال: فيقول: أنا عمك الصالح، والله ما علمت أن كنت حريصا على طاعة الله، بطيئا عن معصية الله، فجزاك الله عني خيرا، قال: فيقول: رب أقم الساعة لكي أرجع إلى أهلي ومالي.

وقال الأعمش - وهو سليمان بن مهران - وحدثني أبو صالح قال: حدثني بعض أصحاب النبي ﷺ أنه قال يقال له: نم، فينام ألد نومة نامها نائم قط حتى، توقظه الساعة.

ثم رجع إلى حديث البراء بن عازب، قال: وإن كان فاجرا إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه، فيقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى غضب وسخط من الله، قال: فيتفرق روحه في جسده، قال: فيستخرجها يقطع معها العروق، كما يستخرج الصوف المبلول بالسفود، قال: وينزل ملائكة من السماء سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، فإذا وقعت في يد ملك الموت قامت إليه الملائكة فلم يتركوها في يده طرفة عين، قال: ويخرج منه مثل أنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون به فلا يمرون على جند من الملائكة فيما بين السماء والأرض إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: هذا فلان بأسوأ أسماؤه، قال: فإذا انتهى به إلى السماء الدنيا أغلقت دونه ولم يفتح له، وينادي مناد أن اكتبوا كتابه في سجين وأرجعوه إلى الأرض فيأني وعدتهم أن منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرمى به من السماء، فذلك قوله تعالى: ﴿ومن يشرك بالله فكأنها خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ (٢١).

(٢١) آية ٣١ الحج.

قال : فيعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان شديدا الانتهار . فيجلسانه وينتهرانه ، فيقولان له : من ربك؟ فيقول : لا أدري ، فيقولان له : ما هذا النبي الذي بعث فيكم؟ فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون ذلك ، لا أدري ، قال : فيقولان له : لا دريت ، قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (٢٢) قال : وينادي مناد من السماء ان قد كذب فالبسوه من النار ٥٨/ب وافرشوا له من النار ، وأروه منزله من النار ، قال : فيكسى من النار ويفرش له من النار ويرى منها منزله ، قال : ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، قال : ويمثل له رجل قبيح الوجه قبيح المنظر ، قبيح الثياب متن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، أبشر بغضب من الله وسخط ، هذا يومك الذي كنت توعد ، هذا يومك الذي كنت تكذب به ، قال : فيقول له : وملك فمن أنت؟ فوالله لوجهك وجهٌ جاء بالشر ، قال : فيقول : أنا عمك الخبيث ، والله ما علمت أن كنت لبطيئا عن طاعة الله حريصا على معصية الله ، فجزاك الله عني شر الجزاء ، فيقول : يارب لا تقم الساعة مما يرى مما أعد الله له . (٢٣)

وذكر أبو بكر البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة ، فقال رسول الله ﷺ : يا أيها الناس إن هذه الأمة تسأل في قبورها ، فإذا الانسان دفن وتفرق عنه أصحابه ، جاءه ملك بيده مطراق ، فأقعه فقال : ما تقول في هذا الرجل؟ يعني محمداً ﷺ ، فإن كان مؤمنا قال : أشهد ان لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، قال : فيقول : صدقت ، ويفتح له باب إلى النار ، فيقول : هذا كان منزلك لو كفرت بربك ، فأما إذ آمنت به فهذا منزلك ، يفتح له باب إلى الجنة ، فيريد أن ينهض إليه ، فيقول له : اسكن ، ويفسح له في قبره .
وإن كان كافرا أو منافقا يقول له ما تقول في هذا الرجل ، فيقول : لا أدري

(٢٢) آية ٢٧ سورة إبراهيم .

(٢٣) رواه أبو داود رقم ٣٢١٢ في الجنائز ، ورقم ٤٧٥٣ و٤٧٥٤ في السنة ، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر ، وإسناده حسن . جامع الأصول ١١ / ١٧٧ .

سمعت الناس يقولون شيئاً، فقلت، فيقول له الملك: لا دريت ولا تليت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقول: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت فإن الله قد أبدلك به هذا ويفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه قمعة بالمطراق، يسمعها خلق الله كلهم إلا الثقلين^(٢٤)، فقال رجل من القوم: يارسول الله ما من أحد يقوم عليه ملك في يده مطرقة إلا تهبل عند ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء»

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يسלט على الكافر في قبره تسعة وتسعون تينا تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة، ولو أن تينا منها نفخ في الأرض لما أنبتت خضرا.

وذكر البخاري عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين، فقال: إنها ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله^(٢٥)، قال: فدعا بعسيب رطب، فشقه باثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحداً، ثم قال: لعله أن يخفف عنها ما لم ييبسا.

وذكر النسائي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه^(٢٦)، وهذا الذي ٥٩/أ تحرك له العرش هو سعد بن معاذ الأنصاري رمي بسهم في غزوة الخندق ثم مات منه بعد ذلك، ويعني بالضم ضمة القبر.

ومن حديث شعبة بن الحجاج بإسناده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله

(٢٤) الثقلين: الانس والجن.

(٢٥) في رواية: لا يستبريء من بوله. والعسيب: جريدة نخل، والحديث ليس حجة لأولئك الذين يغرزون على القبر أغصانا خضراء، لأن ما فعله عليه السلام خصوصية له. والحديث رواه الخمسة إلا ابن ماجه. انظر جامع الأصول ١١/١٦٧.

(٢٦) النسائي ١٠١/٤ في الجنائز، وإسناده صحيح. جامع الأصول ١١/١٧٢.

عنها قالت: قال رسول الله ﷺ إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ.

وذكر مسلم من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة (٢٧).

ويروى: عرض على مقعده.

وهذا ضرب من العذاب كبير، وعندنا المثال في الدنيا بمن يعرض عليه السيف للقتل أو غيره من آلات العذاب، أو بما يهدد به من غير أن يرى الآلة، ونعوذ بالله من عذابه وعقابه، بكرمه ورحمته.

وقد صحت الأحاديث عن النبي ﷺ في عذاب القبر على الجملة، ولا مطعن فيها ولا معارض لها، وإنما اختلف الناس هل تعذب الروح في القبر قبل أن ترد إلى الجسد، أو تعذب فيه بعدما ترد إليه، لأن الرواية في رد الروح إلى الجسد في القبر لم تصح صحة عذاب القبر من غير ذكر رد الروح. وحديث رد الروح إلى الجسد في القبر ذكره أبو داود أيضا، وكيفما كان فالعذاب محسوس، والألم موجود، والأمر شديد.

وقد ضرب بعض العلماء لتعذيب الروح مثلا بالنائم فإن روحه تتنعم أو تتعذب، والجسد لا يحس بشيء من ذلك، فتفكر أيها الإنسان في نفسك، وتخيل حالك عند حلول رمسك، وهل يكون أول سعدك، أو يكون أول نحسك.

وقد جاء في الخبر أن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه (٢٨).

(٢٧) أخرجه الجماعة إلا أبا داود. البخاري ١٩٣/٣ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٦٦ في الجنة، ومالك في الموطأ ٢٣٩/١ في الجنائز، والترمذي رقم ١٠٧٢ في الجنائز، والنسائي ١٠٧/٤ في الجنائز. جامع الأصول ١٦٨/١١.

(٢٨) أخرجه الترمذي: رقم ٢٣٠٩ في الزهد. وإسناده حسن. جامع الأصول ١٦٥/١١.

وفي الخبر أيضا أن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفرة النار (٢٩). وقد تقدم الحديثان.

وأنت أعلم بحالك، وبما قدمت من أعمالك، فتخيل بين عينيك وثوب منكر ونكير عليك، وفي اسميهما ما يدل على وصفيهما وقولهما وفعلهما، وقد بدا لك بعض ما يعذبان به ذلك الممتحن، وما يسومان به ذلك البائس المرتهن. واعلم أن عذاب القبر ليس مختصا بالكافرين، ولا موقوفا على المنافقين، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين، وكل على حاله من عمله، وما استوجبه بخطيئته وزله، وإن كانت تلك النصوص المتقدمة في عذاب القبر إنما جاءت في الكافر والمنافق، ومن أين لك بالأمان من تلك الصفة المذمومة والأعمال المشثومة، وإنما الأعمال بالخواتيم، وما ختم لك به فهو الواجب عليك واللازم، والطوق في عنقك المقيم الدائم، وعذاب المؤمن لا يكون كعذاب الكافر والحمد لله.

قد يكون عذاب المؤمن في ضمة القبر أو ضيقه أو صعوبة منظره أو بما يصيبه من الروعات عند مشاهدة تلك الزلات، وبالחסرات على ما سلف له من الجهالات، ٥٩/ب وبالندامات على ما مضى من الساعات، أو بما شاء الله تعالى، فيكون من ذلك ما شاء الله أن يكون، ويدوم ذلك ما شاء الله أن يدوم، فإن أمنت ذلك العذاب الأكبر، فما الذي أمنك من هذا الذي هو بالإضافة إليه عذاب أصغر، فتفكر ما دام ينفعك التفكير، وتخيل ما دمت ترجو ثمرة هذا التخيل إذا طرحت في حفرة من الأرض قصيرة الطول، ضيقة العرض، فاشتدت بها وحشتك، واستبان غريبتك، وانضمت عليك ضمة كسرت أنفك وشدخت رأسك، ورضت عظامك، وسدت وراءك وأمامك وتحتك وفوقك، وملأت ظلمة أرضك وأفقك، فيا لك من قلب قد نكس، وبدن قد هرس، ونفس قد قصر وحبس، فأردت أن تفر فلم تترك، وأردت أن تستغيث فلم تملك، ولا تدري ما يدوم، ولا متى تدرك أن تقعد أو تقوم.

(٢٩) رواه الترمذي رقم ٢٤٦٢ في صفة القيامة. جامع الأصول ١١/١٧٠.

أتراك كنت مفتديا من هذا المقام بما كنت جمعت من حطام بل بما جمعه جميع الأنام من حلال وحرام، بل بما لا يحصر من أضعاف ذلك ولا يحد ولا يجمع ولا يعد.

ولعلك يا هذا قد كنت في الدنيا لا ترضى بمنزلك المتسع، ولا بشملك المجتمع، ولا تقنع برزق ربك المتدفق عليك المندفع، فانظر رحمك الله لنفسك فادفع عنك جوانب هذه الحفرة، ونفسُ عنك من هذه الضمة، وأنس من هذه الوحشة، واعمل ما وجدت سبيلا للعمل، وما دمت في فسحة ومهل، ومهد المضجع، ووطيء لذلك المصرع، وارغب وتوسل واضرع وتذل، فلعل الاله المعبود الذي عم جوده الوجود، وكرمه لا محصور ولا معدود، وفيض نعمه لا مقطوع ولا محدود سيرسل منه قطرة تغمر العرش والذرة فيصيبك منه بنصيب، وبيلك منه بذنوب (٣٠)، ويعمك منه بشؤبوب (٣١) وقد انقطع الرجاء إلا منه، وسدت الأبواب إلا عنه جل وعلا وتبارك وتعالى.

حدثني الفقيه أبو الحكم بن برجان، وكان من أهل العلم والعمل رحمه الله أنهم دفنوا ميتا بقريتهم من شرق إشبيلية، فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون ودابة ترعى قريبا منهم، وإذا بالدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر، فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع، ثم ولت فارة، ثم عادت إلى القبر فجعلت أذنيها عليه كأنها تسمع، ثم ولت كذلك ثم أعادت ذلك مرة بعد أخرى، قال أبو الحكم رحمه الله: فذكرت عذاب القبر وقول النبي ﷺ إنهم ليعذبون عذابا تسمعه البهائم، والله عز وجل أعلم بما كان من أمر ذلك الميت، ذكر هذه الحكاية لما قرأ القاريء هذا الحديث في عذاب القبر، ونحن إذ ذاك نسمع عليه كتاب مسلم بن الحجاج رضي الله عنه.

وروي أن بعض النباشين نبش ذات ليلة قبرا، فلما كشف عن الميت إذا بنار تحرق الميت، فأهوت إليه منها شرارة، فهرب وتاب إلى الله عز وجل.

(٣٠) ذنوب: بفتح الذا: دلو.

(٣١) شؤبوب: دفعة من المطر.

وروى عن أبي بكر بن أبي الدنيا عن بعض أصحابه أنه قال لنباش بعد توبته : ما سبب توبتك ورجوعك إلى الله؟ قال : نبشت إنسانا فوجدته قد سمر بمسامير في جميع جسده، ومسمار كبير في رأسه، وآخر في رجله .
وقيل لآخر: ما سبب توبتك؟ قال : رأيت جمجمة إنسان قد صب فيها الرصاص، وقد روي في ٦٠/أ الحديث : من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون - أو يسرونه عنه - صب في أذنيه الآنك يوم القيامة ، ذكره البخاري (٣٢) .
ولعل هذا كان ممن يفعل ذلك ، والله أعلم بما كان عليه .

(٣٢) البخاري ٣٧٤/١٢ و ٣٧٥ في التعبير، وأبوداود رقم ٥٠٢٤ في الأدب والآنك : الرصاص المذاب . جامع الأصول ٧١٩/١١ .

الباب الثالث عشر ذكر يوم القيامة وأهواله

يضحك المرء والبكاء أمامه ويروم^(١) البقاء والموت رامة ويمشي الحديث في كل لغو ولأمر بكاه كل لبيب وصاح حدث حديثه واختصره عجز الواصفون عنه وقالوا فلتحدثه جملة وشتاتا^(٣) ودع الآن شرحه ونظامه لم نجىء من بحاره بكظامه^(٢) واعلم رحمك الله أن هذا اليوم ليس عظمه مما يوصف، ولا هوله مما يكيف، ولا يجري على مقدار مما يعلم في الدنيا ويعرف، بل لا يعلم مقدار عظمه ولا هوله إلا الله تعالى، وما ظنك بيوم عبر الله تبارك وتعالى عن بعض ما يكون فيه بشيء عظيم، قال الله عز وجل: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾^(٤). وماذا عسى أن يقول القائل فيه، وماذا عسى أن يصفه الواصف به، الأمر أعظم، والخطب أكبر، والهول أشنع، كما قال القائل:

وما عسى أن أقول أو أقوم به الأمر أعظم مما قيل أو وصفنا

(١) يروم: يريد، يطلب.

(٢) كظامه: قناة للماء في باطن الأرض.

(٣) شتاتا: متفرقا.

(٤) الآيات ١، ٢ من سورة الحج.

والأمر مهما [قد] نظرت له ألفيته^(٥) الأعظم الألفا^(٦)
يوم القيامة، وما أدراك ما يوم القيامة، ثم ما أدراك ما يوم القيامة، يوم
الحسرة والندامة، يوم يجد كل عامل عمله أمامه، يوم الدمدمة^(٧)، يوم الزلزلة،
يوم الصاعقة، يوم الواقعة، يوم الراجفة، يوم الرادفة، يوم الغاشية، يوم
الداهية، يوم الأزفة^(٨)، يوم الحاقة، يوم الطامة، يوم الصاخة،^(٩) يوم التلاق،
يوم الفراق، يوم المساق، يوم الإشفاق، يوم القصاص، يوم لات حين^(١٠)
مناص، يوم التناد، يوم الإشهاد، يوم الميعاد، يوم المرصاد، يوم المساءلة، يوم
الحساب، يوم المناقشة، يوم المآب^(١١)، يوم العذاب يوم القرار إما في الجنة وإما
في النار، يوم القضاء، يوم الجزاء، يوم البكاء، يوم البلاء، يوم تمور السماء
مورا، وتسير الجبال سيرا، يوم الحشر، يوم النشر، يوم الجمع، يوم البعث، يوم
العرض، يوم الوزر^(١٢)، يوم الحق، يوم الحكم، يوم الفصل، يوم الجزاء، يوم
عظيم، يوم عقيم، يوم عسير، يوم قمطير،^(١٣) يوم النشور، يوم المصير، يوم
الدين، يوم اليقين، يوم النفخة، يوم الصيحة، يوم الرجفة، يوم الرجة، يوم
الزجرة، يوم السكرة، يوم الفرع، يوم الجزع، يوم القلق، يوم الفرق^(١٤)، يوم
العرق، يوم الميقات، يوم يخرج الأموات وتظهر المخبات، يوم الانشقاق، يوم
الانكدار، يوم الانتشار، يوم الانقطاع، يوم الافتقار، يوم الوقوف، يوم
الخروج، يوم الانصداع، يوم الانقطاع، يوم معلوم، يوم موعود، يوم مشهود،

-
- (٥) هذا الشطر غير موزون ويستقيم الوزن إذا وضعنا كلمة مثل الفادح بعد ألفيته .
(٦) الألف: الشديد، المختلط .
(٧) الدمدمة: الهلاك .
(٨) الأزفة: القرية .
(٩) الصاخة: القرية .
(١٠) لات حين مناص: ليس حين مهرب .
(١١) المآب: المرجع .
(١٢) الوزر: الحمل والمراد الذنب .
(١٣) قمطير: الشديد من الأيام أو من الشر .
(١٤) الفرق: الخوف .

يوم تبلى السرائر، يوم تخرج الضمائر، يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئا،
٦٠/ب، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، يوم يدعى فيه إلى النار، يوم يسجن
فيه في النار، يوم تقلب الوجوه فيه في النار، يوم البروز إلى الله، يوم الصدور إلى
الله، يوم لا تنفع المعذرة، يوم لا يرتجى إلا من الله المغفرة، وأهول أسماؤه،
وأشنع ألقابه يوم الخلود، وما أدراك ما يوم الخلود؟ يوم لا انقطاع لعذابه، ولا
آخر لعقابه، ولا يكشف فيه عن كافر ما به، ونعوذ بالله ثم نعوذ بالله من بلائه
وسوء قضائه بكرمه ورحمته.

واعلم أن العرب قد تسمى الشيء بأسماء كثيرة، وتجعل له ألقابا عديدة،
تعظيما لشأنه وإكثارا لأمره، وقد سمي الله تعالى يوم القيامة بأسماء كثيرة، ولعله
من هذا، وهو تبارك وتعالى أعلم.

الباب الرابع عشر ذكر النفخ في الصور النفخة الأولى والثانية

قد تقدم الكلام في ذكر الموت وغصته وكربه وشدته، وعذاب القبر وفتنته وضيقه وظلمته، ومنكر ونكير ورؤيتهما وسماع كلامهما على فظاظتهما وغلظتهما وبشاعة منظرهما، وتكلف جوابهما، والتوقي من مقامعهما بالإقرار بالربوبية، والشهادة بالرسالة لمن ثبته الله تعالى بالقول الثابت، وأمدّه بنور الإيمان وألهمه حجته، وإن في ذكر هذا لتببيها من الغفلة، وتشيطا من الكسل، وحلا من عقال البطالة وصرفا عن اللذات وردعا عن نيل الشهوات، بل فيه ما يذهل النفوس، ويميت القلوب أن تنال من الدنيا حظها الذي يكون به حياتها ويكون به قوامها، ويقيم به رمقها، فكيف أن ينال منها غير ذلك، فكيف بما وراء هذا من جمع العباد ليوم التناد، ويوم يقوم الأشهاد، وحشر الأمم لذلك اليوم الأعظم.

واعلم أن الانسان لا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من إحدى الدارين، وصحبه من أحد الفريقين، وأنه لا تزال نفسه معذبة أو منعمة إلى يوم الجزاء والاجتماع لفصل القضاء، وبعد ذلك يتجدد النعيم أو العذاب على وجه آخر ووصفة أخرى مما سيأتي مما أمكن ذكره منه بعد هذا إن شاء الله عز وجل .
واعلم أن الله تبارك وتعالى خلق للجنة أهلا، وخلق للنار خلقاً، وهم مع الساعات راحلون، ومع الأنفاس ظاعنون^(١) إلى دار البلى ومعسكر الموتى،

(١) ظاعنون: راحلون.

ومستقر الأرواح، وكل مطلع على مكانه الذي يصير إليه، ومشرف على منزله الذي ينزل به، وبذلك يكون نعيمهم وعذابهم، وبغير ذلك مما شاء الله عز وجل، فلا يزالون هكذا يرحلون وينتقلون ويظعنون إلى أن يفرغ العدد السعيد والفريق المنعم، ويبقى من العدد الشقي والفريق المقصي بقية، وخروجهم من الدنيا في دفعة واحدة لا يحصيها إلا الله تعالى خالقها، لكنهم قليل بالإضافة إلى ما رحل منهم يكون ارتحال البقية إلى الدار الآخرة بمرة واحدة، وخروجهم من الدنيا في دفعة واحدة، وهم الذين تبعثهم الصيحة وتقوم عليهم الساعة، قال الله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾ (٢)

يروى عن الشعبي قال: لقي جبريل عيسى عليه السلام، فقال له عيسى: متى الساعة؟ فنفض جبريل أجنحته وقال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ثقلت في السموات والأرض ٦١/أ لا تأتاكم إلا بغتة.

وأما تقريب وقتها فكل آت قريب، قال تعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾ (٣) وقال عز وجل: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لا هية قلوبهم﴾ (٤). وقال تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر.﴾ (٥).

وقال الله عز وجل: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (٦)

(٢) آية ١٨٧ الأعراف.

(٣) آية ٧٧ النحل.

(٤) الآيات من ١ - ٣ من سورة الأنبياء.

(٥) آية ١ - ٥ القمر.

(٦) آية ١ النحل.

ويروى أن النبي ﷺ لما نزل عليه: ﴿أتى أمر الله﴾ وثب قائماً، فلما نزل قوله ﴿فلا تستعجلوه﴾ جلس. قال بعض العلماء إنما وثب ﷺ خوفاً منه أن تكون الساعة قد قامت، وقال ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ذكره مسلم بن الحجاج في كتابه (٧)

وذكر أيضاً عن النواس بن سمعان الكلابي عن النبي ﷺ وذكر خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وقتله الدجال، ثم خروج يأجوج ومأجوج عليه، ثم هلاكهم، ثم ذكر ما يكون من بعد ذلك من البركات والخيرات، قال: فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج (٨) الحمر، فعليهم تقوم الساعة (٩).

واعلم أن كل ميت مات فقد قامت قيامته، لكنها قيامة صغرى، وقيامة كبرى، فالقيامة الصغرى هي ما يقوم على كل إنسان في خاصته من خروج روحه وفراق أهله وانقطاع سعيه وحصوله على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، والقيامة الكبرى هي التي تعم الناس وتأخذهم أخذة واحدة، والدليل على أن كل ميت يموت فقد قامت قيامته قول النبي ﷺ لقوم من الأعراب وقد سألوه، متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم، فقال: إن يعيش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم ذكره مسلم بن الحجاج في كتابه (١٠) والقيامة التي تعم الأرض إنما تأتيهم بغتة، وتأخذهم على غفلة لما تقدم، ولكنها تقوم في يوم الجمعة في غير شهر معروف ولا سنة معروفة.

والملك الذي وكل بهذه النفخة، وجعل على يديه هذه الصعقة قد استعد لها، وتهباً لإمضائها.

(٧) مسلم رقم ٢٩٥١ في الفتن.

(٨) هذا الحديث طويل يقع في نحو ثلاث صفحات أخرجه مسلم رقم ٢٩٣٧ في الفتن وأبو داود رقم ٤٣٢١ و٤٣٢٢ في الملاحم، والترمذي رقم ٢٢٤١ في الفتن.

(٩) ومعنى تهارج الحمر: اقتتالها ووثوب بعضها على بعض، والحمر: الحمير.

(١٠) مسلم رقم ٢٩٥٢ في الفتن، والبخاري ٣١٢/١١ و٣١٣ في الرقاق جامع الأصول ٣٨٩/١٠.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده بإسناده إلى عبد الله بن مسعود قال :
 لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ لقي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ،
 فتذاكروا الساعة متى هي ، فبدأوا بإبراهيم عليه السلام ، فسألوه عنها ، فلم
 يكن عنده منها علم ، فسألوا موسى عليه السلام ، فلم يكن عنده منها علم ،
 فردوا الحديث إلى عيسى عليه السلام ، فقال : عهد الله تعالى إلي فيما دون
 وجبتها ، فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله .

ويعني بوجبتها : وقتها .

قال : فذكر من خروج الدجال ، فأهبط فأقتله ، فيرجع الناس إلى بلادهم ،
 فيستقبلهم بأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، لا يمرون بباء إلا
 شربوه ، ولا بشيء إلا أفسدوه ، فيجأرون^(١١) إلي فأدعو الله فيميتهم [فيملأ
 الأرض ربحهم] فيجأرون إلي فأدعو الله فيرسل من السماء ماء فيحمل أجسامهم
 ٦١/ب فيلقيهم في البحر ، ثم تنسف الجبال ، وتمد الأرض مد الأديم ، فعهد
 الله إلي أنه إذا كان ذلك فإن الساعة من الناس كالحامل المتم التي لا يدري أهلها
 متى تفجؤهم بولادتها ، ليلا أو نهارا .

قال النواس : فوجدت تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل وقرأ : ﴿ حتى
 إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقرب الوعد
 الحق ﴾^(١٢) .

وذكر أبو داود من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ خير يوم طلعت فيه
 الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق الله آدم ، وفيه أهبط ، وفيه تيب عليه ، وفيه
 مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين
 تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس ، وفيها ساعة لا
 يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه^(١٣) .

(١١) يجأرون : يرفعون أصواتهم بالدعاء ، يتضرعون .

(١٢) آية ٩٦ - ٩٧ الأنبياء .

(١٣) رواه أبو داود ١٠٤٦ في الصلاة ، والنسائي ١١٤/٣ و ١١٥ في الجمعة ، والترمذي رقم ٤٩١
 في الصلاة . ومالك في الموطأ ١٠٨/١ - ١١٠ في الجمعة جامع الأصول ٢٧١/٩ .

وذكر النسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه، ينتظر أن يؤمر بالنفخ فينفخ؟ قالوا: يارسول الله وكيف نقول؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا^(١٤).

وذكر الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ ما زال صاحب الصور مذ وكل به مستعدا ينظر نحو العرش، أن يؤمر فينفخ قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دريان.

ومن مسند البزار عن أبي سعيد الخدري قال: ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور، فقال: عن يمينه جبريل، وعن يساره ميكائيل^(١٥).

وذكر الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه^(١٦).

وذكر أبو بشر الدولابي من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿نفخ في الصور﴾ فقال: الصور كهيئة القرن. وقال بعض العلماء: الصور أيضا جمع صورة.

وذكر البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كل يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرض عليه: لا أرب لي فيه، وحتى يتناول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع

(١٤) أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رقم ٢٤٣٣ في القيامة. هكذا في جامع الأصول ٤٢٠/١٠ وليس فيه النسائي ولا أبو هريرة.

(١٥) رواه أبو داود رقم ٣٩٩٩ في الحروف والقراءات، وأحمد في المسند ١٠/٣ وإسناده ضعيف. جامع الأصول ٤٢٣/١٠.

(١٦) الترمذي رقم ٢٤٣٢ في صفة القيامة، وأبو داود رقم ٤٧٤٢ في السنة.

الشمس من مغربها، فإذا طلعت وراها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، ولتقومن ٦٢/أ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليب حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها. (١٧).

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ يتركون المدينة على خير ما كانت لا يغشاها إلا العوافي، - يريد عوافي السباع والطيور- ثم يخرج راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعان بغنمها، فيجدانها ملئت وحوشا، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجوهها. (١٨)

وسمعت في تفسيره أن هذين الراعيين إنما يخرجان على وجوهها من صيحة يوم القيامة، فعند هذه الصيحة تخمد الأصوات وتسكن الحركات وتخلي من أهلها الأرضون والسموات إلى يوم الخروج والميقات، والجزاء بالحسنات والسيئات، إلا أن الله تعالى ذكر عند هذه الصيحة استثناء سيأتي ما قيل فيه بعد إن شاء الله.

ثم ينزل الله مطراً فتنبت منه الأجسام، ويحيى به الرفات من العظام ويستعد لقبول الأرواح عند النفخة الثانية، قال الله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾.

وذكر مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ يخرج الدجال في أمي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً - الشك من الراوي - قال: فيبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد على وجه الأرض في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى

(١٧) البخاري ٧٢/١٣ - ٧٨ في الفتن جامع الأصول ٤٠٥/١٠.

(١٨) مسلم رقم ١٣٨٩ في الحج، والبخاري ٧٧/٤ في فضائل المدينة، ومالك في الموطأ ٢/٨٨٨ في باب ما جاء في سكنى المدينة. جامع الأصول ٣٣٢/٩.

لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ . قال : فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفها ، ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول لهم : أما تستجيبيون؟ فيقولون : فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارٌ رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا (١٩) ، قال : وأول من يسمعه رجل يلوط (٢٠) حوض إبله ، قال : فيصعق ويصعق (٢١) الناس ، ثم يرسل - أو قال ينزل - الله مطرا كأنه الطل (٢٢) - أو الظل - الشك من الراوي ، فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ (٢٣) ثم يقال : أيها الناس هلموا إلى ربكم : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ (٢٤) ثم يقال : أخرجوا بعث النار ، فيقال : من كم؟ فيقال ، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال : فذلك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ (٢٥) .

ويروى أن هذا المطر الذي تنبت منه الأجساد أنه كمني الرجال ، وقد أخبر الله أن إنشاء الأجسام مثل إخراج النبات من الأرض ، قال الله سبحانه : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور ﴾ (٢٦) ﴿ أي كما ينبت نبات الأرض بالماء كذلك تنبت الأجساد بهذا الماء .

فبينما روحك في البرزخ مع الأرواح ، وكل على عمله من فساد أو صلاح ، إذ أمر الله عز وجل بها أن تجمع ، فتقبل أرواح المؤمنين تتلأأ نورا ، وأرواح الكافرين

(١٩) اللبث : صفة العنق ، وإصفاؤه : إمالته .

(٢٠) يلوط الحوض : يصلحه حتى لا يجف .

(٢١) يصعق : يغشى عليه ويموت .

(٢٢) الطل : الندى الذي ينزل من السماء في الصحو .

(٢٣) آية ٦٨ الزمر .

(٢٤) آية ٢٤ الصافات .

(٢٥) انتهى الحديث هنا وقد رواه مسلم عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود رقم ٢٩٤٠ في

الفتن . جامع الأصول ١٠ / ٤١٧ .

(٢٦) آية ٩ فاطر .

تسود ظلمة، فيقبضها جميعا فيجعلها في الصور، ثم ينفخ اسرافيل فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض.

ويروى أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد فتدخل الحياشيم، حتى تمشي مشي السم في اللديغ.

وذكر مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما بين النفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة أربعون عاما؟ قال: أبيت؟ قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون يوما؟ قال: أبيت (٢٧)، ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس شيء من الانسان إلا ويبلى إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب (٢٧)، ومنه يركب الخلق يوم القيامة (٢٧).

وذكر أبو بكر بن أبي داود في كتاب البعث بإسناده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: يأكل التراب كل شيء من الانسان إلا عجب الذنب، قيل: وما هو يارسل الله؟ قال: مثل حبة خردل منه تنشأون. (٢٧)

وذكر أبو بكر بن أبي خيثمة بإسناده إلى لقيط بن عامر عن النبي ﷺ في حديث طويل قال فيه: ثم تلبثون ما لبثتم، ثم تبعث الصيحة فلعمرو إهلك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات والملائكة الذين مع ربك، فأصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاد، فأرسل ربك السماء بهضب (٢٨) من عند العرش، فلعمرو إهلك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى يخلقه من قبل رأسه.

وذكر الحديث، وسيأتي بكماله إن شاء الله تعالى.

قوله: فأصبح ربك يطوف (٢٩) في الأرض وقد خلت عليه البلاد: إنها هو تفهيم وتقريب إلى أن جميع من في الأرض يموت، وأن الأرض تبقى خالية،

(٢٧) مسلم رقم ٢٩٥٥ في الفتن، والبخاري ٤٢٤/٨ في تفسير سورة الزمر وقوله أبيت: أي

امتنعت عن الاجابة، لأنه لا يعرف. وعجب الذنب: أصله عند رأس العنصر.

(٢٨) هضب: مطر شديد.

(٢٩) يطوف: ليس كطواف البشر ولكنه طواف يليق بجلاله.

ليس يبقى إلا الله وحده، كما قال تعالى: ﴿كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ (٣٠).

وقوله: والملائكة الذين مع ربك، فإنه قد جاء في بعض التفاسير في قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ هو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يؤمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرافيل، ثم يؤمر ملك الموت أن يموت، فيموت، ولا يبقى إلا الذي له البقاء والعزة والكبرياء والملك الذي ٦٣ / أ لا يزول ولا يفنى تبارك وتعالى، فينادي جل جلاله: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه مجيب، ومن ذا يجيبه ولم يبق موجود إلا الواحد المعبود، فيجيب نفسه، فيقول سبحانه: لله الواحد القهار، ثم يمكث الناس في البرزخ أربعين عاما، ثم يحيى الله عز وجل إسرافيل، فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية، فذلك قوله عز وجل: ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ (٣١) قيام على أرجلهم ينظرون إلى ذلك الأمر العظيم والهول الجسيم.

واعلم رحمك الله أنك إن كنت ممن لا يشاهد هذه الصعقة العامة التي هي قيام الساعة، فلا بد لك من أن تشاهد صعقة نفسك التي تخصك، وهي صعقة موتك وخروج روحك، ولا بد من إنشائك وتسويتك ورد روحك إلى جسدك، وإخراجك من الأرض التي خلقت منها، كما قال تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ (٣٢). وقال عز من قال: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (٣٣)

قال سبحانه: وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في

(٣٠) الأيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن.

(٣١) آية ٦٨ من سورة الزمر.

(٣٢) آية ٥٥ طه.

(٣٣) آية ٧٧ - ٧٩ يس

السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . (٣٤)

وقوله عز وجل : وهو أهدون عليه : أي هوهين عليه ، لأنه ليس عند الله شيء أهون من شيء ، بل كل عليه هين .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ (٣٥) .

وقال سبحانه : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ .

وذكر النسائي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : قال الله تبارك وتعالى : كذبتني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يكذبتني ، وشتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يشتمني ، أما تكذيبه إياي فقلوه أي لا أعيده كما بدأته ، وليس آخر الخلق بأعز عليّ من أوله ، وأما شتمه إياي فقلوه : اتخذ الله ولدا ، وأنا الله أحد صمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفوا أحد . (٣٦)

وقد أخرجه البخاري بمعناه .

والاعتبار الصحيح يشهد بصحة النشأة الآخرة ، والقدرة متسعة لها ولكل ما شاءه الحكيم القدير تبارك وتعالى ، كما قال سبحانه : وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا

خلق سبحانه الماء من لا شيء ، وأخرجه من غير شيء ، أخرجه من عدم إلى الوجود ، فكونه بعد أن لم يكن شيئا ، ثم خلق منه الإنسان فجعله آية عجبا ، وعبرة ظاهرة في شكله وتخطيطه وحركاته وسكناته ، وما فيه من الحكمة ، وما أودعه من عجائب الصنعة مما يطول وصفه ، ويتسع شرحه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وأنشدوا :

أيا ابن آدم والآلاء (٣٧) سابغة ومزنة (٣٨) الجود لا تنفك عن ديم (٣٩)

(٣٤) آية ٢٧ الروم .

(٣٥) آية ١٠٧ الأنبياء .

(٣٦) النسائي ١١٢/٤ في الجنائز ، والبخاري ٥٦٨/٨ . جامع الأصول ٤٤٢/٢ .

(٣٧) الآلاء سابغة : النعم شاملة .

(٣٨) مزنة : سحابة .

(٣٩) ديم : جمع ديمة وهي المطر في سكون بلا رعد ولا برق .

هل أنت ذاكر ما أوليت من حسن براك^(٤١) باريء هذا الخلق من عدم أنشاك من حمأ^(٤٢) ولا حراك به مكمل الأدوات آية عجباً ترى وتسمع كلا قد حببت به هداك بالعلم سبل الصالحين له ماذا عليك له من نعمة غمرت غراء كالشمس قد ألفت أشعتها فاشكر ولست مطيقاً شكرها أبدا رزق وأمن وإيمان وعافية ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾^(٤٣) * إن ربك هو الخلاق العليم^(٤٤).

فمن آمن بهذا لم يضق صدره عن الإيمان بالنشأة الثانية، وكان منتظراً لها، مشتغلاً بالفكرة فيها، وإنما لموضع الانتظار وموضع الاشتغال آناء الليل وأطراف النهار لكن حب العاجل والاشتغال بالحاضر، والنظر إلى هذا الخيال القائم صرف وجه القلب عن استعمال الحقيقة في هذا الأمر، وطمس عينه عن النظر إليها، وسد مجاري فكره عن التصرف فيها، فلواشتغل ونظر وتفكر لأذهله ذلك عن الأهل والمال، وشغله عن قيل وقال، وصرفه عن لذة الحال [إلى] المال، لكنه إن لم ينظر الآن، فسينظر في وقت لا ينفعه فيه النظر، ولا ينقضي له به وطر^(٤٥) وسيقدم فيعلم.

(٤٠) حوّلت: اعطيت.

(٤١) براك: خلقك.

(٤٢) حمأ: طين أسود.

(٤٣) آية ١١ لقمان.

(٤٤) آية ٨٦ الحجر.

(٤٥) وطر: حاجة، مطلب.

الباب الخامس عشر

٦٣/ ب في انبعاث الناس من قبورهم ، وصفة الأرض التي
يحشرون عليها ، وكيف يحشرون وذكر أول من ينشق عنه
القبر يوم القيامة وما جاء أنهم يبعثون على نياتهم وما كانوا
عليه

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : قال
رسول الله ﷺ : يعوذ عائذ بالبيت ، فيبعث الله بعثا ، فإذا كانوا بيضاء من
الأرض خسفت بهم . قلت : يا رسول الله فكيف بمن كان كارها؟ قال : يخسف
به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته . (١)

وعن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ إذا أراد الله بقوم عذابا
أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم .
وعن جابر بن عبدالله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : يبعث كل عبد
على مامات عليه . (٢)

وأما أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة فنبينا محمد ﷺ كما ذكر مسلم من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ أنا سيد ولد آدم يوم
القيامة ، وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع وأول مشفع . (٣)

(١) مسلم رقم ٢٨٨٢ في الفتن ، والترمذي رقم ١٢٧٢ في الفتن أيضا .

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٨٧٨ في الجنة . جامع الأصول ٤٣٠/١٠ .

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٢٧٨ في الفضائل وأود داود رقم ٤٧٦٣ في المناق جامع الأصول

وذكر البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش فلا أدري أكذلك كان أم بعد النفخة الآخرة، ويروى: فأكون أول من يفيق، وهو الأكثر.

وقال البخاري أيضا في بعض ألفاظ هذا الحديث: «فإذا أنا بموسى اخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أقام قبلي أم جوزي بصعقة الطور»^(٤)، لم يكن عنده ﷺ علم حتى يعلمه الله عز وجل، فقد أخبر ﷺ أنه أول من ينشق عنه القبر وهو حديث صحيح مشهور.

واعلم رحمك الله انه إن لم تشق سمعك النفخة الأولى في الصور لهلاك هذا المعمور، فلا بد أن تشق سمعك النفخة الثانية، لبعثرة القبور وقيام الخلائق ليوم النشور ١/٦٤ وتحصيل ما في الصدور.

﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الانسان ماله * يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها * يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾^(٥)
﴿إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجعت

الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا﴾^(٦)
﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة * وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾^(٧)

﴿إذا الشمس كورت * وإذا النجوم انكدرت * وإذا الجبال سيرت * وإذا العشار عطلت * وإذا الوحوش حشرت﴾^(٨)

(٤) البخاري ٥٢/٥ في الأنبياء ونفخ الصور، جامع الأصول ٨/٥١٤.

(٥) سورة الزلزلة كاملة.

(٦) آية ١ - ٦ الواقعة.

(٧) آية ١٣ - ١٨ الحاقة.

(٨) آية ١ - ٦ التكوير.

فناهيك من صيحة يقوم لها الأموات، وتحيا بها العظام الرفات، وحسبك من هدة تنهد لها الجبال، وتعود كالكتيب المهيل من الرمال كما قال عز وجل: يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا. (٩)

﴿يوم يكون الناس كالفرش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾. (١٠)

﴿فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾. (١١)

وهذه أهوال لا بد لك من مكابدتها، وأحوال لا بد لك من مشاهدتها، يخرج سهمك فيها بما خرج، ويلج بك سعيك منها فيما يلج، فإما بنزول في درك، وإما بارتقاء في درج.

وقد صح هذا عندك فماذا أعددت له؟ وثبت في نفسك فيماذا تستقبله؟ وماذا تقوله؟ وماذا تفعله؟ لطال ما دعاك الداعي فتصامت، ونصحك النصيح فتعاميت، وذكرك المذكر فتناسيت، فقد وقفت على العيان مما كان عرضه عليك بالأمس البرهان، وجاءك به الرسول وخاطبك به القرآن، فهل من رجعة أو سبيل اليوم إلى استعمالك تلك الدعوة؟ هيهات طمعت في غير مطمع، وسمعت مالا يسمع، إن كنت تريد أن تعود الى الدنيا أو ترجع، فتفكر الآن في نفسك، وكونك في قبرك، إذا سمعت انشقاق الأرض من فوقك، ووقع ذلك الصوت الهائل في سمعك، صوت تتصدع له الأكباد لو أذن لها في الانصداع، وتقطع له القلوب لو أذن لها في الانقطاع. قال الله تعالى: ﴿واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾. (١٢)

وفي الحديث أن هذا الاجتماع يكون بالشام.

روى أبو بكر البزار في مسنده من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله

ﷺ: الشام أرض المحشر والمنشر.

(٩) آية ١٤ المزل.

(١٠) آية ٤ - ٥ القارة.

(١١) آية ٣٧ الرحمن.

(١٢) آية ٤١ - ٤٢ ق.

ويروى أن المنادي ينادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام
البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

وهذا النداء خلاف الصيحة العظمى، ففكر وأطل فكرك في عظيم تلك
الصيحة، وشدة تلك النفخة، وتخيل قيام الناس وثوراهم من قبورهم دفعة
واحدة، وانبعاثهم بمرة واحدة، وأنت بينهم وفي جملتهم منكسفا وجهك، متغيرا
لونك، متعثرا قدمك، قد ملأ قلبك الفزع، وقصم ظهرك ذلك ٦٤/ب
المستمع، وانت حيران عطشان سكران شاخص البصر نحو النداء، مستمعا
الى ذلك الدعاء، ولو وجدت مطارا لطرت، ومفرا لفررت. ﴿كلا لا وزر﴾ إلى
ربك يومئذ المستقر * ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر. (١٣)

﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات
والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان﴾ * بأي الاء ربكما تكذبان. (١٤)

ويروى عن الأوزاعي عن بلال بن سعد أنه قال: إن للناس جولة يوم
القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿يقول الانسان يومئذ أين المفر﴾. (١٥)

وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان
قريب﴾. (١٦)

وقال سبحانه: ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ * يوم تولون مدبرين ما
لكم من الله من عاصم. ﴿ (١٧)

وأنشدوا:

ناد في القوم بيوم التناد وأعد فيهم حديث المعاد
فالحديث اليوم في غير هذا محدث في القلب صدع (١٨) الفؤاد
وخلو القلب عن ذكر يوم ذكره أذهب طيب الرقاد

(١٣) آية ١١ - ١٣ القيامة.

(١٤) آية ٣٣ - ٣٤ الرحمن.

(١٥) آية ١٠ القيامة.

(١٦) آية ٥١ سبأ.

(١٧) آية ٣٢ - ٣٣ غافر.

(١٨) صدع: شق.

ومن الغبن خفي وياد
 في الدياجي بكاء العهد
 وصف وصاف بليغ وشاد
 ووجوه قد طليت بالحداد
 بالجبال الشم^(٢٠) وسط الوهاد^(٢١)
 بسكاري غير سكر التناد
 من تليد كان او من تلاد
 نازلا منه الى بطن واد
 رائحا في نيل ذاكم وغاد
 جانب الأمن ولين المهاد
 وعدته^(٢٢) عن هواه عواد
 نشرت شعلاتها في البلاد
 مزجت دمعته بالجساد^(٢٤)
 بات من كربته في ازدياد
 لأمور بين أيدي العباد
 كالبحار السبع عند الثماد^(٢٥)
 فمراد الحق ترك المراد

غبن^(١٩) في الرأي للعقل بادٍ
 ولأمر ما بكاه رجال
 اي يوم ضاق عن حالتيه
 مشهد تبيّض فيه وجوه
 يجعل الولدان شيبا ويرمي
 وترى الناس سكارى وما هم
 فدع الدار ومادار فيها
 واقطع الأرض على ظهر طودٍ
 طالبا كهف نجاة لتنجو
 واقدح النار بجفن مروع
 رام أمرا فشتتته امور
 فطوى كشحا^(٢٣) على محرقات
 وأفض دمعة باكٍ حزين
 وإذا ما أراد ذكرى لذنوب
 وقليل كل هذا قليل
 وكروب عند ما أنت فيه
 فاجهد النفس وجاهد هواها

وقيل في قوله تعالى : ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ .^(٢٦)

-
- (١٩) الدياجي : الظلمات .
 (٢٠) الشم : العالية .
 (٢١) الوهاد : جمع وهدة وهي المنخفضات .
 (٢٢) عدته عواد : صرفته شواغل .
 (٢٣) طوى كشحا : ضم واستمر .
 (٢٤) الجساد : الدم اليابس .
 (٢٥) الثماد : الحفر يجتمع فيها المطر .
 (٢٦) آيه ٣٧ النور .

أما تقلب القلوب فانتزاعها من أماكنها، فتغص بها الحناجر، فلا هي تخرج، ولا هي ترجع إلى مواضعها، قال الله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميمٍ ولا شفيعٍ يطاع﴾. (٢٧)

وأما تقلب الأبصار فمن الكحل إلى الزرق، ومن البصر إلى العمى قال الله تعالى: ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾. (٢٨)

وقال سبحانه: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ما أوهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾. (٢٩)

فتفكر في بهتك وحيرتك وانكسارك وذلك وافتقارك وقتلك يوم لا تجد إلا عملك الذي عملت، وسعيك الذي سعيت، قال الله تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه﴾. (٣٠)

وأنشء بعضهم من قصيدة:

واذكر رقادك في الثرى	في قعر مظلمة بهيم
قد نحيت تلك الحلوى	واستبدلت تلك الرسوم
واعترضت من حلل الغنى	وحلاه خلقان العديم
وتركت ويحك مفرداً	لا أهل فيه ولا حميم
حيران تفزع للبكا	لهفان تأنس بالغموم
حتى ينادي بالسورى	فتقوم أسرع ما تقوم
عريان مصطفق الحشا	هيان مجتمع الهموم
والناس قد رجفت بهم	حرب هنالك عقيم
في مازق تهفو به	لفحات نيران السموم

(٢٧) آية ١٨ غافر.

(٢٨) آية ١٠٢ طه.

(٢٩) آية ٩٧ الاسراء.

(٣٠) آية ٣٠ آل عمران.

وبدت هناك سرائر قد كنت قبل لها كتوم
ورأيت في محصولها ما شئت من خسرٍ وشوم^(٣١)
ان لم يجد بالعفو من يعفون الذنب العظيم
واعلم انه كلما عظم قدر رجل في الدنيا صغر هناك، وكلما كثر جاهه في
الدنيا قل هناك، إلا من كان شعاره التقوى في الدنيا، وطريقته المثلى، وكل ما
تراه او تسمع به من ملك جبار او عزيز قهار قد قاد الأجناد وأكثر الأمداد ودوخ
البلاد وأذل العباد، فهو في ذلك اليوم كالذرة في الرغام تطؤه الأقدام، ويمحقه
ذلك الزحام، كما قال القائل:

ألم تسمع عن النبأ العظيم
وزلزال يهد الأرض هدا
وأهوال كأطواد^(٣٣) رواس
فمن رأس يشيب ومن فؤاد
وسكران ولم يشرب حيا
ومرضعة قد اذهلها أساها
ومؤتمة تولت عن بنيتها
وحبلى اسقطت ذعرا وخوفا
وهذا مشهد لا بد منه
وما كسرى وقيصر والنجاشي
بذاك اليوم الا في مقام
وما للمرء الا ما سعاه
وأنت كما علمت ورب أمر
فدع عينيك تسبح في معين

وعن خطب خلقت له جسيم
ويرمي في الحضيضة^(٣٢) بالنجوم
تلاطم في ضلوع كالهشيم
يذوب ومن هموم في هموم
وهيمان ولم يعلق بريم
فما تدري الرضيع من الفطيم
وألقت باليتيمة واليتيم
فيا لله لليوم العقيم
وجمع للحديث وللقديم
وتبّع والقروم^(٣٥) بنو القروم
أذل من التراب لذى السليم
لدار البؤس او دار النعيم
يكون أذاه أوقع بالعليم
وقلبك ذره يقلب في جحيم

(٣١) شوم : شؤم .

(٣٢) الحضيضة : القرار من الأرض عند أسفل الجبل .

(٣٣) أطواد : جمع طود وهو الجبل العظيم .

(٣٤) ريم : غزال .

(٣٥) القروم : جمع قرم بفتح القاف وسكون الراء وهو الفحل إذا ترك عن الركوب والعمل . والمراد

السيد في قومه .

وشق جيوب صبرك شق شكلي تعلقت ابنها رجلا سهوم (٣٦)
وماذا الأمر ذلكم ولكن تُشبهه بالبحاريد الكريم

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: أيها الناس، إنكم محشورون الى الله عزوجل حفاة عراة غرلا، كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين، ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام ألا وإنه سيُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وكننت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ ان تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴿ فيقال لي: انهم لم يزالوا مدبرين على أعقابهم منذ فارقتهم (٣٧)

٦٥/ب وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم، (٣٨) ثم ينقاض أهل السماء الدنيا على الأرض، فأهل السماء الدنيا وحدهم أكثر من جميع أهل الأرض جنهم وإنسهم بالضعف، فيفزعون إليهم ويقولون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: سبحانه ليس فينا، وهوات، ثم ينقاض أهل السماء الثانية فينتشرون على وجه الأرض، فأهل السماء الثانية وحدهم أكثر من أهل السماء الدنيا وأهل الأرض من جنهم وإنسهم بالضعف فيفزعون إليهم، فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: سبحانه ليس فينا، وهوات، ثم ينقاض أهل السموات ساء ساء، كلما انقضت ساء انتشر أهلها على وجه الأرض، فيكونون أكثر من أهل السموات التي تحتهم وأهل الأرض جنهم وإنسهم بالضعف، ويفزع إليهم أهل الارض فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: سبحانه ليس فينا، وهوات، ثم ينقاض أهل السماء السابعة، فينتشر

(٣٦) سهوم: السهام: تغير اللون مع الهزال، داء يصيب الابل.

(٣٧) مسلم رقم ٢٨٦٠ في الجنة، والبخاري ٣٣١/١١ - ٣٣٣ في الرقاق وفي الأنبياء، والتفسير جامع الأصول ٤٢٤/١٠.

أما الآيتان: وكننت عليهم شهيدا، إلى العزيز الحكيم فهما آية ١١٧ - ١١٨ من سورة المائدة.

(٣٨) الأديم: الجلد.

أهلها على وجه الأرض، فلهم وحدهم أكثر من أهل السموات ومن جميع أهل الأرض جنهم وإنسهم بالضعف، وينزل الله تبارك وتعالى في ظلل من الغمام والملائكة.

فتفكر في هذا المشهد العظيم، واليوم العقيم، يوم يجمع فيه هذا الخلق كلهم من الملائكة ومن بني آدم من لدن آدم عليه السلام إلى آخر الدنيا، فتفكر في أي أرض تسعهم، وأي مكان يحملهم، فكيف وينضاف إليهم جميع الوحوش النافرة والهوام الشاردة، إلى غير ذلك من المخلوقات التي ضمها ذلك الموعد، وحشرها ذلك المشهد، فتفكر الآن فيهم، كيف يساقون وكيف يجمعون، وكيف يحشرون، من بين محمول قد مدت ظلال الرحمة عليه، وجمعت الأمانى في يديه وبين ساع على قدميه، وآخر مجرور على خديه ومصروع لهول ما بين يديه.

كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ قال: إنكم تحشرون إلى الله عز وجل، رجالا وركباناً، وتجرون على وجوهكم (٣٩) - ويروى ويجرون على وجوههم - على أرض بيضاء قاع صفصف مستوية، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، لا ربوة يستتر بها، ولا وهدة يحتفى فيها، بل هو صعيد واحد، ليس فيه شيء قائم ولا علم مرتفع، قال الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً﴾. (٤٠)

وقال النبي ﷺ: يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد. (٤١)
وقال ﷺ: يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر. (٤٢)

ذكر الحديثين مسلم من حديث سهل وأبي هريرة.
يريد ﷺ أرضاً مستوية لا جبل فيها، ولا أكمة، ولا ربوة، ولا وهدة،

(٣٩) إلى هنا رواه الترمذي رقم ٢٤٢٦ في صفة القيامة. وبقية الكلام للمؤلف وليس من الحديث.

(٤٠) الآيتان ١٠٥ و ١٠٦ من سورة طه.

(٤١) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد ٣٢٣/١١ في الرقاق، ومسلم رقم ٢٧٩٠ في المنافقين. جامع الأصول ٤٢٤/١٠.

(٤٢) مسلم رقم ١٩٤ في الايمان، والبخاري ٢٦٤/٦ في الانبياء، جامع لأصول ٤٨٢/١٠.

أرض بيضاء نقية، لم يسفك عليها دم، ولا عمل عليها خطيئة، ولا ارتكب فيها محرم.

قال الله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾. (٤٣)

وفي حديث ثوبان ان النبي ﷺ ٦٦/ أسئل أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، قال: هم في الظلمة دون الجسر- والجسر هو الصراط..

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنهم على الصراط. ذكر هذين الحديثين مسلم بن الحجاج.

فتفكر في هذا المجتمع، وهذا الهول الأشنع، والخطب الأقطع الأبعث، وفيمن يحضره ويشهده، ويعانيه ويبصره، وكيف يقومون على أقدامهم ويشخصون بأبصارهم، وأنت معهم في ضيق مقام وطول قيام.

قد جُمعوا جمع الدراهم في الصرة المشدودة، والنبيل في الكنانة (٤٤) المشحونة، وقد انشقت السماء فوقهم، وذابت عليهم وسالت على رؤوسهم، وطاشت الأبواب، وذهلت الأوهام، وتحيرت العقول وتلجلجت الألسن فلم يدر قائل ما يقول، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا، وضعفت الحركات فلا تسمع للأقدام حسا فيالك من هول تنهد منه الجبال فكيف الرجال، ونالك من خطب تنشق منه السماء فكيف الأحشاء.

فتفكر فيما يشق سمعك من ذلك، وما يخلع قلبك من الروع الذي هنالك، وكيف بك إذا رأيت الشمس قد كورت فذهب ضوءها والنجوم قد طمست فمحي نورها وزالت عن مواضعها، وفقدت في مطالعها وانتشرت على من تحتها وعلى من كان من سمتها، واشتبك الناس بعضهم في بعض، وتداخل الخلق بعضهم في بعض فصاروا كالفراش المبثوث، (٤٥) وقامت الملائكة على أرجاء السماء، وأحاطت بالخلائق من كل الأرجاء، والناس حفاة عراة

(٤٣) آية ٤٨ إبراهيم.

(٤٤) الكنانة: جعبة أسهام.

(٤٥) المبثوث: المنتشر.

غزل^(٤٦) كما خلقوا، فيالك من يوم يختلط فيه الرجال مع النساء وقد أمنوا أن ينظر بعضهم إلى بعض، أو يحس بعضهم ببعض.

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا، قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض. (٤٧)

وذكر النسائي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ تحشرون حفاة عراة غرلا، فقالت له زوجته: أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: يا فلانة لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. (٤٨)

فيالك من هول ما أعظمه، ومن كرب ما أشده، ومن خطب ما أبشعه. وإياك أن تستبطيء هذا اليوم وأن تستبعده، فما سيرك اليه ببطيء، وما هومك ببعيد وإن طال المدى وامتدت الغاية، فكل آتٍ قريب، وكل ما يكون سيكون، قال الله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾. (٤٩)

وقال سبحانه: ﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فأسأل العاديين﴾. (٥٠)

وقال تعالى: ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم الا عشرا * نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما﴾. (٥١)

اي يقول ذلك بعضهم الى بعض سرا، فيقول أعدلهم قولا، وأرجحهم عقلا: «ان لبثتم الا يوما» اي ما لبثتم في القبور الا يوما واحدا.

(٤٦) غزل: غير محتونين.

(٤٧) مسلم رقم ٢٨٥٩ في الجنة والبخاري ٣٣٤/١١ في الرقاق.

(٤٨) النسائي ١١٤/٤ في الجنازات جامع الأصول ٤٢٦/١٠.

(٤٩) آية ٤٥ يونس.

(٥٠) آية ١١٢ - ١١٣ المؤمنون.

٦٦/ب ويروى عن مجاهد انه قال: للكفار هجعة قبل يوم القيامة، يجدون فيها طعم النوم، فاذا بعثوا قالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟ فيقول لهم المؤمنون: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. فيخرج الخلائق مذعورين خائفين وجلين، وإذا المنادي ينادي: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، فيطمع في هذا المؤمنون والكافرون فينادي المنادي: الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، فينكس الكفار رؤوسهم ويبقى المسلمون، فينادي المنادي الثالثة، الذين آمنوا وكانوا يتقون، فينكس أهل الكباثر رؤوسهم ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد زال عنهم الخوف، وذهب عنهم الحزن، وغشيهم الفوز والأمن، ذلك «يوما يجعل الولدان شيبا» ولا ترى فيه إلا حزينا كثيبا، يوم تشقق السماء كأنها السحاب، وتسير الجبال كأنها السراب.

واعلم ان الناس يحشرون يومئذ على ثلاثة أصناف: ركبانا ومشاة، وعلى وجوههم، كما قال تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين الى جهنم وردا﴾. (٥٢) والوفد: في اللغة القوم المكرمون يقدون من بلادهم في جماعتهم وإلى ملكهم، فينزلهم ويكرمهم، والورد: العطاش يساقون كما تساق الابل وغيرها من الأنعام، تسوقهم الملائكة بسياط من النار الى النار. وقوم يمشون على وجوههم.

ذكر الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنفا مشاة، وصنفا ركبانا، وصنفا على وجوههم، قيل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حذب وشوك. (٥٣)

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث قتادة عن أنس بن مالك أن رجلا

(٥١) آية ١٠٢ - ١٠٤ طه.

(٥٢) آية ٨٥ - ٨٦ مريم.

(٥٣) الترمذي رقم ٣١٤١ في تفسير سورة بني إسرائيل. وقال هذا حديث حسن جامع الأصول

. ٤٢٧/١٠

قال: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: أليس الذي أمشاه على رجله في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة [حين بلغه] بلى وعزة ربنا. (٥٤)

قال أبو حامد: - وذكر هذا الفصل - في طبع الأدمي إنكار كل ما لم يأنس به ولم يشاهده، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها لأنكر المشي من غير رجل، والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك، فيياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفتها قياس الدنيا، فإنك لو لم تكن شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها، فأحضر رحمك الله في قلبك صورتك وأنت قد وقفت عاريا مكشوبا ذليلا مدحورا متحيرا مبهوتا، منتظرا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء. (٥٥)

ذكر أبو بكر بن أبي خيثمة بإسناده إلى لقيط بن عامر العقيلي قال: خرجت أنا ٦٧/أ وصاحب لي حتى قدمنا على رسول الله ﷺ المدينة لأنسلاخ رجب فأتينا رسول الله ﷺ حين انصرف من صلاة الغداة، (٥٦) فقام في الناس خطيبا، فقال: أيها الناس، ألا إني قد خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام، ألا لأسمعكم اليوم، ألا فهل من امرئ بعثه قومه فقالوا له اعلم ما يقول لنا رسول الله ﷺ ألا ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه، أو يلهيه الضلال، ألا إني مسئول، هل بلغت، ألا اسمعوا تعوا، ألا اجلسوا، ألا اجلسوا، فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره، قلت: يا رسول الله ما عندك من علم الغيب؟ قال: فضحك لعمر والله وهز رأسه وزعم أنني ابتغي تسخطه، فقال: ضن (٥٧) ربك بخمس من الغيب لا يعلمها إلا الله، وأشار بيده، قلت: وما هن يا رسول الله؟ قال: علم المنية، قد علم متى منية

-
- (٥٤) مسلم رقم ٢٨٠٦ في المنافقين، والبخاري ٣٣٠/١١ في الرقاق، وفي تفسير سورة الفرقان.
جامع الأصول ٤٢٦/١٠.
(٥٥) إحياء علوم الدين ٥١٤/٤.
(٥٦) الغداة: الصبح.
(٥٧) ضن: بخل والمراد أنه لم يخبر بها أحدا.

أحدكم ولا تعلمونه، وعلم النبي متى يكون في الرحم، قد علمه ولا تعلمونه،
وعلم ما في غد، قد علم ما أنت طاعم^(٥٨) غدا، ولا تعلمونه، وعلم يوم الغيث
يشرف عليكم أزلين^(٥٩) مشفقين^(٦٠)، فيظل يضحك قد علم أن غوثكم
قريب، قال لقيط. لم نعد من رب يضحك خيرا، قال: وعلم يوم الساعة.
قلت: يا رسول الله إني سائلك عن حاجتي فلا تعجلني، قال: سل عما شئت،
قلت: يا رسول الله عَلَّمْنَا مَا لَمْ يَعْلَمِ النَّاسُ وَمَا تَعْلَمُ قَالَ: تَلْبَثُونَ مَا لَبِثْتُمْ، ثُمَّ
يَتَوَفَّى نَبِيِّكُمْ، ثُمَّ تَلْبَثُونَ مَا لَبِثْتُمْ، ثُمَّ تَبْعَثُ الصَّيْحَةَ، فَلَعْمَرُوا إِلَهُكَ مَا تَدْعُ عَلَى
ظَهْرهَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مَاتَ، وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ مَعَ رَبِّكَ، فَأَصْبَحَ رَبُّكَ يَطُوفُ فِي
الْأَرْضِ قَدْ خَلَّتْ عَلَيْهِ الْبِلَادُ، فَأَرْسَلَ رَبُّكَ السَّمَاءَ بِهَضْبٍ مِنْ عِنْدِ الْعَرْشِ،
فَلَعْمَرُوا إِلَهُكَ مَا تَدْعُ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ مِصْرَعٍ قَتِيلٍ وَلَا مَدْفَنٍ مَيْتٍ إِلَّا شَقَّتْ الْقَبْرَ
عَنْهُ، حَتَّى تَخْلُقَهُ مِنْ قَبْلِ رَأْسِهِ، حَتَّى يَسْتَوِيَ جَالِسًا، يَقُولُ رَبُّكَ مَهِيمٌ لِمَا كَانَ
فِيهِ، فَيَقُولُ: يَا رَبُّ أُمَّتِي أَمْسَ وَأَحْيَيْتِي الْيَوْمَ، لِعَهْدِهِ بِالْحَيَاةِ يَحْسِبُهُ حَدِيثًا
بِأَهْلِهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَيْفَ يَجْمَعُنَا بَعْدَ مَا تَمَزَّقْنَا الرِّيحَ وَالْبَلَى وَالسَّبَاعَ؟
قَالَ: أَنْبِئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ الْإِلَهَ الْأَرْضِ أَشْرَفَتْ عَلَيْهَا وَهِيَ مَدْرَةٌ بِالْيَةِ،
فَقُلْتُ: لَا تَحْيَا أَبَدًا، ثُمَّ أَرْسَلَ رَبُّكَ عَلَيْهَا السَّمَاءَ، فَلَمْ تَلْبَثْ عَنْهَا إِلَّا أَيَّامًا حَتَّى
أَشْرَفَتْ عَلَيْهَا فِإِذَا هِيَ شَرِبَةٌ وَاحِدَةٌ، فَلَعْمَرُوا إِلَهُكَ هُوَ أَقْدَرُ عَلَى أَنْ يَجْمَعَكُمْ
مِنَ الْمَاءِ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ نَبَاتَ الْأَرْضِ، فَتَخْرُجُونَ مِنَ الْأَضْوَاءِ وَمِنْ مِصَارِعِكُمْ،
فَتَنْظُرُونَ إِلَيْهِ سَاعَةً، وَيَنْظُرُ إِلَيْكُمْ. قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَنَحْنُ مَلَأْنَا الْأَرْضَ
وَهُوَ شَخْصٌ وَاحِدٌ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ؟ قَالَ: أَنْبِئُكُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
الشمس والقمر آية صغيرة ترونها ساعة واحدة ويريانكم لا تضامون في رؤيتهما
ولعمرو وإلهك هو أقدر على أن يراكم وترونها منهما، أو ترونها ويريانكم ولا
تضامون في رؤيتهما. قلت: يا رسول الله فما يفعل ربنا بنا إذا لقيناه؟ قال:

(٥٨) طاعم: آكل الطعام.

(٥٩) أزلين: واقعين في ضيق وشده.

(٦٠) مشفقين: خائفين.

(٦١) إل: عهد.

تُعَرِّضُونَ عَلَيْهِ بَادِيَةً صَفْحَاتِكُمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ، فَيَأْخُذُ رَبِّكَ بِيَدِهِ غُرْفَةً مِنَ الْمَاءِ فَيَنْضِجُ بِهَا قَبْلَكُمْ، فَلَعِمُوا وَإِهْلِكْ مَا يَخْطِئُ وَجْهَ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنْهَا قَطْرَةٌ، فَأَمَّا الْمُسْلِمُ فَتَدْعُ وَجْهَهُ مِثْلَ الرِّبِطَةِ الْبَيْضَاءِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَتَحْطُمُهُ مِثْلَ الْحَمِيمِ الْأَسْوَدِ، أَلَا ثُمَّ يَنْصَرِفُ نَبِيكُمْ ٦٧/ب وَيَفْرُقُ عَلَى أَثَرِهِ الصَّالِحُونَ، فَيَسْلُكُونَ جَسْرًا مِنَ النَّارِ، يَطَّأُ أَحَدُكُمْ الْجَمْرَةَ، فَتَقُولُ حَسَّ، يَقُولُ رَبِّكُمْ أَوْأَنَّهُ، أَلَا فَتَطْلَعُونَ عَلَى حَوْضِ الرَّسُولِ، لَا يَظْمَأُ وَاللَّهُ نَاهِلُهُ، (٦٢) فَلَعِمُوا وَإِهْلِكْ مَا يَبْسُطُ وَاحِدٌ مِنْكُمْ يَدَهُ الْإِلَاقَةَ عَلَيْهَا قَدَحٌ يَطْهَرُهُ مِنَ الطُّوفِ (٦٣) وَالْبَوْلُ وَالْأَذَى، وَتَجْبَسُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، فَلَا تَرَوْنَ مِنْهَا وَاحِدًا. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَ نَبَصُرُ الْأَرْضَ؟ قَالَ: بِمِثْلِ سَاعَتِكُمْ هَذِهِ وَذَلِكَ مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي يَوْمِ أَسْفَرْتَهُ الْأَرْضُ، وَوَجْهَتَهُ الْجِبَالُ. قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَ نَجْزِي مِنْ حَسَنَاتِنَا أَوْ سَيِّئَاتِنَا؟ قَالَ: الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ تَغْفِرَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْجَنَّةُ وَالنَّارُ؟ قَالَ: لَعِمُوا وَإِهْلِكْ إِنْ النَّارُ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، مَا مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يَسِيرُ الرَّكَّابُ بَيْنَهُمَا سَبْعِينَ عَامًا، وَإِنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، مَا مِنْهَا بَابٌ إِلَّا يَسِيرُ الرَّكَّابُ بَيْنَهُمَا سَبْعِينَ عَامًا. قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَى مَا نَطْلَعُ مِنَ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: عَلَى أَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مَصْفَى، وَأَنْهَارٍ مِنْ كَأْسٍ مَا بِهَا صَدَاعٌ وَلَا نَدَامَةٌ، وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَفَاكِهِةٍ، فَلَعِمُوا وَإِهْلِكْ مَا تَعْلَمُونَ وَخَيْرٌ مِنْ مِثْلِهِ مَعَهُ، وَأَزْوَاجٌ مَطْهَرَةٌ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ لَنَا فِيهَا أَزْوَاجًا وَهِيَ مَصْلُحَاتٌ؟ قَالَ: الصَّالِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ، تَلْذَوْنَهُنَّ مِثْلَ لَذَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَلْذَوْنَكُمْ غَيْرَ إِنْ لَا تَوَالِدُوا. وَذَكَرَ بَاقِيَ الْحَدِيثِ. (٦٤)

(٦٢) الناهل: الشارب.

(٦٣) الطوف: الموت الجارف.

(٦٤) رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ لَقِيطُ بْنُ عَامِرٍ ذَكَرَهُ ابْنُ حَجْرٍ فِي الْإِصَابَةِ تَرْجُمَةً رَقْمَ ٧٥٥٥ وَقَالَ إِنَّهُ عَنِ اشْتَهَرَ بِكُنْيَتِهِ: (أَبُو رَزِينِ الْعَقِيلِيِّ) وَأَشَارَ أَيْضًا إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ وَقَالَ أَنَّهُ يَقَعُ فِي نَحْوِ رَقْمَيْنِ فِي صِفَةِ الْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ وَذَكَرَ أَنَّهُ أَخْرَجَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي زَوَائِدِ الْمُسْنَدِ، وَأَبُو جَعْفَرِ بْنِ شَاهِينَ وَالطَّبْرَانِيُّ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عِيَّاشِ الْأَنْصَارِيِّ، وَقَالَ أَنَّ صَاحِبَ أَبِي رَزِينِ الَّذِي خَرَجَ مَعَهُ اسْمُهُ نَهْيِكُ بْنُ عَاصِمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْمُتَنَفِّقِ. كَمَا أَنَّ أَبَا رَزِينِ مِنْ بَنِي الْمُتَنَفِّقِ وَكَانَ وَاقِدًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَمَا سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ. انظُرِ الْإِصَابَةَ ٣٣٠/٣.

فصل ذنو الشمس من الناس يوم القيامة

ذكر مسلم من حديث المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقدار ميل ، قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل ، أمسافة الأرض او الميل الذي تكحل به العين ، قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون الى كعبيه ، ومن من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون الى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق الجاما ، وأشار رسول الله ﷺ بيده الى فيه . (١)

وعن أبي أمامة [الباهلي] رضي الله عنه عن النبي ﷺ في هذا الحديث قال : تدنو الشمس يوم القيامة على مقدار ميل ، ويزاد فيها كذا وكذا ، تغلى منها الهوام كما تغلى القدور على الأثافي ، ذكره قاسم بن أصيغ .

وذكر مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ «يوم يقوم الناس لرب العالمين» قال : يقوم أحدهم في رشحه الى أنصاف أذنيه . (٢)
وذكر مسلم عن أبي هريرة في هذا الحديث ان رسول الله ﷺ قال : ان العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا ، وإنه ليلبغ الى أفواه الناس ، أو الى آذانهم - الشك من الراوي - . (٣)

وروى عن أنس أنه قال : لم يلق ابن آدم قط شيئا منذ خلقه الله أشد عليه من الموت ، ثم ان الموت لأهون عليه مما بعده ، إنهم ليلقون من هول ذلك اليوم وشدته حتى يلجمهم العرق ، حتى لو أرسلت فيه السفن لجرت .

(١) مسلم رقم ٢٨٦٤ في صفة الجنة ، جامع الأصول ١٠/٤٣٠ .

(٢) قال عبدالرحيم العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : متفق عليه ٤/٥١٤ .

(٣) قال الغزالي في الإحياء : كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح ٤/٥١٤ .

٦٨/ أ وذكر أبو بكر البزار في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ إن العرق ليلزم المرء في الموقف ، حتى يقول : يا رب إرسالك بي إلى النار أهون علي مما أجد ، وهو يعلم ما فيها من شدة العذاب .

ثم تفكر في ذلك الازدحام والانضمام والاتساق والالتصاق ، واجتماع الإنس والجن ، ومن يجمع من سائر أصناف الحيوان ، وانضغاطهم وتدافعهم واختلاطهم ، ولا فرار ولا انتصار ، ولا ملاذ ولا انتقاذ ، وقربت الشمس منهم قبل تكويرها ، وكانت كمقدار ميل ، وزيد في حرها ، وضوعف في وهجها ، ولا ظل الا ظل عرش ربك ، بما قدمته من كسبك ، وقد انضاف الى حر الشمس حر الأنفاس لتزاحم الناس واحترق القلوب بما غشيها من الكروب ، واشتد الفُرق ، وعظم القلق ، وسال من الأجسام العرق ، وانبعث من كل موضع من الجسد وانبتق ، وكان الناس فيه على قدر أعمالهم ، كما تقدم .

فتفكر في نفسك أيها المسكين ، وقد ضاق نَفْسك وزاد قلقك ، وسال عرقك وجرى من جميع بدنك من قرنك الى قدمك ، ووصل منك الى حيث أوصلته بعملك ، إما الى كعبك أو صاعدا حتى الى اذنك ، فانظر الى هذا الحال ، وتفكر في هذا الوبال ، وسوء هذا المآل ، واعلم رحمك الله انه لو سال عرقك في الدنيا طول عمرك وأضعافه في طاعة ربك وفي رضا سيدك على أن لا تعرق في ذلك اليوم لكان ذلك يسيرا ، ولكنك به جديرا ، ولكانت سلامتك منه غنما^(٤) كثيرا ، وفوزا كبيرا .

وأنشدوا :

قَدَّمَ	لنفسك	نزلا	وارفع	لرأسك	ظلا
في يوم	تضحى	البرايا	في	شمسه	تتقلبي
فمن	جسوم	تصلي	ومن	رؤوس	تقلبي
ولا	ملاذ ^(٥)	هناكم	الا	سراير	تبلي

(٤) غنم : مكسب وعكسه الغرم أي الخسارة .

(٥) ملاذ : ملجأ .

وكل	ما	كان	مخفى	هناك	للخلق	يجلى (٦)
فمن	دم	في	دموع	تهل	في	الخد هلا
ومن	جوى	في	ضلوع	قد حل	فيها	المحلا
فيا	أخي	والمنايا		تثل (٧)	عرشك	ثلا
وهذه		مفزعات		تكفيك	قولا	وفعلا
وإنه	الأمر	جد		وليس	يا	صاح هزلا
فاعمل	له	في	تراخ	للعمر	من	قبل ألا
وقد	نصحتك	فاقبل		واسمع	لنصحي	وإلا (٨)

* * * *

(٦) يجلى: يكشف ويوضح.
(٧) تثل: تهدم، تذهب بالعز.
(٨) وإلا: أي أن لا تقبل النصيح تندم.

فصل طول يوم القيامة

اعلم رحمك الله أن يوم يوم القيامة ليس طوله كما عهدت من طول الأيام، بل هو آلاف من الأعوام، ينصرف فيه هذا الأنام على الوجوه والأقدام حتى ينفذ فيهم ما كتب لهم وعليهم من الأحكام، ولس يكون خلاصهم دفعة واحدة، ولا فراغهم في مرة واحدة، بل يتخلصون ويفرغون بفراغ اليوم، لكن طول ذلك اليوم «خمسین ألف سنة» فيفرغون بفراغ اليوم، ويفرغ اليوم بفراغهم.

وليس أيضا هذا اليوم مثل أيام الدنيا التي تكون على حكم دوران الفلك، اذا ذهب الليل جاء النهار، وإذا ذهب النهار جاء الليل، حكمة الله التي حيرت العقول، وأكلت^(١) الأبصار، وأخرست الألسن.

ليس هناك ليل، انها هو وقت واحد على صفة واحدة، وهذا الذي يسمى يوما انها هو ٦٨/ب مقدار من ذلك الوقت، يطوله الله عزوجل ما شاء، ويقصره ما شاء، ويسمي ما شاء بما شاء.

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت لهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله إما الى الجنة، وإما الى النار. قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم ردها، الا إذا

(١) أكلت: أتعبت.

كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر^(٢) اوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلا واحدا، تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها، كلما مرّ عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين الف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار. قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئا، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا أعضاء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مرّ عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار.^(٣) كذا روى، وإنما هو: كلما مر عليه اخراها رد عليه أولاها.

قال الحسن البصري: فما ظنك بقوم قاموا على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة، لم يأكلوا فيها أكلة، ولم يشربوا فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا، واحترقت أجوافهم جوعا، انصرف بهم إلى النار، فسقوا من عين آنية، قد أنى حرها واشتد نضجها.

واعلم أن هذا اليوم يتلون ألوانا، ويستحيل حال الناس فيه أحوالا، فينبعثون فيه من قبورهم، ويساقون فيه إلى محشرهم ومكان القضاء فيهم، ويقفون فيه ما شاء الله أن يقفوا، شاخصة أبصارهم إلى السماء، مبهوتين سكارى حيارى من عظيم ما أصابهم، وهول ما نزل بهم، ثم يموج بعضهم في بعض، ويدخل بعضهم في بعض، ويمشون من نبي إلى نبي يطلبون الشفاعة في الاستعجال والانفصال، والتخلص من تلك الأهوال والأنكال، وليس كل الناس يكلم الأنبياء، وليس كل الناس يمشي إليهم، ومن الناس من يكون بمنزلة الرغام^(٤) تطؤه الأقدام في ذلك الزحام، وضيق ذلك المقام، ويأتي في هذا اليوم وقت منه يتكلم فيه المشركون، فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين،

(٢) القاع: المكان المستوي في الأرض. والقرقر: الأملس.

(٣) مسلم رقم ٩٨٧ في الزكاة، والبخاري ٢١٢/٣ في الزكاة وفي التفسير.

وأبو داود رقم ١٦٥٨ و ١٦٥٩ و ١٦٦٠ في الزكاة، والنسائي ١٢/٥ - ١٤ في الزكاة. جامع الأصول ٥٥٤/٤.

(٤) الرغام: التراب.

ويأتي عليهم منه وقت آخر لا يتكلمون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، وفيه تكون المحاسبة والمناقشة، وفيه يتعلق الناس بعضهم ببعض، ويطلب بعضهم بعضا، ويخاصم بعضهم بعضا، فمن الناس من يخفف عليه اليوم حتى لا يجد فيه مشقة طول، ولا يرد له فيه رغبة ولا سؤل.

وذكر ابن وهب من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم! فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة كان يصلها في الدنيا، فمن الناس من يطول مقامه وحبسه الى آخر اليوم، ومنهم من يكون انفصاله في ذلك اليوم في مقدار يوم من أيام الدنيا وفي ساعة من ساعاته، ٦٩/أ أو فيما شاء الله من ذلك، أو يكون رائحا في ظل كسبه وعرش ربه، ومنهم من يؤمر به الى الجنة بغير حساب ولا عذاب، كما أن منهم من يؤمر به الى النار في أول الأمر، من غير وقوف ولا انتظار، أو بعد يسير من ذلك النهار، وبالجملة فليس يتم ذلك اليوم إلا وقد نزل كل إنسان بداره، واستقر في قراره من جنته أو ناره.

فتفكر ايها الانسان في طول ذلك اليوم، وفي طول ذلك القيام فيه، مع ذلك الحال الأخطر، والفرع الأكبر، والهول الذي لا يكيف ولا يقدر، فاختر لنفسك كم تريد أن تقف فيه، وكيف تريد أن تكون فيه، مادام النظر إليك، والاختيار بيدك مع توفيق ربك عز وجل لك، ومعونته إياك. وأنشد بعضهم:

يا آمن الساحة لا يذعر
وإنما أنت كمصبورة^(٥)
والمرء منصوب له حتفه
وهذه النفس لها حاجة
بين يديك الفرع الأكبر
حم^(٦) رداها وهي لا تشعر
لو أنه من عمه^(٧) يبصر
والعمر عن تحصيلها يقصر

(٥) مصبورة: المحبوسة للقتل.

(٦) حُمُّ رداها: قرب موتها.

(٧) عمه: تردد في الضلال، تحير.

كانت به أهيم^(٨) إذ تزجر
 كالماء عن عنصره يقصر^(٩)
 لو أنها يا ويحها تعذر
 لو أنها تنظر إذ ينظر
 يبصرها الأكمه^(١٠) والمبصر
 [ما] مثلها من روعة تسكر
 ينزله الأعظم والأحقر
 وصاحب الكبره يصغر^(١١)
 نكيرها المعروف والمنكر
 من مشهد ما قدره يقدر
 يَنْهَدُ منها الملاء الأكبر
 كل الذي من وصفه يذكر
 من أبْحُرَتْبِعِهَا أَبْحِر
 أخبرك الصادق اذ يخبر
 عذر وما مثلك من يعذر

وكلما تزجر عن مطلب
 وإنما تقصر مغلوبة
 وربما ألفت معاذيرها
 وناظر الموت لها ناظر
 وزائر الموت له طلعة
 وروعة الموت لها سكرة
 وبين أطباق الثرى منزل
 يترك ذو الفخر به فخره
 قد ملأت ارجاءه روعة
 وبَعْدُ ما بعد وأعظم به
 يرجف منه ذا الورى رجفة
 وليس هذا الوصف مستوفيا
 وإنما ذا قطرة أرسلت
 وقد أتاك الثبت عنه بما
 فاعمل له ويك وإلا فلا

واعلم أنه كلما طال قيامك في طاعة الله وانتصابك له، قصر قيامك في ذلك اليوم، وقل تعبك فيه، وكلما كثر تصرفك في طاعة الله سبحانه، وإقبالك وإدبارك في قضاء حاجة مسلم، ومشيك فيه ومشاركتك له، يقل مشيك في ذلك اليوم، ويقل تعبك فيه ويقدر ما تبذل تعطى، وكما تدين تدان.

ولعلك يا هذا تستطيل ركعتين تقرأ فيهما حزبا أو حزينين، تقوم بهما لربك جل جلاله، ولعلك تعجز عن مشي ميل في قضاء حاجة مسلم، أو ميلين،

(٨) أهيم: أكثر تعلقا.

(٩) هذا البيت والذي قبله سقطا من ش.

(١٠) الأكمه: الذي ولد أعمى.

(١١) هذا البيت سقط من ز.

وبين يديك هذا اليوم الطويل المديد، والكرب العظيم الشديد، الذي لا يقصر إلا على من أطال التعب لله، ولا يسهل الا على من تحمل الشدائد في ذات الله، ولعلك ان صليتهما ليلة عجزت عنها ليلة أخرى، ولعلك ان مشيت يوما في حاجة مسلم برمت (١٢) من ذلك يوما آخر، وضجرت منه وكسلت عنه، وربما وقفت لسماح حديث فارغ يكون تقديره أكثر من حزب أو حزبين، وربما مشيت في فضول الميل والميلين وأكثر من ذلك، ولو تدبرت في أمرك ونظرت فيما يراد بك لسهل عليك من أمرك العسير، وقرب عليك فيه البعيد، فاعمل رحمك الله في أيام قصار ٦٩/ب وعمر قصير، لأيام طوال وعمر طويل.

(١٢) برمت: ضجرت.

الباب السادس عشر

ذكر الحوض

قد سمعت رحمك الله يعطش هذا اليوم والتهابه، وما يصل الى القلوب من أواره واحتراقه، وأن الماء في ذلك اليوم اعز موجود وأعظم مفقود، وأن لا منهل مورود إلا حوض صاحب المقام المحمود ﷺ، ولا مشرب لأتمته سواه، ولا تبرد اكبادهم إلا به، وأن الشربة منه تروي من الظما، وتشفي من الصدى، وتذهب كل داء، فلا يظمأ شاربها ولا يسقم بعدها أبدا، وأنها ترد العقل العازب والشباب الذاهب، ويؤوب معها من الزمن الصالح ما لم يكن قبل بآيب، وانه لا يرد ذلك الحوض الا من ورد في الدنيا حوض شرعته، وتمسك بسنته، وتوفي على ملته، وإلا فيجلى عنه ولا يدنومنه ولا يكاد، ويضرب عنه ضربا تتقطع له الجوانح والأكباد.

وأنا أذكر لك من أحاديث الحوض ما يسر الله عزوجل .

ذكر مسلم من حديث ثوبان ان النبي ﷺ قال: إني لبعقر حوضي أذود الفاس عنه لأهل اليمن، أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم، فسئل عن عرضه، فقال: من مقامي الى عمان، وسئل عن شرابه، فقال: أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل يفت فيه ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب، والآخر من ورق. (١)

وعن أبي ذر قال: قلت يارسول الله ما أتية الحوض؟ قال: والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية، أتية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمان الى أيلة، ماؤه أشد بياضا من

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٣٠١ في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ جامع الأوصول

.٤٦٤/١٠

والورق: الفضة.

اللبن، وأحلى من العسل. (٢)
ومن حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ ترى فيه أباريق الذهب والفضة عدد نجوم السماء.

وذكر الترمذي عن أبي سلام الحبشي قال: حدثني ثوبان عن النبي ﷺ قال: حوضي من عدن إلى عمّان البلقاء، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، أكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الشعث رؤوساً، الدنس ثياباً، الذين لا ينكحون المنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد، فقال عمر بن عبدالعزيز: قد نكحت المنعمات - فإظمة بنت عبد الملك - وفتحت لي أبواب السدد، لا جرم لا أغسل رأسي حتى يشعث، ولا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ. (٣)

وذكر البزار من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: حوضي من كذا إلى كذا فيه من الآنية عدد النجوم، أطيب ريحاً من المسك وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأبيض من اللبن، من شرب منه لم يظمأ أبداً، ومن لم يشرب لم يرو أبداً.

وذكر مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو بين ظهري أصحابه: إني على الحوض أنتظر من يرد عليّ منكم، فوالله ليقطعن دوني رجال، فلاقولن: أي رب مني ومن أمي، فيقول: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، مازالوا يرجعون على أعقابهم. (٤)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، (٥) وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ بعدها أبداً.

(٢) رواه مسلم والترمذي، وليس عند الترمذي يشخب فيه مزابان من الجنة. ومعنى يشخب يسيل ويجري كما يجري الميزاب. والحديث في صحيح مسلم رقم ٢٣٠٠ في الفضائل. وعند الترمذي رقم ٢٤٤٧ في صفة القيامة.

(٣) الترمذي رقم ٢٤٤٦ في صفة القيامة.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٢٩٤ في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ جامع الأصول ٤٧١/١٠.

(٥) الورق: الفضة وهو يفتح الواو وكسر الراء.

وقالت أسماء بنت ابي بكر: قال رسول الله ﷺ: إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليّ منكم، وسيؤخذ أناس من دوني فأقول: يارب مني ومن أمّتي، فيقال: أما شعرت ما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم. (٦)

قال: فكان ابن أبي مليكة يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو أن نفتن عن ديننا.

وعن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة زوج النبي ﷺ عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أيها الناس، إني لكم فرط على الحوض، فيأيام لا يأتين أحدكم، فيذب عني كما يذب البعير الضال، فأقول: فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً. (٧) وقال النسائي في هذا الحديث: يا أيها الناس، بينا أنا على الحوض إذ مرّ بكم زُمرًا، فيذهب بكم الطرق، فأناديكم ألا هلم إلى الطريق فينادي مناد من ورائي: إنهم بدلوا بعدك، فأقول: ألا سحقاً سحقاً.

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أني رأيت إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدك من أمّتك يا رسول الله؟ قال: رأيت لو أن رجلا له خيل غوّ محجلة بين ظهري خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون غرّاً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا ليذاذن رجال عن حوضي كما يذاذ البعير الضال، أناديهم ألا هلم هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول سحقاً سحقاً.

وذكر البخاري من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: إني فرط لكم على الحوض، من مرّ يشرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم. زاد أبو سعيد الخدري رضي الله عنه

(٦) أخرجه البخاري ٤١٥/١١ في الرقاق، وفي الفتن، ومسلم رقم ٢٢٩٣ في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ جامع الأصول ٤٧٢/١٠.

(٧) أخرجه مسلم رقم ٢٢٩٥ في الفضائل، باب إثبات الحوض. جامع الأصول ٤٧٢/١٠.

قال: فأقول: أمّتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً لمن غير بعدي. (٨)

وذكر (٩) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: بينا إنا قائم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، فقلت: أين؟ فقال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك القهقري على أديبارهم. ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم، فقلت: أين؟ فقال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أديبارهم القهقري، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم. (١٠)

٧٠/ب قوله ﷺ «بيناً أنا قائم» يريد: على الحوض، كما ورد في حديث آخر.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إني ممسك بحجزكم» (١١) عن النار، وتغلبوني وتقتحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، وأوشك أن أرسل حجزكم وأفرط لكم عن - أو على - الحوض - الشك من الراوي، وتردون عليّ معاً وأشتاتا، (١٢) فأعرفكم بأسمائكم وسيماكم كما يعرف الرجل الغريبة من الإبل في إبله، ويذهب بكم ذات الشمال، وأناشد فيكم رب العالمين، فأقول: أي رب رهطي، أي رب أمّتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادي يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له رغاء* فينادي يا محمد يا محمد، فأقول: لا

(٨) البخاري ٤١٢/١١ و٤١٣ في الرقاق، باب في الحوض، ومسلم رقم ٢٣٠٤ في الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ جامع الأصول ١٠/٤٦٩.

(٩) وذكر: أي البخاري.

(١٠) البخاري ٤١٣/١١ في الرقاق. باب في الحوض، جامع الأصول ١٠/٤٧٠ وهمل النعم: الماشية السائبة.

(١١) حجزكم: جمع حجرة وهو موضع التكة من السراويل. * الرغاء: صوت البعير.

(١٢) اشتاتا: متفرقين.

أملك لك من الله شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسا له حممة، (١٣) ينادي يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل قشعا من آدم ينادي يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغت.

وذكر أبو بكر البزار عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا فرط بين أيديكم، فإن لم تجدوني فإني على الحوض، وسيأتي أقوام رجال ونساء، ثم لا يذوقون منه شيئاً.

وذكر ابن السكن من حديث سويد بن (١٤) جبلة قال: قال رسول الله ﷺ: لتزدهن هذه الأمة على الحوض ازدحام واردات الحمُر.

وذكر مسلم من حديث أنس بن مالك قال: بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا ذات يوم إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليّ آتفا سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فصل لربك وانحر ﴿إن شانئك هو الأبر﴾. (١٥) ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة، آتيته عدد النجوم، فيختلج (١٦) العبد فأقول: يا رب إنه من أمي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك. وفي طريق آخر عن أنس أيضاً: نهر وعدنيه ربي في الجنة عليه حوضي، ويروي عليه حوض.

وفي حديث لقيط - وذكر البعث - قال: تسلكون جسراً من النار، يطأ أحدكم الجمرة، فيقول: حس، ألا فتطلعون على حوض الرسول، لا يظماً والله ناهله، فلعمرو وإلهك ما يبسط واحد منكم يده إلا وقع عليها قدح يطهره من الطوف والبول والأذى، رواه عن النبي ﷺ. (١٧)

(١٣) الحممة: كوزن زلزلة، سهيل الفرس ممزوج بحنين.

(١٤) سويد بن جبلة: ذكره ابن حجر في الإصابة رقم ٣٨١٦، وقال ليس له صحبة.

(١٥) سورة الكوثر.

(١٦) يختلج: يضطرب.

(١٧) علقتنا على هذا الحديث في باب انبعاث الناس الخ.

وذكر في هذا الحديث أن الحوض بعد الجسر، وما تقدم في الحوض من الأحاديث التي لم يحدّ له فيها موضع هو الصحيح المشهور. وذكر الترمذي من حديث الحسن عن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن لكل نبي حوضاً، وإنهم ٧١/أ يتباهون أيهم أكثر واردة، (١٨) وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة.

وهذا يروي عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا. (١٩) وذكر أبو بكر البزار من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: إن لي حوضاً ما بين بيت المقدس إلى الكعبة أبيض من اللبن، فيه عدد الكواكب أنية، وأنا فرطكم على الحوض، ولكل نبي حوض، وكل نبي يدعو أمته، فمنهم من يرد عليه فئام (٢٠) من الناس، ومنهم من يرد عليه ما هودون ذلك، ومنهم من ترد عليه العصاة، ومنهم من يرد عليه الرجال والرجل، وفيهم من لا يرد عليه أحد، فيقول: اللهم قد بلغت - ثلاثاً - وذكر باقي الحديث.



-
- (١٨) الواردة: الذين يردون للشرب.
(١٩) مرسلًا: المرسل من الحديث ما رواه التابعي وسقط منه اسم الصحابي.
(٢٠) فئام: بكسر الفاء: الجماعة من الناس.

الباب السابع عشر ذكر الشفاعة الأولى التي تكون لفصل القضاء بين الناس

وهي المختصة بنبينا ﷺ فلا تكون إلا له ، ولا يشركه فيها أحد غيره .
 ذكر البخاري من حديث آدم بن علي قال : سمعت ابن عمر يقول : ان
 الناس يصيرون يوم القيامة جثي ، (١) كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع
 لنا ، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة الى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام
 المحمود (٢) رواه حمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن النبي ﷺ .
 وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة ، قال : كنا مع النبي ﷺ في دعوة ،
 فدفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهش منها نهشة (٣) ثم قال : أنا سيد الناس يوم
 القيامة وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ،
 فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم
 والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون إلى ما قد بلغكم ،
 ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم
 بآدم ، فيأتون آدم ، فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من
 روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن
 فيه ، (٤) ألا ترى ما قد بلغ (٥) بنا؟ فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم
 يغضب مثله قبله ، ولن يغضب مثله بعده ، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته ،

-
- (١) جثيا وجثي : مفردهما جاث جثا يجثو : أي قام على أطراف أصابعه أو جلس على ركبتيه .
 النسان - جثا وأشار إلى هذا الحديث قال تعالى : ونذر الظالمين فيها جثيا ، آية ٧٢ مريم .
 (٢) في ش : وقد .
 (٣) في ش إلى قد ما بلغكم .
 (٤) في ش ألا ترى ما نحن .
 (٥) بلغنا .

نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيري (٦) اذهبوا الى نوح فيأتون نوحا ، فيقولون : يا نوح إنك (٧) أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد ساءك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله قبله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى ابراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله قبله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات ، فذكرهن أبوحيان في الحديث ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى ، فيقولون : يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد قتلت نفسا ، ولم أوامر بقتلها ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكلمت الناس في المهدي ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا ، نفسي ، نفسي ، نفسي (٨) اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد فيأتون محمدا ﷺ فيقولون : يا محمد أنت رسول الله ﷺ وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنتلق فأتي تحت العرش فأقع ساجدا للربي ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأقول : أمي يارب ، أمي يارب

(٦) في ش اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح .

(٧) في ش أنت أول الرسل .

(٨) في ش نفسي امرتين مع جميع الرسل .

ثلاثا، فيقال: يا محمد أَدْخِلْ من امتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو كما بين مكة وبصرى. (٩) أو كما بين مكة وهجر.

(٩) الترمذي رقم ٢٤٣٦ في صفة القيامة. والبخاري ٢٦٤/٦ و٢٦٥ في الأنبياء، وفي التفسير. ومسلم رقم ١٩٤ في الأيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. جامع الأصول ٤٨٢/١٠. والمصراع: أحد غلقي الباب، وتسميه العامة ضلفة. بصري: بلد بسوريا، هجر: بلد في منطقة الاحساء قرب القطيف.

الباب الثامن عشر المساءلة والتقارير والمحاسبة والقصاص

قال الله تعالى : ﴿فوريك لنسألهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾ . (١)
وقال سبحانه : ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون
يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا
حاضرا ولا يظلم ربك أحدا﴾ . (٢)

وقال جل جلاله : ﴿وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء
بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما
عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ . (٣)

ذكر قاسم بن أصبغ من حديث سعيد بن عبد الله عن أبي برزة الأسلمي
قال : قال رسول الله ﷺ لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع عن
عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه،
وعن جسمه فيما أبلاه. ذكره الترمذي (٤) أيضا.

وذكر مسلم من حديث صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر: كيف
سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال : سمعته يقول : يدنى المؤمن يوم
القيامة من ربه تعالى ، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول : هل
تعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول : رب أعرف، قال : فإني سترتها عليك في الدنيا،

(١) الآيتان ٩٢، ٩٣ من سورة الحجر.

(٢) آية ٤٩ الكهف.

(٣) الآيتان ٦٩ و ٧٠ الزمر.

(٤) الترمذي رقم ٢٤١٩ في صفة القيامة، وقال حديث حسن صحيح . انظر جامع الأصول
٤٣٦/١٠.

وإني أغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين. (٥)

وذكر مسلم أيضا من حديث ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ من حوسب يوم القيامة عذب، فقلت: أليس قد قال الله تعالى: فسوف يحاسب حسابا يسيرا، قال: ليس ذلك الحساب، وإنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب. (٦)

وذكر أبو بكر البزار من حديث أنس عن النبي ﷺ انه قال: يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم [التي] من الله عليه، فيقول الله تعالى: لأصغر نعمة - أحسبه قال في ديوان النعيم - خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح ثم تنتحي، فتقول وعزتك ما استوفيت، وتبقى الذنوب والنعم، وقد ذهب العمل، فإذا أراد الله أن يرحم عبده، قال: يا عبدي، قد ضاعفت لك حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك، وأحسبه قال: ووهبت لك نعمي.

وذكر أبو بكر البزار من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: يؤتى بالملك والمملوك، والزوج والزوجة حتى يقال للرجل: شربت يوم كذا وكذا على لذة، ويقال للزوج: خطبت يوم كذا فلانة مع خطاب، فزوجتكها وتركتهم.

وفي الخبر المشهور أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أكلا تمرا ويسرا ورطبا، ثم أكلا خبزاً ولحماً، أطعمهما رجل من الأنصار، وأكلاه على جوع، فقال لهما النبي ﷺ لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة. والحديث ذكره مسلم. (٧)

(٥) مسلم رقم ٢٧٦٨ في التوبة، والبخاري ٧٠/٥ في المظالم وغيرها.

انظر جامع الأصول ٤٥٦/١٠.

(٦) مسلم رقم ٢٨٧٦ في الجنة، والبخاري ١٧٦/١ في العلم. جامع الأصول ٤٣٢/١٠.

(٧) مسلم رقم ٢٠٣٨ في الأشربة، والترمذي رقم ٢٣٧٠ في الزهد.

جامع الأصول ٦٩١/٤.

وذكر الترمذي من حديث عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: لما نزلت ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير: يا رسول الله أكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم، قال: إن الأمر إذن لشديد. (٨)

وذكر النسائي من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أسلم العبد فحسن إسلامه كتب الله عز وجل له كل حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها، إلا أن يتجاوز الله عنها. (٩)

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار. (١٠)

وذكر البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يخلص المؤمنون من النار فيجلسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة منه بمنزله الذي كان في الدنيا. (١١)

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لتؤدَّن الحقوق

(٨) الترمذي رقم ٣٢٣٤ في تفسير سورة الزمر، والحاكم ٤٣٥/٢ ووافقه الذهبي وأورده السيوطي في الدر المنثور ٣٢٧/٥، وزاد نسبه لأحمد جامع الأصول ٣٣٦/٢.

(٩) النسائي ١٠٥/٨ في الايمان، وإسناده حسن.

(١٠) مسلم رقم ٢٥٨١ في البر، والترمذي رقم ٢٤٢٠ في صفة القيامة جامع الأصول ٤٣١/١٠.

(١١) البخاري ٧٠/٥ في المظالم وفي الرقاق. جامع الأصول ٥٤٩/١٠.

إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء. (١٢)
وذكر أبو بكر الشافعي من حديث أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين
تنتطحان، فقال: يا أبا ذر هل تدري فيم تنتطحان؟ قلت: لا أدري، قال:
لكن الله يدري ويقضي بينهما يوم القيامة.

وذكر البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: من كانت
عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ
لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح
عليه. (١٣)

وذكر أبو بكر البزار عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ الظلم
ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه، فاما الظلم الذي لا
يغفره فالشرك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤) وأما
الظلم الذي يغفره فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي
لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين بعضهم من بعض.

وذكر مسلم من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ إني لأعلم آخر
أهل الجنة دخولا الجنة، وآخر أهل النار خروجا منها، رجل يؤتى به يوم القيامة
فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فيعرض عليه صغار ذنوبه،
فيقال أعملت يوم كذا وكذا وكذا؟ فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو
مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة
حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا، فلقد رأيت رسول الله ﷺ
ضحك حتى بدت نواجذه (١٥)

(١٢) مسلم رقم ٢٥٨٢ في البر، والترمذي رقم ٢٤٢٢ في صفة القيامة.

جامع الأصول ٤٣٢/١٠. والجلحاء: التي لا قرن لها.

(١٣) البخاري ٧٣/٥ في المظالم، والترمذي رقم ٢٤٢١ في صفة القيامة.

جامع الأصول ٤٣١/١٠.

(١٤) آية ١٣ لقمان.

(١٥) مسلم رقم ١٩٠ في الايمان، والترمذي رقم ٢٥٩٩ في صفة جهنم جامع الأصول

٤٥٩/١٠.

وذكر الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: يجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج^(١٦) فيوقف بين يدي الله عز وجل، فيقول الله له: أعطيتك وخولتني وأنعمت عليك فماذا صنعت؟ فيقول: يارب جمعته وثمرته فتركته أكثر ما كان، فارجعني آتاك به، فيقول له أرني ما قدمت، فيقول: يارب جمعته وثمرته وتركته أكثر ما كان فارجعني آتاك به، فإذا عبد لم يقدم خيرا فيمضى به الى النار. (١٧)

فتفكر أيها المسكين في نفسك بينما أنت في هذا اليوم الذي وصف لك، وفي هذا الحال الذي حدثت عنه، وقد جيء بجهنم كما روي في الصحيح تقاد بسبعين ألف زمام^(١٨) مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تكون بمراى من الخلق ومسمع، يرون لهيبتها ويسمعون زفيرها.

اذ أخذ بضبعيك،^(١٩) وقبض على عضديك، وجيء بك تتخطى الرقاب، وتخرق الصفوف والخلائق ينظرون اليك حتى اذا وقفت بين يدي الله تعالى فسئلت عن القليل والكثير، والنقير والقطمير، ولا تجد أحدا يجاوب عنك بلفظة، ولا يعينك بكلمة، ولا يرد عنك جوابا في مسألة.

وأنت قد شاهدت من عظم الأمر وجلالة القدر، وهيبة الحضرة ما أذهب بيانك، وأخرس لسانك، وأذهل جنانك،^(٢٠) ونظرت يمينا وشمالا وبين يديك، فلم تر الا النار وعملك الذي كنت تعمل، وكلمك رب العزة جل جلاله بغير حجاب يحجبك، ولا ترجمان يترجم لك، كما جاء في الخبر الصحيح وسئلت عن كل شيء كان منك في حق نفسك وحق غيرك، وقيل لك: مالك من أين اكتسبته؟ ومن أين جمعته، وفيم أنفقته؟ فما ظنك بنفسك في ذلك اليوم؟ وكيف يكون فزعك وجزعك؟

(١٦) البذج: كلمة فارسية تكلم بها العرب، وهو أصفه ما يكون من الحملان: وجمعه بذجال.

(١٧) الترمذي رقم ٢٤٢٩ في صفة القيامة. جامع الأصول ١٠/٤٣٧.

(١٨) زمام: لجام.

(١٩) ضبعك: الواحد ضبع وهو وسط العضد أو الابط.

(٢٠) جنانك: قلبك.

وكيف تكون حيرتك ودهشتك إذا قيل لك : عاملت فلانا يوم كذا وكذا في كذا وكذا، وأخذت منه كذا وكذا، وغنته في كذا وكذا، وتركت نصيحته في كذا وكذا وفي هذه السلعة ولم تبين له هذا العيب، أو غصبت فلانا أو ظلمت فلانا أو غششت فلانا، أو قتلت فلانا، أو فعلت كذا وكذا وقيل لك أدل بحجة، قم بيينة، ائت ببرهان، انفذ بسطان، فأردت الكلام فلم تبين، وجئت بعذر فلم يستبن، هيهات أنى لك الكلام ولم تنفحه؟ وأنى لك بالعدرو في الدنيا لم تصححه؟

قال الله تعالى : ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صَفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا * إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا ﴿ (٢١)

وقال الحارث بن أسد المحاسبي في موعظة له : أحذرك يا أخي ونفسي يوما آلى الله فيه على نفسه ألا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه، حتى يسأله عن عمله كله، دقيقه وجليله، (٢٢) سره وعلائيته، فانظر بأي بدن تقف بين يديه، وبأي لسان تجيبه، فأعدّ للسؤال جوابا، وللجواب صوابا. فتفكر الآن وانظر بأي قدم تقف في ذلك المقام، وبأي أذن تسمع ذلك الكلام. فما شئت من قلب يخلع، وكبد تصدع، ولسان يتلجلج، وأحشاء تتموج، ونفس تريد أن تخرج فلا تترك أن تخرج.

فانظر ما أشأم تلك الأرباح التي ربحتها، وأخسر تلك المعاملات التي عاملت بها، انظر كيف ذهب عنك مسراتها وبقيت حسراتها، والشهوات التي في ظلم العباد انفذتها كيف ذهب عنك الفرح بها وبقيت تبعثها، وانظر الآن بكم تفندي من ذلك الموقف، وبكم تتخلص من ذلك السؤال.

أتقول لو كان لك نصف الدنيا أكنت تعطيه في التخلص من ذلك المقام، أي لعمر والله والدنيا وأضعافها مرات، فكيف ولم يحصل لك من عمرك الا درهمات يسيرة أنفقتها في أيام يسيرة، وربما لم تنفقها ولعلك كنت أنت جامعها والمتعب فيها، وكان المنفق لها سواك، والمتلذذ بها غيرك إما زوج ابنتك أو زوجة

(٢١) الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة النبأ.

(٢٢) دقيقة وجليلة: صغيرة وكبيرة.

ابنك ، أو غيرهما من ورثتك ، وأنت إنما حصل لك منها ما أنفقتة في الحال ، لا ما أعددته للمآل ، وتركت ذلك لمن لا يحمذك ولا يشكرك ، ولعله ينفقها في معصية فتكون أنت السبب فيها ، ويكون مالك العون عليها ، أو ينفقها في طاعة فترى مالك في ميزان غيرك تشقى أنت به وينعم به سواك .

وإن كنت قد أنفقتها في معصية ربك ومخالفة مولاك واتباع هواك ، وأطلقت فيها شهوتك ، وأرسلت فيها لذتك فيا ويلك ثم يا ويلك من أسير شد خناقه وأحكم وثاقه وثبتت على عنقه أرباقه ، وطولب بما جناه ، وأخذ بما كسبت يده ، وقيل له : لا تلم فيما أنضح من جسمك وطبخ ، فيداك اوكتا وفوك نفخ ، ولا تبك من سهم أنفذك وأصمك ، فطرفك أشار إليك ، وساعدك رماك .

وإن اخذت ذلك بالغضب والظلم وسائر أنواع المحرمات والأموار المحظورات فقد علمت ما أعد الله للظالمين ، وما تواعدهم في كتابه المبين .

وأعلم أن في هذا اليوم يصدق الله تعالى قوله : ﴿ فلنسلأن الذين أرسل اليهم ولنسلأن المرسلين * فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ . (٢٣) ﴿ فوربك لنسلنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾ . (٢٤)

فبدأ بالأنبياء عليهم السلام ، فيقول ماذا أجبتهم ؟ قيل في تفسيرها : كانوا قد علموا ولكن ذهب عقولهم وعزبت (٢٥) أفهامهم ونسوا من شدة الهول وعظم الخطب وصعوبة الأمر ، فقالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب .

ثم يقرهم الله عز وجل فيدعى نوح عليه السلام .

وذكر البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ :

يدعى نوح عليه السلام يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه بلغ ويكون الرسول عليهم شهيدا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (٢٦) والوسط العدل .

(٢٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الأعراف .

(٢٤) الآيتان ٩٢ ، ٩٣ من سورة الحجر .

(٢٥) غربت : غابت .

(٢٦) آية ١٤٣ البقرة .

وروى ابن أنعم عن حبان بن أبي جبلة، قال: أول من يدعى يوم القيامة إسرافيل، فيقول الله جل ثناؤه: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم يا رب قد بلغته جبريل، فيدعى جبريل فيقال: هل بلغت إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم يا رب، فيخلى عن إسرافيل ويقول لجبريل: ما صنعت بعهدي؟ فيقول: بلغته الرسل، فيدعى الرسل، فيقول: هل بلغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم، فيخلى عن جبريل، ويقال للرسل: هل بلغتم عهدي؟ فيقولون نعم قد بلغناه الأمم، فتدعى الأمم، فيقال لهم: هل بلغكم الرسل عهدي؟ فمصدق ومكذب، فتقول الرسل: لنا عليهم شهداء، فيقول تبارك وتعالى: من؟ فيقولون أمة محمد ﷺ فيقال لهم: أتشهدون ٧٤/أ أن الرسل قد بلغت الأمم؟ فيقولون: نعم، فتقول الأمم: يا رب كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله تعالى: كيف تشهدون عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: يا ربنا أرسلت إلينا رسولا وأنزلت علينا كتابا فقصصت علينا فيه أن قد بلغوا، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾. والوسط العدل.

ثم يدعى غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ثم ينادي كل انسان باسمه واحدا واحدا، ويسألون واحدا واحدا، وتعرض أعمالهم على رب العزة جل جلاله، قليلها وكثيرها، حسنها وقبيحها.

وفي بعض الأخبار: يتمنى رجال أن يبعث بهم الى النار ولا تعرض قبائحهم على الله تعالى، ولا تكشف مساوئهم على رؤوس الخلائق، فما ظنك بهذا المقام، وبهذا السؤال وبهذا النكال والوبال؟ (٢٧) وما ظنك بنفسك وقد جيء بجهنم على الوصف الذي تقدم، وقد دنت من الخلائق، وشهقت وزفرت وثارَت وفارت، وانتهض خزانها والموكلون بها والمعدون لتعذيب أهلها، متسارعين الى أخذ ما أمروا بأخذه، ساحين له على بطنه وحر وجهه، سامعين مطيعين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فتمثل حالك وكيف أنت وقد امتلأت القلوب خوفا وجزعا ورعبا وفزعا، وارتعدت الفرائص وبلغت القلوب الحناجر، واصطفقت الأحشاء، وتقطعت

(٢٧) من فما ظنك إلى هنا سقط من ز.

الأمعاء، وطلبوا الفرار فلا فرار، وطاروا لو يصادفون مطارا، وَجِثَّتْ الأُمم على اليركب، وأيقن المذنبون بالهلاك والعطب وسوء المنقلب.

وينادي الأنبياء والصديقون والأولياء: نفسي نفسي، كل نفس قد أفردت لشأنها، وتركت لما بها، وظن كل إنسان أنه هو المأخوذ، وأنه هو المقصود، وذهلت العقول، وطاشت الألباب، وتحيرت الأذهان، وفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه، واشتغل بشأنه الذي يغنيه، وسئل عن جميع أمره سره وجهره، دقيقة وجليله، كثيره وقليله، وسئل عن أعضائه عضوا عضوا، وجارحة جارحة، وعن شكره عليها، وعن (٢٨) أداء حق الله فيها.

وظهرت القبائح، وكثرت الفضائح، وبدت المخازي، واشتهرت المساوي، وتركك الأهل والأقربون، ولم ينفعك مال ولا بنون، وأقبلت تجادل عن نفسك، وتخاصم عنها، وتطلب المعاذير لها، وقد أسلمت وأفردت، واشتغل كل إنسان عنك بنفسه، وترك ما حل بك لما حل به.

وأشدوا:

خليلي ما أقضي وما أنا قائل
وقد وضع الرحمن في الخلق (٢٩) عدله
وجيىء بجرم النار خاضعة له
فيا ليت شعري ذلك اليوم هل أنا
فإن اك مجزيا فعدل وحجة
ب/٧٤ وأعلم أنه بقدر ما تيسر على أخيك المسلم في الدنيا (٣٣) ييسر عليك
في ذلك اليوم، وبحسب ما تلتمس له العذر في الدنيا يلتمس لك العذر في ذلك
اليوم.

(٢٨) في ي وهل أدى.

(٢٩) في ي في الحشر.

(٣٠) باسل: شديد.

(٣١) مجادل: جمع مجدل وهو القصر.

(٣٢) نائل: معروف.

(٣٣) في الدنيا: ساقطة من ي.

وهبك يا ابن آدم أنه قد غفر لك وستر عليك ، ألم تقم هذا المقام ، وتشاهد هذا المشهد ، وقرع سمعك هذا النداء ، وخلع قلبك هذا الروح ، أقام خوفك هذا بأمنك في الدنيا؟ أقام حزنك هذا بفرحك في الدنيا؟ أقام ذلك هذا بعزك في الدنيا أين يقع هذا منه؟ أين يبلغ هذا منه؟ (٣٤) أيقوم تعظيم الخلق لك في الدنيا باحتقار الله لك في ذلك اليوم؟ أتقوم نعمتك في الدنيا ببؤسك في ذلك اليوم؟ فكيف إن نوقشت الحساب؟ ووجب عليك العذاب؟ وضرب بينك وبين ربك عز وجل بحجاب؟ وسد بينك وبين رحمته بباب ليس كالأبواب؟ .

هناك لا دعاء يُسمع ، ولا شفاة تنفع ، ولا عذاب عن البائس المرتهن يرفع ، إلا أن تكون ممن سبقت له العناية بالإيمان عند الموت ، وتداركته الرحمة به (٣٥) قبل الفوت ، فإن الشفاة ستخلصك من ذلك الأسار، (٣٦) وتستخرجك من سوء ذلك القرار ، يكون منك قبل ذلك ما كان ، ويدور عليك قبل ذلك ما دار .



(٣٤) أين يبلغ : ساقطة من ش .

(٣٥) به : ساقطة من ش .

(٣٦) الأسار: الأسر .

فصل

ذكر أول ما يحكم فيه يوم القيامة وأول من يدعى للخصومة

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء. (١)
ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أنا أول من يجثو يوم القيامة بين يدي الرحمن للخصومة، يريد قصته ومبارزته (٢) هو وصاحبه مع الثلاثة من كفار قريش، وذلك أن علي بن أبي طالب وحمزة بن عبدالمطلب، وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب رضي الله عنهم بارزوا يوم بدر من كفار قريش ثلاثة: شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، فبارز علي الوليد فقتله، وبارز حمزة شيبة فقتله، واختلف بين عبيدة وبين عتبة ضربتان، أثبت كل واحد منهما صاحبه، فكرر حمزة وعلي على عتبة فأتما عليه واحتملا عبيدة، فمات من ضربته في طريق المدينة في رجوع النبي ﷺ من غزوته تلك، ونزلت فيهم هذه الآية: ﴿هذان خصمان اختصموا﴾ (٣) والخبر بها مشهور صحيح.



-
- (١) مسلم رقم ١٦٧٨ في القيامة، والبخاري ١٢/١٦٦ في الديات وفي الرقاق، والنسائي ٨٣/٧ في تحريم الدم، والترمذي رقم ١٣٩٦ في الديات.
(٢) ومبارزته: ليست في ش.
(٣) آية ١٩ الحج.

فصل

الخصومة بين المسلمين، ورد المظالم والانتصاف منها

بالحسنة والسيئة

روى من حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: سمعت ٧٥/أ رسول الله ﷺ يقول: يحشر العباد - أوقال الناس - وأوماً بيده إلى الشام حفاة عراة غرلاً بُهْمًا، قلنا: ما بُهْمًا؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بُعد، ويسمعه من قُرب، أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، حتى اللطمة، قلنا: كيف وإنما تأتي الله حفاة عراة غرلاً؟ قال: بالحسنة والسيئة، ذكره الحارث بن أبي أسامة.

وقوله غرلاً: يريد به غير مختونين.

وأما مطالبة الكافر المؤمن فإنما تكون لمن ظلم من أهل الذمة والعهد، أو تكون فيما لم يأذن الله به من غيرهم، والله أعلم.

قد تقدم لك ذكر هول يوم الموقف وخطره وغرره، وإنك لا تدري إلى ما تصدر عنه، ولا إلى أي مكان تسير منه، فتفكر فيه، وأطل الفكرة، فقد وجدت مكان التفكر ذا سعة، ومجال الفزع ممتداً، وميدان الخوف عريضاً، ثم تفكر فيك بينما أنت واقف في تلك الحال التي حَدَّثَتْ عنها، وتَقَدَّمَ لك ذِكْرُها، إذ وثب عليك خصماً أو ك، وهجم عليك طالبوك وأحاطوا بك، ومدوا أيديهم إليك، فهذا يأخذ بيدك، وهذا بشعرك، وهذا بما أمكنه مما أذن الله تعالى له أن يأخذه منك، فواحد يقول: يارب هذا ضربني، وثان يقول: يارب هذا شتمني، وثالث يقول: يارب هذا اغتابني، هذا احتقرني، هذا غصبني حقي وظلمني، هذا

قتلني ، هذا عاملني فغشني ولم ينصحيني ، هذا رأني مظلوما وقد رعى نصرتي فلم ينصرتني ، هذا علم أني جائع وكان قديرا على أن يطعمني فلم يطعمني .
وكيف ما كانت معاملتك مع الناس ، وكيف ما كانت معاشرتكم لهم .
فبينما أنت كذلك لا تدري ما تقول ، ولا تدري ما تعمل ولا تدري إلى أين تفر ،
ولا كيف تتخلص ، وقد أهتكت الأمر وأدهشك الحال ، إذ سمعت نداء المنادي :

اليوم تجزي كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب ، فلا تسأل عن انخلاع قلبك ، واضطراب^(١) صدرك ، وقلة أنصارك ، وعدم الدافعين عنك ، فما شئت من ضلوع تنخرق ، وأكباد تحترق ، وأحشاء تصطفق ، وهموم تنبعث عليك وتندفق . وقد علمت أن الأذى لا يرفع عن نفسك هناك بالدينار ولا بالدرهم ، وإنما هي حسناتك التي تعبت فيها في الدنيا ، إن كانت قد قبِلتْ منك تعطى منك لخصمك وتُدفع لمطالبك ، وإن لم يكن لك حسنات أخذ من سيئاتهم فحُمِلتْ عليك ، وألقيتْ على كاهلك^(٢) .

ولعلك جرأت مسلما على معصية ، أو حملته على ارتكاب خطيئة أو كنت له سببا في ترك سنة واعتقاد بدعة ، فيجتمع ذلك كله لك ويناط بك ويحمل على ظهرك ، قال تعالى : ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾^(٣) .
فانظر وتدبر كيف يكون حالك ، وقد أضيفت الي سيئاتك سيئات آخر ، وإلى أوزارك أوزار آخر ، فاجتمعت عليك السيئات ، وأحاطت بك الخطيئات ، وانكسر ظهرك ٧٥/ب من ثقلها ، ولم تستطع النهوض بسببها ، واستغثت فلا مغيث ، واستعنت فلا معين . وإلى الله نرغب في المعونة فالتوفيق بيده ، والفضل فضله ، واليه يرجع الأمر كله ،^(٤) لا رب غيره ولا معبود سواه .

-
- (١) في ش واضطراب .
 - (٢) الكاهل : أعلى الظهر مما يلي العنق .
 - (٣) آية ١٣ من سورة العنكبوت .
 - (٤) سقطت من ش .

فصل

في الموازين والكتب

أصلح بهذي الدار ميزانكا
فإن فيه ربحك المرتجى
وليس خسرانك مالا ولا
لكنها نفسك فانظر لها
من عزمات صادقات ومن
ولإنما أصبحت في مهلة
وأحم على قلبك نار الأسى
فربما أضحك طول البكا

وليكن العدل به شأنكا
في تلكموالدار وخسرانكا
أهلا فيضني السقم جثمانكا
واجمع على ذلك أعوانكا
صبر يشد اليوم إيمانكا
فاجمع الى فرضك إحسانكا
واغسل بهاء الدمع أجفانكا
وبردت نارك نيرانكا

ذكر الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل إن شاء الله، قلت: فأين أطلبك؟ قال: أول ما تطلبني على الصراط، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: فاطلبي عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبي عن الحوض، فإنني لا أخطيء هذه الثلاثة مواطن. (١) قال: حديث حسن غريب.

وذكر الترمذي أيضا من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ إن الله سيخلص رجلا من رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر

(١) الترمذي رقم ٢٤٣٥ في صفة القيامة، وإسناده حسن جامع الأصول ١٠/٤٧٤. وهذا الحديث أسقطته نسخة ش وثابت في ي.

من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يارب، فيقول الله تعالى: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم [عليك] اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله الا الله، وأشهد ان محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء. (٢)

وذكر أبو بكر البزار من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: ملك موكل بالميزان، فيؤتى بابن آدم، فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

وروى عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاريض، وأما الثالثة [فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فأخذ بيمينه وأخذ بشماله]. (٣) ذكره أبو بكر البزار ايضاً. وقال الترمذي: جدال ومعاذير، رواه من حديث الحسن عن أبي هريرة.

وذكر أبو جعفر العقيلي من حديث نعيم بن سالم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: الكتب كلها تحت العرش، فإذا كان الموقف بعث الله ريحاً فتطيرها بالآيمان والشئائل، أول خط فيها: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾. (٤)

٧٦/أ وذكر ابوداود من حديث عائشة أنها قالت: ذكرتُ النار فكيئتُ، فقال رسول الله ﷺ ما يبكيك؟ قلت: ذكرتُ النار فكيئتُ

-
- (٢) الترمذي رقم ٢٦٤١ في الايمان، وإسناده صحيح، رواه أيضا ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم والبيهقي وغيرهم، جامع الأصول ٤٥٩/١٠.
- (٣) أخرجه الترمذي وإسناده ضعيف، جامع الأصول ٤٥٥/١٠ وقال الحافظ في الفتح: أخرجه البيهقي في البعث بسند حسن عن ابن مسعود موقوفاً.
- (٤) آية ١٢ الاسراء.

فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا، عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه، في يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم [حتى يجوز] (٥).

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ قال: يدعى أحدهم، فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه ستون ذراعا، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، فينطلق الى أصحابه، فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا، فيأتيهم فيقول: أبشروا لكل رجل مسلم مثل هذا، قال: وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد في جسده ستون ذراعا، على صورة آدم، فيلبس تاجا من نار فيراه أصحابه، فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم، فيقولون اللهم أخره، فيقول: أبعدم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا.

وقد تقدم تقرير المؤمن بذنوبه وتعريفه بها.

وأنشدوا:

أمدد يمينك من دنياك آخذة	كتاب فوزك إذ تحتل أخراك
فلست تدرك ما هناك من أمل	إلا بواسطة من دار دنياك
فان تكاسلت أو قصرت في طلب	كنت المخيب والمطلوب إذ ذاك
يا نائم القلب عن أميراده	نبهه ويحك إن الامر حاذك
واشدد حزيمك واكشف ساعدك له	فربما مُجِدَّتْ بالجد عقباك
كم رابح بكتاب كان املاه	هنا بما شاء برا أو أفاك
فظل مرتقبا ادراج مكرمة	في عدن او نازلا في النار ادراكا
وطلعة الموت تبدي عن حقيقة ما	تملي فياك ان تنساه إياك (٦)

(٥) جملة حتى يجوز ليست في نسخ أبي داود المطبوعة وقد زادها صاحب جامع الأصول والحديث عند أبي داود رقم ٤٧٥٥ في السنة، وهو حديث حسن انظر جامع الأصول ١٠/٤٧٥.

(٦) هذه الأبيات انفردت بها نسخة «ل».

فصل

ذكر ما يتكلم من الإنسان ، وما جاء في شهادة جوارح ابن آدم عليه يوم القيامة

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة من حديث معاوية بن حيدة القشيري أن النبي ﷺ قال : تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفدام ، فأول ما يتكلم من الانسان فحذه وكفه .

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة قال : قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال : هل تضارون^(١) في رؤية الشمس في الظهيرة؟ ليست في سحابة؟ قالوا : لا ، قال : فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟ قالوا : لا ، قال : فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ، قال : فيلقى العبد فيقول : أي قُلْ^(٢) ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل ، وأدرك ترأس وترتع؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقي؟ فيقول : لا فيقول : إني أنساك كما نسيتي ، ثم يلقى الثاني ، فيقول : أي قُلْ ، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل ، وأدرك ترأس وترتع؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : أظننت أنك ملاقي؟ فيقول : لا ، فيقول : إني أنساك كما نسيتي ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ها هنا إذا ، قال : ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليه؟ فيختم على فيه

(١) تضارون بتشديد الراء وتخفيفها ومعناها على الأول هل تضارون غيركم في حالة الرؤية أو مخالفة في الرؤية وغيرها لحفائه . ومعناها على التخفيف . هل يلحقكم في رؤيته ضمير ، وهو الضمر .

(٢) أي قُلْ : معناها يا فلان وهو ترخيم على خلاف القياس .

ويقال لفضذه ولحمه وعظامه : انطقي ، فتنتطق فخذهُ ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه . (٣)

١٧٦ ب وذكر مسلم من حديث أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرّون مم أضحك؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يارب ألم تجزني من الظلم؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإني لا أجزع على نفسي إلا شاهداً مني ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبتين شهوداً ، قال : فيختم على فيه ، ويقال لأركانهِ : انطقي ، قال : فتنتطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل (٤) .

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أني لأعلم آخر رجل من أمتي يجوز الصراط ، رجل يتلوى على الصراط كالغلام حين يضربه أبوه ، تزل يده مرة فتصيبها النار ، وتزل رجله مرة فتصيبها النار ، قال : فتقول له الملائكة : رأيك إن بعثك الله من مقامك هذا فمشيت سوياً ، أتخبرنا بكل عمل عملته؟ فيقول : أي وعزته لا أكتمكم من عملي شيئاً ، قال : فيقولون له : قم فامش سوياً ، (٥) فيقوم فيمشي حتى يجاوز الصراط ، فيقولون له : أخبرنا بأعمالك التي عملت ، فيقول في نفسه : إن أخبرتهم بما عملت ردوني إلى مكاني ، فيقول : لا وعزته ما أذبت ذنبا قط ، فيقولون له : إن لنا عليك شهوداً ، قال : فيلتفت يمينا وشمالاً هل يرى من الأدميين أحداً ممن كان يشهد عليه في الدنيا ، فلا يرى ، فيقول : هاتوا بيئتكم ، فيختم الله على فيه ، وتنتطق يده ورجلاه وفخذه بعمله ، فيقول : أي وعزتك لقد عملتها وإن عندي للعظام المضمرات ، قال : فيقول الله تعالى له : اذهب فقد غفرتك لك .

(٣) الحديث رقم ١٩٣٢ مختصر صحيح مسلم بتحقيق الألباني .

(٤) الحديث رقم ١٩٣٣ نفس المرجع .

(٥) سوياً : مستوياً .

فصل ذكر الصراط ودرجات الناس في المرور عليه

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة من حديث عائشة قالت : قلت يا رسول الله ، أتذكرون أهاليكم يوم القيامة؟ قال : أما عند ثلاث فلا ، عند الكتاب ، وعند الميزان ، وعند الصراط . (١)

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة قالا : قال رسول الله ﷺ يجمع الله الناس ، فيقوم المؤمنون ، حتى تزلف (٢) لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم ، لست بصاحب ذلك ، اذهبوا الى ابني ابراهيم خليل الله ، قال : فيقول ابراهيم عليه السلام : لست بصاحب ذلك ، إنما كنت خليلا من وراء وراء ، اعمدوا الى موسى الذي كلمه الله تكليما ، فيأتون موسى عليه السلام ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا الى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى : لست بصاحب ذلك ، قال : فيأتون محمدا ﷺ فيقوم ويؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم ، فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا ٧٧/ أ فيمراولكم كالبرق ، قال : قلت : بأبي أنت وأمي أي شيء كالبرق؟ قال : ألم تروا الى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير وشد الرجال (٣) تجري بهم أعمالهم ، ونبياكم ﷺ قائم على الصراط يقول : رب سَلِّمْ سَلِّمْ حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ومكدوس في النار ، والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفا (٤)

- (١) رواه أيضا أبو داود رقم ٤٧٥٥ بألفاظ فيها بعض اختلاف فذكر الحوض بدل الكتاب . انظر جامع الأصول ١٠/٤٧٥ .
- (٢) تزلف : تقرب وتلدني .
- (٣) شد الرجال : عدوهم .
- (٤) مسلم رقم ١٩٥ في الايمان . جامع الأصول ١٠/٤٨٦ .

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ وذكر الصراط ومرور الناس عليه ، قال : فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح وكالطير ، وكأجاويد الخيل والركاب ، فجاج مسلم ، ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر حديث الشفاعة ، قال : ويضرب الصراط بين ظهراي جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ الا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم ، وفي جهنم كالليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله ، ومنهم المجازي حتى يُنَجَّى ، وذكر الحديث .

قد سمعت رحمك الله بهذا الطريق الحرج ، والمسلك الشاق ، والقفنطرة المضطربة التي لا تثبت (٥) عليها الأقدام ، ولا تجوزها الأوهام ، إلا قدم ثبتت على التقوى ، ووهم جاز في الملكوت الأعلى .

ولعلك تظن ان هذ الطريق من طرق الدنيا الصعبة ، وسبلها الوعرة ، بل هو أحد من السيف وأدق من الشعرة ، فما ظنك بك وقد حُمِلت عليه ، وكُلِّفَت المرور به ، ومهواه جهنم تحتك ، وقد ملأ زفيرها أذنك ، ومنظرها الهائل قلبك وعينك ، وأردت المرور فلم تقدر ، والنهوض فلم تستطع ، واضطرب بك اضطرابا ، والتهب ذلك السعير تحتك (٦) التهابا ، ولم تجد الى النجاة سبيلا ، ولا الى الخلاص بابا ، ولا ينهض بك الا سعيك الذي سعيت ، ولا جرى بك الا عمالك الذي عملت ، ومركوبك الذي في الدنيا ركبت ، فلتتخير الآن أي المراكب تركبها ، وأي الأبواب تدخلها ، وأي الطرق تأخذ فيها وتسلكها . والله المستعان وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

٧٧/ب وأنشدوا :

للسبق يوم يفوز الناس بالسبق
أولمحة البرق اذ يجتاز بالأفق
عنان صدق رمي في فتية صدق

اجنب جيادا من التقوى مضمرة
تمر مر الرياح الهوج عاصفة
واركض الى الغاية القصوى وخل لها

(٥) تثبت : في ي تسلك .

(٦) تحتك : ليست في ي .

ولست تنهض الا ويك بالعنق (٨)
بقصدك اليوم عن مسلوكة الطرق (١٠)
وخلفوك حليف الحزن والفرق
وضاحكا والردى منه على حنق
ومن أمامك ليل دائم الأرق
عقلا تراه غدا في غاية الخرق

فإن خلفك أعمالا مشبطة (٧)
كم حل عزمك من دنيا معرجة (٩)
وفاز من فاز لا حزن ولا فرق
ياغافلا والمتايا منه في ذكر
قطعت عمرك في سهو وفي سنة
ورب رأي تراه اليوم في سفه

-
- (٧) مشبطة : معوقة .
(٨) العنق : بفتح العين والنون : المشي السريع .
(٩) معرجة : مائلة .
(١٠) الفرق : الخوف .

فصل

ما جاء في أن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون

ذكر مسلم من حديث أبي سعيد الخدري^(١) قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول له أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذلك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، قال: فاشتد ذلك عليهم، قالوا: يارسول الله، أيتنا ذلك الرجل؟ فقال: أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا، ومنكم رجل، قال: ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة، فحمدنا الله عز وجل، وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر^(٢) أهل الجنة، وإن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار. وفي بعض ألفاظ هذا الحديث من الزيادة: اللهم قد بلغت.

وفي بعض طرقه من غير كتاب مسلم: وذكر بعث النار، فقال رجل: ومن الناجي بعد ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير.^(٣)

-
- (١) هكذا في النسخ الخطية. في جامع الأصول ١٨٤/٩: رواه الترمذي عن عمران بن حصين.
(٢) شطر: نصف.
(٣) الترمذي: رقم ٣١٦٨ في تفسير سورة الحج. وقال الترمذي: هذا حديث سنن صحيح. جامع الأصول ١٨٤/٩.
والرقمة: بقعة ذات لون مخالف.

فصل ما جاء في أهل الفترة

ذكر أبو بكر البزار في مسنده عن الأسود بن سريع عن النبي ﷺ قال :
يعرض على الله تبارك وتعالى الأصم الذي لا يسمع شيئا والأحمق والهرم ورجل
مات في الفترة، فيقول الأصم : رب جاء الاسلام وما أسمع شيئا، ويقول
الأحمق : رب جاء الاسلام وما أعقل شيئا، ويقول الذي مات في الفترة : رب ما
أتاني لك من رسول . قال أبو بكر : وذهب عني ما قال الرابع ، قال : فيأخذ
مواثيقهم ليطيعوه ، فيرسل اليهم تبارك وتعالى ادخلوا النار ، فوالذي نفس محمد
بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما .

قد جاء هذا الحديث وهو صحيح فيما أعلم ، والآخرة ليست دار تكليف
ولا عمل ، ولكن الله يختص من شاء بما شاء ، ويكلف من شاء بما شاء ، وحيث
شاء ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون .

فصل في سعة رحمة الله وأنها تغلب غضبه

حَدَّثَ عن الجود وعن فيضه فالأمر مبني على الجود
 واذكر لنا بعض أعاجيبه فلست تحصيه بتعديد
 هيات ماجودُ مليكِ الورى وخالقِ الخلقِ بمحدود
 حَدَّثَ عن البحر وما البحر في بعضِ أياديه بموجود
 ٧٨/أ ومن الذي أفاض هذه البركات؟ وأتى بهذه الخيرات، ومنّ بهذه
 النعم التي ملأت ما بين الأرضين والسموات، ومن ذا الذي يستخرج من
 ظلمات الكفر، ويستنقذ من غمرات الجهل، ويغفر الذنوب ويستر العيوب،
 وينفس عن المكروب، ويجيب المضطر إذا دعاه، ولا يبالي أطاعه عبده أم عصاه،
 من هو إلا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، رب العالمين إله الأولين والآخرين، لا
 إله الله هو الملك الحق المبين.

ذكر مسلم عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة أخبره قال: سمعت رسول
 الله ﷺ يقول: جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل
 في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة
 حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه.

ولمسلم في لفظ آخر: كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فإذا كان
 يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة. ذكره من حديث سلمان الفارسي. (١)
 وذكر مسلم أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لما خلق الله

(١) مسلم رقم ٢٧٥٢ في التوبة. والبخاري ٣٦٢/١٠ في الأدب، وفي الرقاق، والترمذي رقم
 ٣٥٣٥ و٣٥٣٦ في الدعوات. جامع الأصول ٥١٩/٤.

الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي . (٢)
 وذكر البزار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ما خلق الله تعالى من شيء إلا وقد خلق ما يغلبه ، وخلق رحمته تغلب غضبه .
 ومن مسند البزار أيضا عن عمر بن الخطاب قال : بلغني أن رسول الله ﷺ كان في بعض مغازيه ، فبينما هم يسيرون إذ أخذوا فرخ طير ، فأقبل أحد أبويه ، حتى سقط في أيدي الذين أخذوا الفرخ ، فقال رسول الله ﷺ ألا تعجبون لهذا الطير؟ أخذ فرخه فأقبل حتى سقط في أيديهم ، والله لله أرحم بخلقه من هذا الطائر بفرخه .

لا نعلم له طريقا غير هذا الطريق .

وذكر مسلم بن الحجاج عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : يخرج من النار أربعة ، فيعرضون على الله عز وجل ، فيلتفت أحدهم ، فيقول : أي رب ، إذ أخرجتني منها فلا تعدني فيها ، قال : فينجيه الله تعالى منها . (٣)

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلين ممن يدخل النار يشتد صياحهما فيها ، فيقول الرب عز وجل : أخرجوهما ، فلما خرجا قال لهما : لأي شيء اشتد صياحكما؟ فيقولان : فعلنا ذلك لرحمتنا ، فيقول : إن رحمتي إياكما أن تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما في النار ، فينطلقان فيلقى أحدهما نفسه في النار ، فيجعلها الله عليه بردا وسلاما ، ويقوم الآخر فلا يلقي نفسه ، فيقول له الرب تبارك وتعالى : ما منعك أن تلقي نفسك كما ألقى صاحبك نفسه؟ فيقول : رب ، إني لأرجو أن لا تعيدني فيها بعد أن أخرجتني منها ، فيقول الرب سبحانه : لك رجاؤك فيدخلان الجنة معا برحمة الله .
 وهذا الحديث ذكره الترمذي وغيره . (٤)

(٢) مسلم رقم ٢٧٥١ في التوبة . والبخاري ٣٢٥/١٣ في التوحيد وفي بدء الخلق . والترمذي رقم

٣٥٣٧ في الدعوات . جامع الأصول ٥١٨/٤ .

(٣) مسلم رقم ١٩٢ في الايمان . جامع الأصول ٥٥٢/١٠ .

(٤) الترمذي رقم ٢٦٠٢ في صفة جهنم ، وإسناده ضعيف . انظر جامع الأصول ٥٥٣/١٠ .

وذكر مسلم بن الحجاج من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده، لو لم تذبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم. (٥)

٧٨/ب وروى عن ابراهيم بن ادهم قال: طُفَّت ليلة بالبيت الحرام، وكانت ليلة مطيرة شديدة الظلمة، وقد خلا الطواف وطابت نفسي فوقفت عند الملتزم أدعو، فقلت: اللهم اعصمني حتى لا أعصيك، فهتف بي هاتف يا ابراهيم أنت تسأله العصمة، وكل عباده يسأله العصمة، فإذا عصمهم فعلى من يتفضل؟ ولمن يغفر؟.

(٥) مختصر صحيح مسلم رقم ١٩٢٢ وفي نسخ الأصل أنه مروى عن أبي أيوب الأنصاري وهو سهو من المؤلف أو من النساخ، أنظر جامع الأصول ٣٨/٨.

فصل كثرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم

ذكر مسلم بن الحجاج عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً. (١)
وذكر أبو بكر البزار من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يأتي معي من أمتي يوم القيامة مثل الليل والليل، فيحطم الناس حطمة فتقول الملائكة: جاء مع محمد أكثر مما جاء مع سائر الأنبياء.

وذكر مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن مسعود قال: خطبنا رسول الله ﷺ فأسند ظهره الى قبة آدم، فقال: ألا لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، اللهم هل بلغت، اللهم اشهد، أتحبون أن تكونوا ربيع أهل الجنة؟ قلنا: نعم يارسول الله، قال: أتحبون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم يارسول الله. قال: فيأتي لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، ما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر. (٢)
وذكر الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم. (٣)

-
- (١) مسلم رقم ٢٠٠ في الإيذان وله تكملة هي: وأنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة، انظر جامع الأصول ٤٧٥/١٠.
(٢) مسلم رقم ٢٢١ في الإيذان. والبخاري ٣٣٥/١١ و٣٣٦ في الرقاق. والترمذي رقم ٢٢٥٠ في صفة الجنة، جامع الأصول ١٨٧/٩.
(٣) الترمذي رقم ٢٥٤٩ في صفة الجنة. جامع الأصول ١٩٢/٩.

فصل ذكر كم يدخل الجنة بغير حساب

ذكر مسلم بن الحجاج من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: ما الذي تخوضون فيه؟ فأخبروه، فقال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة. (١)

وذكر أبو بكر البزار عن الحسن والعلاء بن زياد عن عمران ابن حصين عن عبد الله بن مسعود، قال: تحدثنا عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، حتى أكثرنا الحديث، ثم تراجعنا إلى البيوت، فلما أصبحنا غدونا إلى النبي ﷺ فقال ﷺ:

(١) مسلم رقم ٢٢٠ في الأيمان، والبخاري ١٧٩/١٠ في الطب، والترمذي رقم ٢٤٤٨ في صفة القيامة. وانكر ابن تيمية لفظه يرقون في الحديث انظر جامع الأصول ٥٧٢/٧.

عرضت عليّ الأنبياء الليلة باتباعها من أمها ٧٩/أ، فجعل النبي يمر معه الثلاثة من قومه، والنبي ومعه العصاة من قومه، والنبي ومعه النفر من قومه، والنبي ليس معه من قومه احد، حتى أتى عليّ موسى بن عمران في كوكبة من بني اسرائيل، فلما رأيتهم أعجبوني، فقلت: يارب من هؤلاء؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن تبعه من بني اسرائيل، قلت: رب وأين أمي؟ قيل: انظر عن يمينك، فاذا الضراب ضراب مكة قد سد بوجوه الرجال، فقلت: يارب من هؤلاء؟ قيل لي: أمتك، فقيل لي: هل رضيت؟ فقلت: رب رضيت، رب رضيت، رب رضيت، ثم قيل لي: انظر عن يسارك، فاذا الأفق قد سد بوجوه الرجال، فقلت: رب من هؤلاء؟ قيل: أمتك، قال: فقيل لي: هل رضيت، فقلت: يارب رضيت، ثم قيل لي: ان مع هؤلاء سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، فأنشأ عكاشة بن محصن رجل من بني اسد بن خزيمة، فقال: يارسول الله، ادع الله ان يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعله منهم، ثم أتى رجل آخر، فقال: يانبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة.

قال رسول الله ﷺ فدى لكم أبي وأمي، إن استطعتم أن تكونوا من السبعين فكونوا، وإن عجزتم أو قصرتم فكونوا من أهل الضراب، فإن عجزتم أو قصرتم فكونوا من أهل الأفق، فإني رأيت ثم أناسا يتهوشون كثيرا، ثم قال نبي الله ﷺ إني لأرجو أن يكون من تبني من أمي ربع أهل الجنة، قال: فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا الثلث، قال: فكبرنا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا الشطر، فكبرنا، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ثلة من الأولين وثلة من الآخرين﴾ فتراجع المسلمون من هؤلاء لا نراهم إلا الذين ولدوا في الاسلام ولم يزالوا يعملون به حتى ماتوا عليه، قال: فمنأ حديثهم الى النبي ﷺ، قال: ليس كذا ولكن هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

وذكر مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يدخل الجنة من أمي زمرة هم سبعون ألفا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة

البدر، (٢) وذكر الحديث .

كذا في هذا الحديث: يدخل من أمي زمرة، ولم يقل الجنة، وقال: الجنة في طريق آخر. (٣)

وقال في حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ: متماسكون آخذ بعضهم ببعض، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم ووجوههم على صورة القمر ليلة البدر. (٤)

وذكر أبو داود الطيالسي من حديث رفاعة بن عرابة قال: كنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بقديد جعل رجال منا يستأذنون إلى أهليهم، فأذن لهم، وحمد الله، ثم قال: ما بال رجال شق الشجرة التي تلي رسول الله ﷺ أبغض إليهم من الشق الآخر، فلم ير عند ذلك من القوم إلا باكيا، فقال رجل: يارسول الله، إن الذي يستأذنك بعد هذا لسفيه، ويروى لشقي، قال: فحمد الله وقال خيرا، وقال: أشهد عند الله أن لا يموت عبد يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ٧٩/ب صدقا من قلبه، ثم يسدد، إلا سلك في الجنة، ثم قال: وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن الجنة.

وذكر الترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا، وثلاث حثيات من حثيات ربي. (٥)

وذكر أبو بكر الشافعي من حديث حذيفة بن اليمان، قال: غاب عنا رسول الله ﷺ يوما، فلم يخرج، حتى ظننا أن لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت، فلما رفع رأسه قال: إن ربي عز وجل

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، وله تمة. انظر جامع الأصول ١٩٠/٩.

(٣) نفس المرجع.

(٤) رواه البخاري ٣٥٩/١١ في الرقاق. جامع الأصول ١٨٩/٩.

(٥) الترمذي رقم ٢٤٣٩ في صفة القيامة، وإسناده حسن، ورواه ابن حبان في صحيحه والطبراني. جامع الأصول ١٩٠/٩.

استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم؟ قلت: ما شئت يارب هم خلقك وعبادك، فاستشارني الثانية، فقلت له كذلك، ثم استشارني الثالثة، فقلت له كذلك، فقال: إني لم أخزك في أمتك، وبشّرني أن أول من يدخل الجنة زمرة من أمتي، سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا، ليس عليهم حساب ثم أرسل النبي ربي: اذعُ تُجِبْ، وسل تعطه، فقلت لرسوله: أو مُعْطِي ربي عزوجل سؤلي؟ قال: ما أرسل اليك إلا ليعطيك، ولقد أعطاني ربي من غير فخر أنه غفر لي ما تقدم وما تأخر، وشرح صدري، وأعطاني ان لا تجوع أمتي ولا تُغَلَب، وأنه أعطاني الكوثر نهرًا في الجنة يسيل في حوضي، وانه أعطاني العزة والنصر والرعب، وأنه أعطاني بأني أول الأنبياء دخولا الجنة، وطيب لي ولأمتي الغنيمة، وأحل لنا كثيرا مما شدد على من كان قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج، فلم أجد شكرا إلا هذه السجدة.

قوله عليه السلام: أعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تُغَلَب: أي لا تجوع كلها، ولا تُغَلَب كلها، إنما هو إن جاعت في أرض شبع في أخرى، وإن غلبت في موضع غلبت في موضع آخر.

وذكر أبو بكر البزار في مسنده من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا، مع كل واحد من السبعين ألفا سبعون ألفا.

وعن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: ان ربي عزوجل أعطاني سبعين ألفا من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عمر بن الخطاب: فهلا استزدته؟ فقال: [استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا، قال: فهلا استزدته؟] (٦) فقال: أعطاني هكذا وبسط باعه، فقال: هذا من الله تعالى لا يُدرِي ما عدده.

(٦) ما بين المربعين سقط من ش.

الباب التاسع عشر

الشفاعة الثانية في الخروج من النار، وذکر خروج من يدخلها من الموحدين

٨٠/أ اعلم رحمك الله أنه قد وجب في الحكم الأول والقضية السابقة، دخول النار على طوائف من المؤمنين، ممن أوبقتهم سيئاتهم وأحاطت بهم خطيئاتهم، فلم تمحها عنهم عقوبات الدنيا ولا عذاب القبر ولا أهوال يوم الحشر، وكل إنسان منهم تنال منه النار بمقدار عمله، وتأخذ منه إلى الحد الذي أمرت به.

ثم إن الله تعالى بفضله ورحمته يقبل فيهم شفاعة الشافعين ورغبة الراغبين، وسؤال السائلين من الأنبياء والصدّيقين، والشهداء والصالحين، والعلماء العاملين، وكل من له عند الله جاه ومنزلة قد بلغها بعمله، ونالها بصالح سعيه، فإن له شفاعة في أهله وبنيه، وأقربائه وأوليائه، بل ربما في الرجل كان يعرفه في الدنيا ولم يكن بينهما صحبة ولا كثير معرفة.

واعلم ان الجاه الذي تكون به الشفاعة، ويقبل به السؤال، وتقضى به الحوائج، وتحصل به المنزلة عند الله تعالى، إنما يكون اكتسابه في الدنيا، وتحصيله هنا بالعمل الصالح، على الحد الذي حد له فيه، والطريق الذي أمر أن يسلكه إليه.

ومن ذلك العمل التواضع للمسلمين ولين الجناح لهم، واحتمال الأذى منهم، والصبر عليهم، وإسقاط المنزلة عندهم، وطلبها عند خالقهم جل جلاله.

وقد تقدم حديث مسلم بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً. وذكر ابو عيسى الترمذي من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله

ﷺ: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي. (١)

ويروى عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: نعم الرجل أنا لشرار أمتي، قالوا: فكيف أنت لخيارها؟ قال: أما خيارها فيدخلون الجنة بأعمالهم، وأما شرار أمتي فيدخلون الجنة بشفاعتي.
ذكره أبو الحسن الدارقطني.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة بإسناده عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ كان يحرسه أصحابه، قال: فقممت ذات ليلة فلم أره في منامه، فأخذني ما حدث وما قدم، فقممت أنظر، فإذا معاذ بن جبل قد لقي مثل الذي لقيت، فسمعت صوتا مثل هزير الرحاوين تجرهما، فوقفا على مكانيهما، فجاء رسول الله ﷺ من قبل البيوت، فقال: هل تدريان أين كنت أو فيم كنت؟ قالوا: أين كنت؟ قال: أتاني آت من ربي، يخبرني بين أن يدخل شطر أمتي الجنة، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، فقالوا: يارسول الله، ادع الله أن يجعلنا في شفاعتك، قال: أنتم في شفاعتي، فدعا لهما، فأقبل وأقبلا معه، فكلما لقيه رجل سأله، حتى استقبله معظم الناس، فأخبرهم، فقالوا: يارسول الله، ادع الله ان يجعلنا في شفاعتك، قال: أنتم في شفاعتي، ومن لقي الله لا يشرك به شيئا فهو في شفاعتي.

وذكر الترمذي بإسناده عن الطفيل بن أبي عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم من غير فخر.

٨٠/ب وذكر مسلم بن الحجاج من حديث يزيد الفقير، قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد، نريد أن نحج، ثم نخرج على الناس، فمررنا بالمدينة، فإذا جابر بن عبد الله يحدث الناس جالسا إلى سارية عن رسول الله ﷺ، فاذا هو قد ذكر الجهنميين، قال: فقلت: يا صاحب رسول الله ما هذا الذي تحدثون؟ والله يقول: ﴿إنك من تدخل النار

(١) الترمذي رقم ٢٤٣٧ في صفة القيامة، باب ما جاء في الشفاعة، وأبو داود رقم ٤٧٣٩ في السنة، باب في الشفاعة، وابن ماجه رقم ٤٣١٠ في الزهد، باب ذكر الشفاعة، وهو حديث صحيح. جامع الأصول ٤٧٦/١٠.

فقد أخزيتته ﴿ و﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيديا فيها﴾ فما هذا الذي تحدثون؟ قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعت بمقام محمد ﷺ الذي بعثه الله عز وجل؟ قال: فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج، قال: ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه، قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذلك إلا أنه قد زعم أن قوما يخرجون من النار بعد ان يكونوا فيها، قال: فيخرجون كأنهم عيدان الساسم، فيدخلون نهرا من أنهار الجنة، فيخرجون كأنهم القراطيس، (٢) فرجعنا، فقلنا: ويحكم! أترون الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ؟! فلا والله ما خرج منا غير رجل واحد. أو كما قال.

أراد بالرأى الذي شغفه من رأى الخوارج، تكذيبهم بالشفاعة وقولهم إنه من دخل النار من المذنبين فلن يخرج منها.

وذكر مسلم أيضا عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها، إلا دارات وجوههم، حتى يدخلوا الجنة. (٣)

وذكر البخاري عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة، ويسمون الجهنميين. (٤)

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: ليصين أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته إياهم، فيقال لهم: الجهنميون. (٥)

وذكر أبو داود الطيالسي من حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ قال: ليخرجن أقوام من النار منتنون قد امتحشوا، فيدخلون الجنة برحمة الله وشفاعة الشافعين، فيسمون الجهنميين.

(٢) التراطيس: جمع قرطاس وهو الصحيفة البيضاء.

(٣) مسلم رقم في الأيمان. جامع الأصول ١٠/٥٤٩.

(٤) البخاري ١١/٣٨٤ في الرقاق. وأبو داود رقم ٢٧٤٠ في السنة باب في الشفاعة، والترمذي

رقم ٢٦٠٣ في صفة جهنم. جامع الأصول ١٠/٥٥٧.

(٥) البخاري ١١/٣٧١ في الرقاق وفي التوحيد. جامع الأصول ١٠/٥٥١.

وذكر أبو بكر البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال : أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين يريد الله إخراجهم فتميتهم النار ثم يخرجون منها ، فيلقون على نهر الحياة ، فيرش عليهم من مائها ، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، ويدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنمين ، فيدعون الله تعالى ، فيذهب ذلك الاسم عنهم .

وذكر مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : يدخل الله أهل الجنة الجنة ، يدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار ٨١/أثم يقول : انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون منها حمما ، قد امتحشوا ، فيلقون في نهر الحياة ، فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل ، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية؟ (٦) .

وذكر الترمذي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ يعذب ناس من أهل التوحيد في النار ، حتى يكونوا فيها حمما ، ثم تدركهم الرحمة ، فيخرجون ، ويطرحون على أبواب الجنة ، قال : فيرش عليهم أهل الجنة الماء ، فينبتون كما ينبت الغطاء في حمالة السيل ، ثم يدخلون الجنة . (٧)

وفي مسند أبي بكر بن أبي شيبة عن عمرو بن ميمون أن ابن مسعود حدثهم أن رسول الله ﷺ قال : يكون قوم في النار ما شاء الله ، ثم يرحمهم الله ، فيخرجهم ، فيكونون في أدنى الجنة ، فيغتسلون في نهر الحياة ، يسميهم أهل الجنة الجهنمين ، لو أضاف أحدهم أهل الأرض لأطعمهم وسقاهم ، وأحسبه قال : وزودهم ، لا ينقصه ذلك شيئا .

وذكر أبو بكر الشافعي بإسناده من حديث أبي أمامة الباهلي ، عن النبي ﷺ قال : إن من المؤمنين من يدخل بشفاعته الجنة أكثر من ربيعة ومضر .

(٦) مسلم رقم ١٨٤ في الايمان ، باب إثبات الشفاعة . والبخاري ٦٨/١ في الايمان انظر جامع الأصول ٥٥٠/١٠ .

(٧) الترمذي رقم ٢٦٠٠ في صفة جهنم ، باب رقم ١٠ وقال الترمذي : حديث حسن صحيح وهو كما قال . جامع الأصول ٥٤٨/١٠ .

وذكر البزار عن ثابت أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ:
إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة.

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: إن من أمتي لمن يشفع في
الفئام من الناس، ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم
من يشفع للرجل وأهل بيته، (٨) [حتى يدخلوا الجنة].

وذكر الطحاوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله
ﷺ: إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الجنة صفوفًا، وأهل النار صفوفًا، فينظر
الرجل من صفوف أهل النار إلى الرجل من صفوف أهل الجنة، فيقول له:
يا فلان، ألا تذكر يوم اصطنعت معروفًا إليك في الدنيا؟ فيقول: اللهم إن هذا
اصطنع إلي معروفًا في الدنيا، قال: فيقال له: خذ بيده فأدخله الجنة برحمة الله
عز وجل، قال أنس: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقوله.

وذكر الطحاوي أيضًا من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال:
أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر حديثًا طويلًا من حديث يوم القيامة، ثم
ذكر فيه شفاعة الشهداء، وقال ثم يقول الله عز وجل: أنا أرحم الراحمين،
انظروا في النار هل فيها من أحد عمل خيرا قط، [فيجدون في النار رجلا، فيقال
له: هل عملت خيرا قط؟] (٩) فيقول: لا، غير أني قد أمرت ولدي إذا أنا متُّ
فاحرقوني بالنار ثم اطحنوني، حتى إذا كنت مثل الكحل، فاذهبوا بي إلى
البحر فاذروني في الريح، فوالله لا يقدر عليّ رب العالمين أبداً فيعاقبني إذا
عاقبت نفسي في الدنيا عليه، قال الله تعالى: لم فعلت ذلك؟ قال: من
مخافتك، فيقال: انظر ملكا أعظم ملك، فإن لك مثله وعشرة أمثاله.

وذكر أبو بكر البزار (١٠) من حديث أبي بكر (١١) الثقفي عن النبي ﷺ

(٨) رواه الترمذي رقم ٢٤٤٢ في صفة القيامة. وفيه: ومنهم من يشفع للواحد بدل: للرجل وأهل
بيته، وليس في نسخ الأصل: حتى يدخلوا الجنة.

انظر جامع الأصول ٢٠٠/٩ ومعنى الفئام: الجماعة من الناس.

(٩) مابين المربعين سقط من ش.

(١٠) في ي: مسلم. ولم أجده في صحيح مسلم مما يدل على أن الصواب ما ذكرته نسخة ش من
نسبة الحديث إلى أبي بكر البزار.

(١١) أبو بكره: اسمه نعيم بن الحارث، وقيل ابن مسروح، صحابي له ترجمة في الاصابة رقم
٨٧٩٣.

قال: يحمل الناس يوم القيامة على الصراط فتتقاع بهم (١٢) جنبنا الصراط تقاع الفراش في النار، ثم يؤذن للملائكة والنبين والشهداء والصالحين، فيشفعون ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان.

وذكر مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يارسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: نعم فهل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صَحْواً ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا، يارسول الله، قال: فما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، وغُبر أهل الكتاب، فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا كنا نعبد عزيزاً ابن الله، فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يارب فاسقنا، فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار. ثم يدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة (١٣) ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فيتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فما تنظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى أحد ممن كان يسجد

(١٢) تقاع بهم: أي تسقطهم فيها بعضهم فوق بعض. اللسان - قدح. وذكر الحديث.

(١٣) صاحبة: زوجة.

لله من تلقاء نفسه إلا أذن له بالسجود، ولا يبقى احد ممن كان يسجد اتقاءً ورياء، إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد ان يسجد خرَّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، ثم يضرب الجسر على جهنم ٨٢/أ وتحمل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلِّمْ سلِّمْ، قيل: يارسول الله، وما الجسر؟ قال: دحض مزلة، (١٤) فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة (١٥) تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فجاج مسلم ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم، حتى اذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده، ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق من المؤمنين يوم القيامة لآخوانهم الذين في النار فيقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار الى نصف ساقه، وإلى ركبته، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال [دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا احدا]، (١٦) ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيرا.

وكان ابوسعيد الخدري يقول: ان لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا ان شئتم: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما». (١٧)

(١٤) دحض مزلة: زلقة تزل فيها الأقدام.

(١٥) حسكة: نبتة شائكة.

(١٦) ما بين المربعين انفردت به نسخة «ل» وأوده صحيح مسلم.

(١٧) آية ٤٠ من سورة النساء.

فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حمما، فيلقبهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، الا ترونها كيف تكون الى الشجر او الحجر؟ فما يكون الى الشمس أصيفروأخضر، وما يكون منها الى الظل يكون أبيض؟ فقالوا: يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط احدا من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: ياربنا، أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم (١٨) أبدا. (١٩)

قال مسلم: قال أبو سعيد الخدري: بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف.

(١٨) رواه مسلم رقم ١٨٣ في الايمان. انظر جامع الأصول ٤٤٦/١٠.

(١٩) شرح الغريب في هذا الحديث:

غَبَّرَ: جمع غابر، وهو الباقي، وغَبَّرَات جمع الجمع.

الحطم: الكسر والدق، أي ينكسر بعضها على بعض.

اتقاء: فعلت ذلك اتقاء أي: خوفا.

طبقة: صحيفة واحدة.

دحض: الدحض: الزلق، وهو الماء والطين.

مزلة: موضع الزلل وان لا تثبت القدم على شيء فيسقط صاحبها.

خطاطيف: الخطاطيف كالكلاليب المعقفة المعوجة.

أجاويد الخيل: الجواد: الفرس الرائع للذكر والأنثى، والجمع جياذ وأجاويد وكان أجاويد

جمع الجمع.

مخدوش: مجروح.

مكدوس: من الكدس، وهو المجتمع من الطعام، فكأن الانسان تجمع يده ورجلاه،

ويشد، ويلقى في النار.

حمما: جمع حمه، وهي الفحمة.

وذكر مسلم أيضا من حديث أبي هريرة، أن ناسا قالوا يارسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا، يارسول الله قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من [كان] يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، وذكر الحديث.

قال: ويضرب الصراط بين ظهراي جهنم، فأكون انا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ الا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان؟ قالوا: نعم يارسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم ما قدر عَظْمِهَا إلا الله، تحطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المجازي حتى ينجي، حتى اذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد ان يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد ان يرحمه، ممن يقول: لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم، إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، (٢٠) فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، وهو آخر أهل الجنة، فيقول: أي رب اصرف وجهي عن النار فانه قد قشبنى ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عسييت ان فعلت ذلك بك ان تسأل غيره؟ فيقول: لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله ان يسكت، ثم يقول: أي رب، قدمني الى باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت

(٢٠) امتحشوا: احترقوا.

عهودك وموآثيقك ان لا تسألني غير الذي أعطيتك؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فيقول: أي رب، ويدعو الله، حتى يقول له: فهل عسيت ان أعطيتك ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي ربه ما شاء من عهود وموآثيق، فيقدمه الى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: اي رب ادخلني الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى: أليس قد أعطيتَ عهودك وموآثيقك! أن لا تسأل غير ما اعطيت؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فيقول: اي رب، لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو الله حتى يضحك ٨٣/أ الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك الله تعالى منه قال: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله له: تمنه، فيسأل ربه ويتمنى، حتى ان الله ليذكره من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأمانى قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه. (٢١)

قال عطاء بن يزيد وأبوسعيد الخدري مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئاً، حتى اذا حدث أبو هريرة ان الله تعالى قال لذلك الرجل: «ومثله معه»، قال أبوسعيد: وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة، قال ابو هريرة: ما حفظت الا قوله: ذلك لك ومثله معه، قال أبوسعيد: أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: «ذلك لك وعشرة أمثاله» قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل [النار] دخولا الجنة. (٢٢)

وذكر عن عبدالله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: آخر من يدخل

(٢١) أخرجه البخاري أيضا: انظر الأصول ١٠/٤٤٠. وتأتي رواية مسلم عن عطاء بن يزيد كما سأشير في التعليق التالي إن شاء الله.

(٢٢) رواه مسلم. انظر مختصر صحيح مسلم بتحقيق الألباني رقم ٨٦. والبخاري ١١/٣٨٧ انظر جامع الأصول ١٠/٤٤٠.

شرح الغريب:

السُّعدان: نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل جانب.

امتحنوا: احترقوا. قشبي: سمني وأذاني واهلكني.

ذكاؤها: لهبها، واشتعالها وشدة وهجها.

انفهقت: انفتحت واتسعت.

الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبومرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، وقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أي رب، ادني من هذه الشجرة فلا أستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم، لعلني إن أعطيتها سألتني غيرها، [فيقول لا يارب، ويعاهده ان لا يسأله غيرها] (٢٣) وربه يعذره لأنه يرى مالا صبرله عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، ادني من هذه فلا أستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلني إن أدنيك منها تسألني غيرها، فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى مالا صبرله عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب أدني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى يارب، هذه لا أسألك غيرها، وربه عز وجل يعذره، لأنه يرى ما لا صبرله عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصيرني (٢٤) منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يارب، أتستهزىء بي وأنت رب العالمين، فضحك ابن مسعود وقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزىء بي وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزىء بك، ولكني على كل شيء قدير. (٢٥)

(٢٣) سقط من ش.

(٢٤) ما يصيرني منك: أي ما الذي يرضيك ويقطع مسألتك، وأصل التصرية: القطع والجمع، ومنه الشاة المصرة، وهي التي جمع لبنها، وقطع حلبه.

(٢٥) مسلم رقم ١٨٧ في الايمان، باب آخر أهل النار خروجاً. جامع الأصول ١٠/٥٥٦.

وعن أبي سعيد الخدري ٨٣/ب عن النبي ﷺ في هذا الحديث قال فيه :
ويذكره الله تعالى سل كذا وكذا، فإذا انقطعت به الأمانى، قال الله : هولك
وعشرة أمثاله، قال : ثم يدخل بيته، فتدخل عليه زوجته من الحور العين،
فتقولان : الحمد لله الذي أحياك لنا، وأحيانا لك، قال : فيقول : ما أعطى
أحد مثل ما أعطيت . (٢٦)

وذكر مسلم من حديث معبد بن هلال العنزي، قال : انطلقنا الى أنس
ابن مالك، وتشفعنا بثابت، فانتبهنا اليه وهو يصلي الضحى فاستأذن لنا ثابت،
فدخلنا عليه، وأجلس ثابتا معه على سريريه، فقال له : يا أبا حمزة، إن اخوانك
من أهل البصرة يسألونك ان تحدثهم حديث الشفاعة، فقال : حدثنا محمد ﷺ
قال : إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم الى بعض، فيأتون آدم،
فيقولون : اشفع لذريتك، فيقول : لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم، فإنه
خليل الله، فيأتون إبراهيم، فيقول : لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه
كليم الله، فيؤتى موسى، فيقول : لست لها، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح
الله وكلمته، فيؤتى عيسى، فيقول : لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ فأوتى
فأقول : أنا لها، ثم أنطلق فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه،
فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يهلمنيها الله، ثم أحرّله ساجدا، فيقول :
يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول :
يارب أمي أمي فيقول : انطلق، من كان في قلبه مثقال حبة من برة او شعيرة من
إيمان فأخرجه منها، فانطلق فأفعل، ثم أرجع الى ربي فأحمده بتلك المحامد،
ثم أحرّله ساجدا، فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه
واشفع تشفع، فأقول : يارب أمي أمي، فيقال لي : انطلق، فمن كان في قلبه
مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فانطلق فأفعل، ثم أعود الى ربي
فأحمده بتلك المحامد، ثم أحرّله ساجدا، فيقال لي يا محمد، ارفع رأسك وقل
يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول : يارب أمي أمي، فيقال :

(٢٦) مسلم رقم ١٨٨ في الايمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة . نفس المرجع .

انطلق، فمن كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنتلقُ فأفعل .

هذا حديث أنس الذي أنبأنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنا بظهر الجبّان، (٢٧) قلنا، لومئنا الى الحسن فسلمنا عليه وهو مُستخفٍ في دار أبي خليفة؟ قال: فدخلنا عليه فسلمنا عليه، فقلنا: يا أبا سعيد، جئنا من عند أخيك أبي حمزة، فلم نسمع بمثل حديث حَدَّثناه في الشفاعة، قال: هيه، فحدَّثناه الحديث، فقال: هيه، قلنا: ما زادنا قال: قد حدثنا به منذ عشرين سنة ٨٤/أ وهو يومئذ جميع، (٢٨) ولقد ترك شيئاً ما أدري: أنسي الشيخ، أم كره أن يحدثكم فتتكلوا؟ قلنا له: حدثنا، فضحك وقال: خُلِقَ الانسان من عَجَل، وما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه، قال: ثم أرجعُ إلى ربي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أحرَّساجدا، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يارب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: فليس ذلك لك، أو قال ليس ذلك إليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله، قال: فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك - أراه قال: قبل عشرين سنة - وهو يومئذ جميع. (٢٩)

(٢٧) الجبّان: والجبانة: المقابر.

(٢٨) جميع: رجل جميع: أي مجتمع الخلق قوي، لم يهرم ولم يضعف.

(٢٩) مسلم رقم ١٩٣ في الايمان، والبخاري ٣٩٥/١٣ في التوحيد، وفي الرقاق، باب صفة الجنة والنار، انظر جامع الأصول ٤٧٧/١٠.

فصل

ذكر من يخرج من النار برحمة الله من غير شفاعة أحد

قد تقدم حديث مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ وذكر خروج من يخرج من النار بشفاعة الملائكة والنبين وغيرهم، قال: فيقول الله عز وجل: قد شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوما، لم يعملوا خيرا قط.

وذكر الحديث.

وقوله عز وجل في الحديث قبل هذا: وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من قال: لا إله إلا الله.

وروى سنان بن حرب العبسي أنه سمع ابن عمر عن النبي ﷺ قال: اشتكت النار إلى ربها ضيقها بما فيها من أهلها، وحرها وزمهيرها^(١)، فغمزها، فقال: حس على عبادي، فأخرج منها عدد الجراد والذباب، ذكره أبو الحسن الدارقطني.

ذكر أبو بكر البزار عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: يأتي على جهنم زمان تحفق أبوابها، ليس فيها أحد - يعني من الموحيدين - هكذا رواه موقوفا من قول عبد الله بن عمرو، وليس فيه ذكر النبي ﷺ.

وروى عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز - بسم الله الرحمن الرحيم - هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية. وروى في مسند أحمد بن خالد.

(١) الزمهير: البرد الشديد.

فصل ما أول طعام أهل الجنة

ذكر البخاري من حديث أنس بن مالك، أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ [المدينة]، فاتاه يسأله عن أشياء، فقال: إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، ما أول أشراط^(١) الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟

قال: أخبرني جبريل بهن أنفا، قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة، قال: أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إليه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إليها، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، قال: يارسول الله، إن اليهود قوم بهت، فسلمهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاء اليهود ودخل عبد الله البيت فقال ﷺ: أي رجل عبد الله فيكم؟ قالوا خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال النبي ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاده الله من ذلك، فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، قالوا: شرنا وابن شرنا، ونقصوه، قال: هذا كنت أخافه يارسول الله. (٢)

(١) أشراط: علامات.

(٢) البخاري ٢٦١/٦ في الأنبياء. جامع الأصول ٣٨٢/١١.

الباب العشرون في صفة الجنة وما أعد الله لأهلها

قال الله عز وجل : ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾^(١) والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا^(٢) ﴿

﴿إن المتقين في جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ﴿
ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾^(٣) ﴿

﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾^(٤) ﴿
﴿إن المتقين في مقام أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾^(٥) ﴿

(١) آية ٢٥ من سورة البقرة .

(٢) آية ٥٧ من سورة النساء .

(٣) الآيات من ٤٥ - ٤٨ من سورة الحجر .

(٤) الآيتان ٣٤ و ٣٥ من سورة فاطر .

(٥) الآيات من ٥١ - ٥٧ من سورة الدخان .

﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيها * إلا قيلاً سلاماً سلاماً * وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * في سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة * وفرش مرفوعة * إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكاراً * عرباً أتراباً * لأصحاب اليمين﴾^(٦)

﴿إن للمتقين مفازاً * حدائق أعناباً * وكواعب أتراباً * وكأساً دهاقاً * لا يسمعون فيها لغوا ولا كذاباً * جزاءً من ربك عطاءً حساباً﴾^(٧)

﴿إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون﴾^(٨)

٨٥/أ ﴿وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونهارق مصفوفة * وزرابي مبثوثة﴾^(٩)

[وذكر أبو بكر البزار من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: خلق الله تبارك وتعالى الجنة، لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقالت الملائكة: طوبى لك منزل الملوك.

وذكر البزار أيضاً من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: خلق الله الجنة

(٦) الآيات من ١٠ - ٣٨ من سورة الواقعة.

(٧) الآيات من ٣١ - ٣٦ من سورة النبأ.

(٨) الآيات من ٢٢ - ٢٨ من سورة المطففين.

(٩) الآيات من ٨ - ١٦ من سورة الفاشية.

لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك رواه هناد بن [السري].
 وذكر الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قلت يارسول الله، مم
 خلق الله الخلق؟ قال: من الماء، قلت: والجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب،
 ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتراها
 الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا تبلى ثيابهم، ولا
 يفنى شبابهم. (١٠)

وذكر مسلم عن أبي سعيد الخدري أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن تربة
 الجنة، قال: درمكة بيضاء، مسك خالص. (١١)
 ومن حديثه قال: قال رسول الله ﷺ لابن صياد: ما تربة الجنة؟ قال:
 درمكة بيضاء يا أبا القاسم، قال صدقت.

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (١٢)

وإذا تراها المسك، فيها جناذب من لؤلؤ. والجناذب: القباب]

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: قال الله عز
 وجل: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر
 على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي
 لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ (١٣).

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله
 عز وجل: ﴿أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر
 على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين
 جزاء بما كانوا يعملون﴾ (١٣).

(١٠) الترمذي رقم ٢٥٢٨ في صفة الجنة، وفي سنده جهالة وانقطاع، ولكن له شواهد يقوى بها،
 وهو مشتمل على عدة أحاديث، ضمن أوله إلى قوله: ولا يفنى شبابهم رواه أحمد والدارمي
 وبنان حبان في صحيحه، والطبراني في الأوسط، ورواه مسلم بلفظ من يدخل الجنة ينعم ولا
 يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابهم. انظر جامع الأصول ٤٩٧/١٠.

(١١) مختصر صحيح مسلم رقم ٢٠٤٢ معناه في البياض درمكة وفي الطيب المسك، والدرمك:
 الدقيق الحواري، الخالص البياض.

(١٢) الكلام مقطوع في نسخ الأصل، ولم أعثر على بداية هذا الحديث.

(١٣) آية ١٧ من سورة السجدة.

وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم ﴿وظل ممدود﴾، وموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾^(١٤).

٨٥/ب وذكر مسلم من حديث سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، قال أبو حازم: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقى فقال، حدثني أبو سعيد الخدرى عن النبي ﷺ: إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام لا يقطعها.

وذكر البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن في الجنة لشجرة، يسير الراكب في ظلها مائة سنة، وقرؤوا إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾^(١٥)، ولقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب^(١٦).

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب ومن مسند البزار عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ إن في الجنة شجرة مستقلة على ساق واحدة، عرض ساقها اثنتان وسبعون سنة.

وذكر ابن المبارك عن سليم بن عامر، قال: كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: إنه لينفعنا الله بالأعراب ومساثلهم أقبل أعرابي يوما، فقال: يارسوب الله، لقد ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: وماهي؟ قال: السدر، فإن له شوكا مؤذيا، فقال رسول الله ﷺ: أوليس يقول الله عز وجل: ﴿في سدر مخضود﴾^(١٧) خضد

(١٤) الترمذي رقم ١٣٩٥ في التفسير، ومثله عند البخاري ومسلم ببعض اختلاف في اللفظ. جامع الأصول ٤٩٤/١٠.

والآية ١٨٥ من سورة آل عمران.

(١٥) آية ٣٠ من سورة الواقعة.

(١٦) البخاري ٢٣٢/٦ في بدء الخلق، ب اب ما جاء في صفة الجنة وفي تفسير سورة الواقعة، ومسلم رقم ٢٨٢٦ في صفة الجنة، والترمذي رقم ٢٥٢٥ في صفة الجنة جامع الأصول ٥٠٣/١٠.

(١٧) آية ٥٦ من سورة الواقعة.

الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنت ثمرًا، تفتق الثمرة منها على اثنين وسبعين لونا من الطعام، ما فيه لون يشبه الآخر. وثمرًا بالثاء المثلثة فيها كلها.

وذكر مسلم بإسناده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا. (١٨)

وذكر مسلم أيضا من حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري العابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم. قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين. (١٩)

وذكر مسلم عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا، وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أمن النساء؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسم ﷺ: إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضواء كوكب دري في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب. (٢٠)

وذكر الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: إن أول زمرة يدخلون الجنة يوم القيامة، وضوء وجوههم على مثال ضوء القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على مثل أحسن كوكب دري في السماء، لكل امرئ منهم

(١٨) مختصر صحيح مسلم رقم ١٩٦٠، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة.

(١٩) ناس المرجع رقم ١٩٦١، باب تراثي أهل الجنة أهل الغرف.

(٢٠) رواه مسلم رقم ٢٨٣٤ في الجنة. ١٠ ٥٢٦ جامع الأصول.

زوجتان، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من ورائها(٢١).

وذكر مسلم بن الحجاج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يتمخضون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة(٢٢) وأزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء.

وذكر مسلم أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة، ثم هم بعد ذلك منازل، لا يتغوطون ولا يبولون، ولا يتمخضون، ولا يبصقون، أمشاطهم الذهب، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على طول أبيهم آدم ستون ذراعا(٢٣).

ويروى على خلق.

وذكر أيضا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ٨٦/ب أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخضون، ولا يتغوطون، أنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا. (٢٤).

(٢١) الترمذي رقم ٢٥٣٧ في صفة الجنة، كما أورده المنذري منجوه في «الترغيب والترهيب» من رواية الطبراني عن عبد الله بن مسعود.

(٢٢) مسلم رقم ٢٨٣٤ في الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٢٦. ومعنى الألوة: الألتجوج: من أسماء العود الذي يتبخر به.

(٢٣) نفس الرواية السابقة والمراجع ذاتها.

(٢٤) أخرجه البخاري ومسلم. وسبق تخريجه. انظر جامع الأصول ١٠/٥٢٦.

وذكر من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، لا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتمخطون، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النفس (٢٥).

وذكر النسائي من حديث زيد بن أرقم، قال: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم، أتزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ فقال: أي والذي نفسي بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة، قال الرجل: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى، فقال النبي ﷺ: حاجة أحدهم رشح يفيض من جلده، فإذا بطنه قد ضم.

وذكر الترمذي من حديث أنس بن مالك، قال: سئل رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال: ذلك نهر أعطانيه الله، يعني في الجنة، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر، قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله ﷺ آكلها أنعم منها.

ومن مسند البزار عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: إنك لتنظر إلى الطير في الجنة، فتشتهيه، فيجيء مشويا بين يديك.

وذكر أبو بكر الشافعي من حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: يبعث أهل الجنة على صورة آدم، في ميلاد ثلاث وثلاثين سنة، جردا مردا مكحلين، ثم يذهب بهم إلى شجرة في الجنة، فيكسون منها، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم.

وذكره الترمذي (٢٦)، وحديث أبي بكر أكمل.

وذكر الترمذي أيضا عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردون بني ثلاثين في الجنة، لا يزيدون

(٢٥) مسلم رقم ٢٨٣٥ في صفة الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٢٧.

(٢٦) الترمذي رقم ٢٥٤٢ في صفة الجنة، وهو حديث حسن بشواهده. جامع الأصول

٥٢٨/١٠.

عليها أبدا، وكذا أهل النار (٢٧). كذا قال: «ثلاثين» والأول أحسن إسنادا.

٨٧/أ وذكر مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه (٢٨)

وذكر مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، ينادي مناد: إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، فذلك قوله عز وجل: ﴿ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ (٢٩)

وعن أبي بكر بن عبد الله بن قيس (٣٠) عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: إن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها [في السماء] ستون ميلا، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا. (٣١) وذكر مسلم، حدثنا أبو عبد الصمد، حدثنا أبو عمران بهذا الإسناد أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن. (٣١)

وذكر الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية إلى صنعاء (٣٢).

وذكر الترمذي من حديث علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: إن في الجنة لغرفا، يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها، فقام إليه أعرابي،

(٢٧) الترمذي رقم ٢٥٦٥ في صفة الجنة، وإسناده ضعيف.

(٢٨) مسلم رقم ٢٨٣٦ في الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٣٠.

(٢٩) أخرجه مسلم رقم ٢٨٣٧ في صفة الجنة، والترمذي رقم ٣٢٤١ في التفسير والآية ٤٣ من سورة الأعراف. جامع الأصول ١٠/٥٣١.

(٣٠) عبد الله بن قيس: هو أبو موسى الأشعري.

(٣١) رواه البخاري ٦/٢٢٩ في بدء الخلق، باب صفة الجنة، ومسلم رقم ٢٨٣٨ في صفة الجنة.

(٣٢) الترمذي: رقم ٢٥٦٥ في صفة الجنة. وإسناده ضعيف. جامع الأصول ١٠/٥٣٢.

فقال : لمن هي يارسول الله؟

قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام . (٣٣)

وعن عبدالله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾ (٣٤) .
وهذا يروى عن ابن عمر موقوفا .

وذكر الترمذي أيضا عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : لغدوة في سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت الدنيا ، ولألت ما بينها ريحا ، ونصيفها - يعني خمارها - خير من الدنيا وما فيها . (٣٥)

٨٧/ب وعن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال : لو أن ما يقل ظفرا مما في الجنة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السماوات والأرض ولو أن رجلا من أهل الجنة اطلع فبدا سواره ، لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم . (٣٦)

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : إن عليهم التيجان ، إن أدنى لؤلؤة منها تضيء ما بين المشرق والمغرب .

وذكر الترمذي أيضا عن عبدالله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة ، حتى يرى مخها ،

(٣٣) الترمذي رقم ١٩٨٥ في البر والنصلة . جامع الأصول ٩/٥٥٠ .

(٣٤) أخرجه الترمذي رقم ٢٥٥٦ في صفة الجنة ، وإسناده ضعيف . جامع الأصول ١٠/٥٣٢ .

(٣٥) أخرجه الترمذي رقم ١٦٥١ في فضائل الجهاد ، ورواه بنحوه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم . جامع الأصول ١٠/٥٠٤ ومعنى قده : سوطه .

(٣٦) أخرجه الترمذي رقم ٢٥٤١ في صفة الجنة ، ورواه أحمد في المسند ١/١٦٩ جامع الأصول ١٠/٥٠٥ .

وذلك أن الله عز وجل يقول : كأنهن الياقوت والمرجان (٣٧) . فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه (٣٨) .
ويروى هذا عن عبد الله بن مسعود من قوله .

وذكر مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، قال : قال رسول الله ﷺ :
إني لأعرف آخر أهل الجنة خروجا من النار، رجل يخرج منها زحفا، فيقال له :
انطلق فادخل الجنة، قال : فيذهب فيدخل الجنة، فيجد الناس قد أخذوا
المنازل، فيقال له : أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول : نعم، فيقال له : تمن،
فيتمنى، فيقال له : لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا، فيقول : أتسخر بي
وأنت الملك؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه (٣٩) .
وعنه (٤٠) قال : قال رسول الله ﷺ إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها،
وآخر أهل الجنة دخولها الجنة، رجل يخرج من النار حبوا، فيقول الله له : اذهب
فادخل الجنة، قال : فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول : يارب
وجدتها ملأى، فيقول الله له : اذهب فادخل الجنة، قال فيأتيها، فيخيل إليه
أنها ملأى، فيرجع فيقول : يارب وجدتها ملأى، فيقول الله له : اذهب فادخل
الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها - أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا قال :
فيقول : أتسخر بي - وأنت الملك؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يضحك حتى
بدت نواجذه، فكان يقال (٤١) : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة (٤٢)

(٣٧) آية ٥٨ من سورة الرحمن .

(٣٨) الترمذي رقم ٢٥٣٥ و ٢٥٣٦ و ٢٥٣٧ في صفة الجنة، ورواه أيضا ابن حبان في صحيحه

رقم ٢٦٣٢ «موارد» في صفة الجنة . جامع الأصول ١٠/٥٠٦ .

(٣٩) مسلم رقم ١٨٦ في الايمان، باب آخر أهل النار خروجا، جامع الأصول ١٠/٥٥٤ .

(٤٠) وعنه : أي عن عبد الله بن مسعود .

(٤١) «وكان يقال» : قائل هذه العبارة هو الراوي، كما ذكر الحافظ في الفتح، وأما قائل المقالة
المذكورة فهو النبي ﷺ .

(٤٢) أخرجه البخاري ٣٨٦/١١ في الرقاق، وفي التوحيد، ومسلم رقم ١٨٦ في الايمان كما سبق
في التعليق الثالث أنفا . جامع الأصول ١٠/٥٥٣ .

وذكر مسلم أيضا عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: سألت موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مُلْك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت ربي، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك، ولدت عينك ٨٨/أ، فيقول: رضيت رب، قال ربي فأعلاهم منزلة، قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم ترعين ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصادقه في كتاب الله عز وجل: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ (٤٣).

وذكر النسائي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع، قالوا: يارسول الله أو يطبق ذلك؟ قال: يعطى قوة مائة (٤٤).

وذكر البزار في مسنده عن أبي هريرة قال: قيل يارسول الله، أنفضي إلى نساءنا في الجنة؟ فقال: والذي نفسي بيده إن الرجل ليفضي في اليوم الواحد إلى مائة عذراء.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكارا.

وذكر الترمذي من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه، أن رجلا سألت النبي ﷺ فقال: يارسول الله، هل في الجنة من خيل؟ قال: إن الله أدخلك الجنة فلا

(٤٣) رواه مسلم رقم ١٨٩ في الايمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، والترمذي رقم ٣١٩٦ في التفسير، باب ومن سورة السجدة. جامع الأصول ٥٣٣/١٠.

(٤٤) أخرجه الترمذي رقم ٢٥٣٩ في صفة الجنة، ورواه الدارمي بإسناد صحيح انظر جامع الأصول ٥٣٠/١٠ وليس فيه أن الراوي النسائي.

(٤٥) الترمذي رقم ٢٥٤٦ في صفة الجنة. جامع الأصول ٥٠٨/١٠.

تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء، تطيربك في الجنة حيث شئت إلا كان، فقال آخر: هل في الجنة من إبل؟ فلم يقل له ما قال لصاحبه، فقال: إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتئت نفسك، ولذت عينك.

وذكر الترمذي من حديث عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها يكون العرش، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس (٤٦).

وذكر الترمذي أيضا من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام. (٤٧)

وذكر الترمذي أيضا عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: إن في الجنة مائة درجة، لو أن العالمين اجتمعوا في أحداهن لوسعتهم (٤٨).

وذكر البزار من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك، رواه هناد بن السري عن عثمان بن زفر عن زهير عن معاوية عن رجل، وهو سعد الطائي عن أبي مجاهد عن أبي المدله عن أبي هريرة، قال: قلنا يارسول الله، أخبرنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا يفنى شبابه، ولا تبلى ثيابه. وذكر مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن ابن صباد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، قال: درمكة بيضاء، ومسك خالص (٤٩).

ومن حديث أبي سعيد الخدري أيضا، قال: قال رسول الله ﷺ ٨٨/ب لابن صياد: ماتربة الجنة؟ قال: درمكة بيضاء، ومسك خالص، يا أبا القاسم، قال: صدقت (٥٠)

(٤٦) أخرجه الترمذي: رقم ٢٥٣٣ في صفة الجنة، وهو حديث صحيح. انظر جامع الأصول ٥٠٠/١٠.

(٤٧) الترمذي رقم ٢٥٣١ في صفة الجنة. وهو حديث حسن. نفس المرجع.

(٤٨) الترمذي رقم ٢٥٣٤ في صفة الجنة. وإسناده ضعيف. نفس المرجع.

(٤٩) سبق تخريجه.

(٥٠) سبق تخريجه.

وذكر النسائي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن شرب في آنية الذهب والفضة في الدنيا، لم يشرب بها في الآخرة، ثم قال رسول الله ﷺ: لباس أهل الجنة، وشراب أهل الجنة وآنية أهل الجنة (٥١).

وذكر مسلم من حديث أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال: جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن. (٥٢)

وذكر الترمذي عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد (٥٣).

ويروى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لأنهار الجنة تخرج من تلال، أو جبال مسك. ذكره العقيلي.

وذكر الترمذي من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن في الجنة لمجتمعاً للحوار العين، يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبديد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له (٥٤)

(٥١) لم أجد هذا الحديث مجتمعاً ولكن تحريم الحرير ورد بهذا اللفظ في حديث البخاري ومسلم، وتحريم الخمر ورد في حديث آخر، رواه الخمسة ومالك، انظر جامع الأصول ١٠/٦٧٩ في الأول و٩٨/٥ و١٠٠ في المشائي. أما تحريم الشرب في آنية الذهب والفضة فقد ورد في حديث آخر رواه الخمسة انظر جامع الأصول ١٠/٣٨٥.

(٥٢) مسلم رقم ١٨٠ في الايمان.

(٥٣) الترمذي رقم ٢٥٧٤ في صفة الجنة، ورواه أيضا الدارمي ٢/٣٣٧، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. جامع الأصول ١٠/٥٠٧.

(٥٤) الترمذي: رقم ٢٥٦٧ في صفة الجنة. والحوار: جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين، الشديدة سوادها. والعين: جمع عيناء، وهي الواسعة العين. جامع الأصول ١٠/٥٠٩.

وذكر البخاري عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: إن في الجنة ثمانية أبواب، منها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون^(٥٥).
وذكر الترمذي عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة، كان حمله ووضع وسنه في ساعة [واحدة] كما يشتهي.
قال إسحاق بن إبراهيم في حديث النبي ﷺ: إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة كما يشتهي، ولكن لا يشتهي.
يريد أنه لا توالد في الجنة، كما جاء عن النبي ﷺ^(٥٦).



(٥٥) أخرجه البخاري ٩٥/٤ و٩٦ في الصوم. جامع الأصول ٤٥٨/٩.
(٥٦) الترمذي رقم ٢٥٦٦ في صفة الجنة. جامع الأصول ٥٢٩/١٠.

فصل ما جاء أن أهل الجنة لا ينامون

ذكر البزار في مسنده عن جابر بن عبد الله قال: قيل: يا رسول الله، أينام أهل الجنة، قال: لا، النوم أخو الموت، زاد أبو الحسن الدارقطني: والجنة لا موت فيها، ذكره من حديث جابر أيضا.

فصل ما جاء في زيارة أهل الجنة ربهم عز وجل

ذكر الترمذي عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة، فقال أبو هريرة: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة، فقال: سعيد: أفيها سوق؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم ٩٩/أ ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة، فتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أذنابهم - وما فيهم دني - على كئبان المسك والكافور، وما يرون أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسا.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا؟ قال: نعم، هل تتأرون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟ قلنا: لا، قال: كذلك لا تتأرون في رؤية ربكم، ولا يبقى في ذلك المجلس رجل إلا حاضره الله محاضرة، حتى يقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم كذا وكذا، إذ قلت كذا وكذا؟ فيذكره

ببعض غدراته في الدنيا، فيقول: يارب، أفلم تغفر لي؟ فيقول: بلى فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه، فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمرت عليهم طيبا، لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط، ويقول ربنا: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة، فخذوا ما اشتهيتم، فنأتي سوقا قد حفت به الملائكة، فيه ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الأذان، ولم يخطر على القلوب، فيحمل لنا ما اشتهينا بغير بيع ولا شراء، وفي ذلك السوق يلقي أهل الجنة بعضهم بعضا، قال: فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة، فيلقى من هو دونه - وما فيهم دني، فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضي آخر حديثه حتى يتخيل إليه ما هو أحسن منه، وذلك أنه ليس ينبغي لأحد أن يجزن فيها، ثم نصرف إلى منازلنا، فتتلقانا أزواجنا، فيقلن: مرحبا وأهلا، لقد جئت وإن بك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه، فنقول: إنا زرنا اليوم ربنا الجبار جل جلاله، ويحق لها أن ننقلب بمثل ما انقلبنا. (١)



(١) الترمذي رقم ٢٥٥٢ في صفة الجنة، باب ما جاء في سوق الجنة، وقال الترمذي: هذا حديث غريب. جامع الأصول ١٠/٥١١.

فصل [في رؤية أهل الجنة ربهم]

ذكر الترمذي من حديث صهيب عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾^(١) قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: إن لكم عند الله موعدا، قالوا: ألم يبيض وجوهنا وينجنا من النار، ويدخلنا الجنة؟ قالوا: بلى، فيكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إلى [ربهم تبارك وتعالى].^(٢)

وذكر البزار عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم، فقال: السلام عليكم أهل الجنة، فذلك قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، لا يلتفتون إلى شي من النعيم، ويبقى نوره في ديارهم.

(١) آية ٢٦ من سورة يونس.

(٢) الترمذي رقم ٢٥٥٥ في صفة الجنة، باب إثبات رؤية المؤمنين ربهم جامع الأصول ١٠/٥٦٠ وفيه: يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم، بدل: نادى مناد: إن لكم عند الله موعدا.

فصل ما جاء أن في الجنة سوقا

ذكر مسلم من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، ويزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا (٣).

وأنشدوا:

يبرد حر أنفاس العميدِ
ويطبلع فوقه نجم السعودِ
شردن عليك أيام الشرودِ
فقد أسعفت بالأمل البعيدِ
وليس كما عهدت من المشيدِ
تريك عجائب الملك الحميدِ
كعجز الماء يذهب للصعودِ
بطيب العيش والعمر المديدِ
وإسعاد جديد في جديدِ
تلا لأ فوق مطلعها السعيدِ
فليس على رواها من مزيدِ

لمن ظل بجنات الخلودِ
يرد من الصبا ما كان غضا
ويجمع قاصيات (٤) للأمانِ
وزد ما شئت من أمل بعيدِ
لمن تلك القصور مشيداتِ
قصور ما قصور ما قصورِ
ذهبت لوصفها فعجزت عنه
لمن تلك القباب مكلماتِ
أمان من تصاريف الليالي
ملئن بكل قاصرة لعوبِ
كأن الحسن خص بها رواها

(٣) مسلم رقم ٢٨٣٣ في صفة الجنة، باب في سوق الجنة. جامع الأصول ١٠/٥٠٩.

(٤) قاصيات: بعيدات.

وتخطر من سناها في برود
ويشخص في حدود أو قدود
وتدعوني وأعرض في صدود
نزلت بهامتي تحت الصعيد
بخالقها وجهلي بالوعيد
يوفقني على الرأي السديد
سواه من طريف أو تليد^(٥)
شرعت بهن في ماء صديد
وجهلي بالمقاصد والعقود
ومنهلها شهى للورود
وتوبة حازم جلد شديد
وتنهضه بأثقال العهود
بذاك على سؤال مستزيد
كطعم المسك بالعذب البرود
ودُحرج من ذرى طود بعيد

تماشى من شذاها في رياض
يحار الطرف من نظر إليها
عجبت لها ولي تدنو وأتأى
وما هذاكمو إلا لأنى
وأعظم حسرة من ذاك جهلي
ولو أنى استضأت بنور علم
لأثرت الاله ولم ألاحظ
ولكني وردت حياض دنيا
على علم وردت بسوء رأي
فمن لي والمنى حلوجناها
بعلم مؤيد فطن لبيب
تريه البدر في ظلم الدياجي
لعل عوارف الرحمن تصفو
فتورده موارد صافيات
وإلا صب في مهوى عميق

(٥) سقط هذا البيت من زوال الطريف: المال المحدث: والتليد: القديم والموروث.

الباب الحادي والعشرون في صفة النار، وصفة أهلها، وما أعد الله لهم فيها

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نَصْلِيهِمْ نَارًا كَلِمًا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا.﴾ (١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٣)

فالذين كفروا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ * كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ.﴾ (٤).

﴿تَلْفَحُ وَجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحَونِ﴾ (٥).

﴿أُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٦).

(١) آية ٥٦ من سورة النساء.

(٢) الآيات ٤٠ - ٤١ من سورة الأعراف.

(٣) الآيات ٣٩ - ٤٠ من سورة الأنبياء.

(٤) الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة الحج.

(٥) آية ١٠٤ من سورة المؤمنون.

(٦) آية ٧٢ من سورة غافر.

﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾ * وهم يصطرحون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نُعمِّرْكم ما يتذكرفيه من تذكرو جاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴿^(٧)

﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ * كالمهل يغلي في البطن * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صُبُّوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم﴿^(٨)

﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾ * في سَموم وحميم * وظلٌّ من يَحْموم * لا باردٍ ولا كريم﴿^(٩)

﴿خذوه فغلُّوه﴾ * ثم الجحيم صلُّوه * ثم في سلسلة دَرَعُها سبعون ٩٠/أ ذراعا فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يُحِضُّ على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حميم * ولا طعامٌ إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون.﴿^(١٠)

﴿إن لدينا أنكالا وجحيميا﴾ * وطعاما ذا غُصَّةٍ وعذاباً أليماً﴿^(١١)

﴿إن جهنم كانت مرصادا﴾ * للطاغين مآبا * لا بشين فيها أحقابا * لا يذوقون فيها بَرْدًا ولا شرابا * إلا حميما وغساقا * جزاءء وفاقا * إنهم كانوا لا يُرجون حسابا * وكذَّبوا بآياتنا كِذَّابا * وكل شيء أجصيناه كتابا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴿^(١٢)

﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ * وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى نارا حامية * تسقى من عين آنية * ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغني من جوع﴿^(١٣)

(٧) الآيات ٣٦ - ٣٧ من سورة فاطر.

(٨) الآيات ٤٣ - ٤٩ من سورة الدخان.

(٨) الآيات ٤١ - ٤٤ من سورة الواقعة.

(١٠) الآيات ٣٠ - ٣٧ من سورة الحاقة.

(١١) الآيات ١٢ - ١٣ من سورة المزمل.

(١٢) الآيات ٢١ - ٣٠ من سورة النبأ.

(١٣) الآيات ١ - ٧ من سورة الغاشية.

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : لما خلق الله الجنة ، قال لجبريل : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فحفها باللكار ، فقال : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، ثم جاء فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ، قال : ولما خلق الله النار ، قال لجبريل : اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر إليها ، ثم جاء فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فحفها بالشهوات ، فقال : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، فلما رجع قال : وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها (١٤) .

وذكر مسلم من حديث سفيان عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها (١٥) .

ومن حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يارسول الله ، قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها (١٦) .

وقال سفيان بن عيينة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، ولو أنها ضربت بالماء مرتين لما كان لأحد فيها منفعة .

(١٤) الترمذي رقم ٢٥٦٣ في صفة الجنة ، وقال هذا حديث حسن صحيح . كما رواه النسائي ٣/٧ في النذور ، وزاد فيه عبارة : «وإلى ما أعددت لأهلها فيها» بالنسبة للجنة والنار ، ورواه أبو داود رقم ٤٧٤٤ في السنة باب في خلق الجنة والنار ، ورواه ابن حبان والحاكم . جامع الأصول ١٠/٥٢٠ .

(١٥) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رقم ٢٨٤٢ في صفة الجنة ، والترمذي رقم ٢٥٧٦ في صفة جهنم . جامع الأصول ١٠/٥١٩ .

(١٦) مسلم رقم ٢٨٤٣ في صفة الجنة ، باب في شدة حر نار جهنم ، والبخاري ٦/٢٣٨ في بدء الخلق ، باب صفة النار ، والترمذي رقم ٢٥٩٢ في صفة جهنم . جامع الأصول ١٠/٥١٢ .

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة (١٧).

ومن حديث مسلم عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر ٩٠/ب رمي به في النار منذ سبعين خريفا، فهو يهوي في النار الآن حتى انتهي إلى قعرها. (١٨)

ويروى أن لهب النار يرفع أهل النار، حتى يطيروا كما يطير الشرر، فإذا رفعهم أشرفوا على الجنة، وبينهم حجاب « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا، قالوا: نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين (١٩) » ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين (٢٠)، فتردهم ملائكة العذاب بمقامع الحديد إلى قعر جهنم.

قال بعض المفسرين: هو معنى قوله تعالى ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيديا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون. (٢١) ولعلك تقول: وكيف يرى أهل الجنة أهل النار؟ وأهل النار أهل الجنة؟ وبينهم ما بينهم من المسافة؟ وكيف يسمع بعضهم كلام بعض وبينهم ما بينهم من المسافة وغلظ الحجاب؟!

فيقال لك: لا تقل هذا، فإن الله تعالى يقوي أبصارهم وأسماعهم، حتى يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم بعضا، وهذا قريب في القدرة جدا، وإذا تأملته وجدته.

(١٧) الترمذي رقم ٢٥٩٤ في صفة جهنم. وإسناده ضعيف. جامع الأصول ١٠/٥١٣.

(١٨) مختصر صحيح مسلم رقم ١٩٧٧.

(١٩) آية ٤٤ من سورة الأعراف.

(٢٠) آية ٥٠ من سورة الأعراف.

(٢١) آية ٢٠ من سورة السجدة.

وذكر الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ
قرأ هذه الآية: ﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (٢٢) فقال
رسول الله ﷺ: لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل
الدنيا معاشهم، فكيف بمن يكون طعامهم؟!

ومن حديثه أيضا عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:
قال رسول الله ﷺ: لو أن رصاصة مثل هذه - وأشار إلى مثل الجمجمة -
أرسلت من السماء إلى الأرض - وهي مسيرة خمسمائة سنة - لبلغت الأرض قبل
الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار،
قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها. (٢٤)

ومن حديث قاسم بن أصبغ عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال:
لو أن دلوا من [غساق] يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا. (٢٥)
وبهذا الإسناد عن رسول الله ﷺ أنه قال: ويل واد في جهنم يهوي فيه
الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره. (٢٦)
والصعود جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفا، ثم يهوي كذلك أبدا.
قال قاسم بن أصبغ: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: لو أن مقمعا من
حديد وضع على الأرض، فاجتمع الثقلان ما أقلوه من الأرض.
وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: لو ضرب بمقمع من حديد الجبل
لقتت فصار غبارا.

(٢٢) آية ١٠٢ آل عمران.

(٢٣) الترمذي رقم ٢٥٨٨ في صفة جهنم، وقال: هذا حديث حسن صحيح. جامع الأصول
٥١٦/١٠.

(٢٤) الترمذي رقم ٢٥٩١ في صفة جهنم، باب رقم ٦، قال الترمذي: هذا إسناد صحيح.
جامع الأصول ٥١٤/١٠.

(٢٥) الترمذي رقم ٢٥٨٧ في صفة جهنم، وإسناده ضعيف، جامع الأصول ٥١٧/١٠.

(٢٦) الترمذي رقم ٣١٦٤ في التفسير، باب ومن سورة الأنبياء، وإسناده ضعيف. جامع الأصول
٥١٦/١٠.

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يخرج عُنتُ من الناريوم القيامة، له عينان تبصران، وأذنان تسمعان ولسان ينطق، يقول: إني وكلت ٩١/أ بثلاثة: بمن جعل مع الله إلهًا آخر، وبكل جبار عنيد، وبالمصورين (٢٧).

وذكر الترمذي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله [تعالى]: ﴿وَسُقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ (٢٨) قال: يقرب إلى فيه، فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، حتى يخرج من دبره، يقول الله عز وجل: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (٢٩) ويقول: ﴿وَأَن يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣٠).

وذكر من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن الحميم ليصب على رؤوسهم، فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه، حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان.

وذكر مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخابني كعب يجر قصبه في النار (٣١). وقد تقدم. والقصب: الأمعاء.

ومن حديث مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل الناريوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال

(٢٧) رواه الترمذي رقم ٢٥٧٧ في صفة جهنم، باب ما جاء في صفة النار قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. جامع الأصول ١٠/٥١٨.

(٢٨) الآيتان ١٦ - ١٧ من سورة إبراهيم.

(٢٩) آية ١٥ من سورة محمد.

(٣٠) آية ٢٩ من سورة الكهف. وهذا الحديث رواه الترمذي رقم ٢٥٨٦ في أبواب صفة جهنم عن أبي أمامة الباهلي وليس عن أبي سعيد الخدري انظر جامع الأصول ١٠/٢٠١.

(٣١) مسلم رقم ٢٨٥٦ جامع الأصول ٢/١٢٧.

له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قط؟ هل مريك شدة قط؟ فيقول: لا والله يارب، ما مربي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط. (٣٢).

وذكر البزار في مسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لو كان في المسجد مائة ألف أويديدون، ثم تنفس رجل من أهل النار لأحرقهم. ومن حديث مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ضرس الكافر - أوناب الكافر - مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث. (٣٣).

وذكر مسلم أيضا من حديث أبي هريرة يرفعه، قال: ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع (٣٣).

وذكر الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه في جهنم كما بين مكة والمدينة. (٣٣)

وروى الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: يلقي على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون، فيغاثون بطعام من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع ٩١/ب فيستغيثون بالطعام، فيغاثون بطعام ذي غصة، فيتذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب، فيدفع إليهم الحميم بكلايب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم عساهم يخففون عنا فيقولون لهم: أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى، قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (٣٤) فيقولون ادعوا مالكا، فيقولون: ﴿يا مالكا ليقض علينا ربك﴾ فيجيبهم ﴿إنكم ما كنون﴾ (٣٥).

(٣٢) مسلم رقم ٢٨٠٧ في المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار جامع الأصول ٥٩٠/١٠.

(٣٣) مسلم رقم ٢٥٨١ والترمذي رقم ٢٥٨٠ و ٢٥٨١ و ٢٥٨٢ في صفة جهنم. جامع الأصول ٥٤١/١٠.

(٣٤) آية ٥٠ من سورة غافر.

(٣٥) آية ٧٧ من سورة الزخرف.

قال سليمان بن مهران الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وإجابة مالك لهم مقدار ألف عام ، قال : فيقولون : ادعوا ربكم ، فلا أحد خير منه ، فيقولون : ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ (٣٦) .

قال : فيجيبهم : ﴿احسبوا فيها ولا تكلمون﴾ (٣٧) فعند ذلك يشوا من كل خير ، وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والويل (٣٨) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين ، يتوطؤه الناس (٣٩) .

ويروى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتبكوا ، فإن أهل النار يكون في النار الدموع حتى تنقطع ، ثم يكون الدماء حتى تصير الدماء في خدودهم كأمثال الجداول ، ولو أجريت فيها السفن لجزت . ذكره الترمذي وغيره .

وذكر مسلم عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : يقول الله عز وجل : لأهون أهل النار عذابا : لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتديا بها؟ فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، أن لا تشرك ، أحسبه قال : ولا أدخلك النار ، فأبيت إلا الشرك .

وذكر البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال : يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة : لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول : نعم ، فيقول قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئا ، فأبيت إلا الشرك (٤٠) .

(٣٦) الآيتان ١٠٦ - ١٠٧ من سورة المؤمنون .

(٣٧) آية ١٠٨ من سورة المؤمنون .

(٣٨) الترمذي رقم ٢٥٨٩ في صفة جهنم . وإسناده ضعيف مرفوعا وموقوفا جامع الأصول ٥٤٠/١٠ .

(٣٩) الترمذي رقم ٢٥٨٣ في صفة جهنم . جامع الأصول ٥٤٢/١٠ .

(٤٠) البخاري ٣٦٧/١١ في الرقاق ، ومسلم رقم ٢٨٠٥ في المنافقين . جامع الأصول ٥٩١/١٠ .

ويروى من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إن جهنم لما سيق إليها أهلها
تلقتهم بعنف ، فلفحتهم لفحة لم تترك لحماً على عظم إلا ألقته على العرقوب .

* * *

فصل ذكر أهون أهل النار عذابا

ذكر مسلم عن العباس بن عبدالمطلب أنه قال: يارسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار^(١).

وذكر مسلم أيضا من حديث عبد الله بن الحارث، قال: سمعت العباس يقول: ٩٢/أ قلت: يارسول الله، إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل نفعه ذلك؟ قال: نعم وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح^(١).

وذكر مسلم عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي الرجل، ما يرى أن أحدا أشد عذابا منه، وإنه لأهونهم عذابا. وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبوطالب، فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه^(٢).

(١) البخاري ١٤٨/٧ في فضائل الصحابة وفي الأدب وفي الرقاق ومسلم رقم ٢٠٩ في الأيمان. جامع الأصول ٢٣٩/٩.

(٢) البخاري ١٤٩/٧ في فضائل الصحابة، وفي الرقاق، ومسلم رقم ٢١٠ في الأيمان. جامع الأصول ٢٣٨/٩.

وذكر مسلم أيضا من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: أهون أهل النار عذابا أبو طالب، وهو متعل بنعلين من نار، يغلي منها دماغه (٣).
وذكر مسلم أيضا من حديث النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان، يغلي منها دماغه (٤).

(٣) مسلم رقم ٢١٢ في الايمان. جامع الأصول ٩/٢٣٨.
(٤) مسلم رقم ٢١٣ في الايمان، والبخاري ١١/٣٧٢ في الرقاق. والترمذي رقم ٢٦٠٧ في صفة جهنم.

فصل ذكر من أشد الناس عذابا

ذكر قاسم بن أصبغ من حديث عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة رجل قتل نبيا، أو قتله نبي، أو مصور يصور التماثيل^(١).

(١) رواه البخاري ٣٢١/١٠ و٣٢٢ ومسلم رقم ١٢٠٩ في اللباس. والنسائي ٢١٦/٨ جامع الأصول ٨٠٠/٤.

فصل أخذ النار المعذنين على قدر أعمالهم

ذكر مسلم من حديث سمرة بن جندب أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى عنقه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه إلى ترقوته.

وذكر البزار من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: إن أهون أهل النار عذاباً رجل منتعل بنعلين من نار، يغلي منها دماغه^(١).

(١) سبق تخريجه.

الباب الثاني والعشرون ذكر الخلود

ذكر الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد، ثم يطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا ليتبع كل إنسان ما كان يعبد، فيتمثل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون، فيطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا تتبعون الناس، فيقولون: نعوذ بالله منك، الله ربنا، هذا مكاننا حتى نرى ربنا، وهو يأمرهم ويشتمهم، قالوا: وهل نراه يا رسول الله؟ قال: وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا، يا رسول الله، قال: فإنكم لا تضارون في رؤيته ٩٢/ب تلك الساعة، ثم يتواري، ثم يطلع فيعرفهم نفسه، ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني، فيقوم المسلمون، ويوضع الصراط، فيمر عليه مثل جياذ الخيل والركاب، وقولهم عليه: سلّم سلّم، ويبقى أهل النار، فيطرح منهم فيها فوج، ثم يقال لها: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد، حتى إذا أوعبوا فيها وضع الرحمن قدمه فيها، وأزوى بعضها إلى بعض، ثم قال: قط، قط، قالت: قط، قط، فإذا أدخل الله أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتى بالموت مُلَبِّباً، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة، فيظلمون خائفين، ثم يقال يا أهل النار، فيظلمون مستبشرين، يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقولون، هؤلاء وهؤلاء قد عرفناه، هو الموت الذي وكل بنا، فيضجع فيذبح ذبحا على السور، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت.

وذكر هناد بن السري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط، فيقال يا أهل الجنة، فيطلعون خائفين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، ثم يقال: يا أهل النار، فيطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم ربنا هذا الموت، فيؤمر به فيذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين كلاهما: خلود فيما تجدون، لا موت فيها أبدا.

وذكر مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح^(٢)، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا: فيشرئبون^(٣) وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت، ثم يقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وأُنذِرهم يوم الحسرة إذا قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ وأشار بيده إلى الدنيا^(٤).
وذكر مسلم من حديث نافع أن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: يدخل الله أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار، ثم يقوم مؤذنا بينهم، فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار، لا موت، كل خالد فيما هو فيه.

وذكر أيضا من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وصار أهل النار إلى النار، أتى بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة، لا موت، ويا أهل النار، لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم.
وذكر الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري، رفعه قال: إذا كان يوم

(٢) أملح: أسود يعلو شعره بياض.

(٣) يشرئبون: يمدون أعناقهم.

(٤) مسلم رقم ٢٨٤٩ في الجنة. والبخاري ٣٢٥/٨ في تفسير سورة مريم والترمذي رقم ٢٥٦١

في الجنة. جامع الأصول ٤٩٢/١٠.

القيامة أتى بالموت كالكبش الأملح ، فيوقف بين الجنة والنار، فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحدا مات فرح مات أهل الجنة ٩٣/أ، ولو أن أحدا مات حزنا مات أهل النار.

وذكر البزار من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من كتب عليه الخلود لم يخرج منها. يعني من النار.

وأنشدوا:

وعن مقاساة ما يلقون في النار
خوفا من النار قد ذابت على النار
فيسحبون بها سحباً على النار
وفي الفرار ولا فرار في النار
إليهم خلقت من خالص النار
عن التنفس من حرارة النار
من العذاب ومن غلي على النار
من ارتقاء جبال النار في النار
صبوا بعنف إلى أسافل النار
ماء صديد ولا تسويغ في النار
ترمي بأمعائهم رمياً على النار
بش الشراب شراب ساكني النار
ولا منام لأهل النار في النار
أويستغيثوا فلا غياث في النار
بمقمع النار مدحوراً إلى النار
وهم من النار يهرعون للنار
ولا تفتّر عنهم سورة النار
من ذي الحجى ومن التخليد في النار
في النار هوّن ذاكم لفحة النار
في الفرقتين من الجنات والنار

أما سمعت بأهل النار في النار
أما سمعت بأكباد لهم صدعت
أما سمعت بأغلال تناط بهم
أما سمعت بضيق في مجالسهم
أما سمعت بحيات تدب بها
أما سمعت بأنفاس لهم حبست
أما سمعت بأجساد لهم نضجت
أما سمعت بما يكلفون به
حتى إذا ما علوا على شواهدها
أما سمعت بزقوم يُسوّغه
يسقون منه كئوساً ملئت سقماً
يشوي الوجوه وجوها ألّبت ظمماً
ولا ينامون إن طاف المنام بهم
إن يستقيلوا فلا تقال عثرتهم
وإن أرادوا خروجاً رُدّ خارجهم
فهم إل النار مدفوعون بالنار
ما أن يخفف عنهم من عذابهم
فهذه صدعت أكباد سامعها
ولو يكون إلى وقت عذابهم
فيا إلهي ومن أحكامه سبقت

رحمك يارب في ضعفي وفي ضعتي
ولا على حر شمس إن برزت لها
فإن تغمدني عفو وثقت به
فما وجودك لي صبر على النار
فكيف أصبر يا مولاي للنار
منكم وإلا فإني طعمة النار

ونحن نستعيد بالله من عذابه الذي لا يقوم له جميع الوجود، فكيف الحشرات منه والدود، ومن غضبه الذي لا يستطيع ذكره ولا يقدر قدره، ونسأله رحمته التي ننقلب منها بأفعالنا، وتتباعدها عنها بقبائح أعمالنا، بمنه وطوله، لا رب غيره، ولا معبود سواه، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

جاء في آخر نسخة اليمن الجنوبية ما نصه :
كامل كتاب العاقبة للإمام العلامة عبدالحق الأزدي المالكي الأندلسي بحمد الله
وحسن عونه ، وتوفيقه .
ووافق الفراغ منه في ثاني شهر ربيع الآخر من شهور سنة ست وعشرين
وثمانمائة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ووارثيه وحزبه ومن تبعه
إلى يوم الدين ، وسلم .

تتميم كتابة هذا الكتاب المسمى كتاب العاقبة بقلم السيد العلامة محمد
بن عبدالرحم الزواوي ، وجله ماعدا المرقع بقلم سيدنا الشيخ الكبير محمد بن
الشيخ عبدالرحمن السقاف ، نفع الله بهم .
وجاء في آخر نسخة شستريتي ما نصه :

تم كتاب العاقبة ، بحمد الله تعالى وفضله ، وعونه وتوفيقه ومنه ، بتاريخ سلخ
ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة .

حسبنا الله ونعم الوكيل ، والحمد لله رب العالمين

وجاء في آخر نسخة المكتبة الأزهرية ما نصه :

تم كتاب العاقبة بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه على يد كاتبه
العبد المفتقر إلى رحمة ربه العلي أحمد بن علوي بن حمزة الحنبلي . . . ووافق
الفراغ منه في ليلة أسفر صباحها عن ثامن عشر رجب الفرد سنة خمس عشرة
وثمانمائة .



الفهرس

٢	مقدمة التحقيق
٥	ترجمة المؤلف
٦	كتبه
٧	كتاب العاقبة
٨	مخطوطات الكتاب
١٠	عملي في التحقيق
١١	مصورات المخطوطات
٢٣	مقدمة المؤلف عن الموت
١٣٩	الباب الأول : من أخبار بعض الأموات
١٤٣	الباب الثاني : ما يستحب من أحوال الميت
١٥٠	الباب الثالث : في الجنائز
١٥٧	الباب الرابع : في الثناء الحسن على الميت
١٦٣	الباب الخامس : ما يقال عند حضور الميت
١٧١	الباب السادس : ما يحذر من سوء الخاتمة
١٨٢	الباب السابع : تلقين الميت بعد الدفن
١٨٦	الباب الثامن : ذكر القبور
٢١١	الباب التاسع : زيارة القبور
٢٢١	الباب العاشر : منامات لبعض الصالحين
٢٣٢	الباب الحادي عشر : منامات تدل على سوء الحال
٢٣٥	الباب الثاني عشر : الأرواح وأين يذهب بها وعذاب القبر
٢٤٩	الباب الثالث عشر : يوم القيامة وأهواله
٢٥٢	الباب الرابع عشر : النفخ في الصور
٢٦٣	الباب الخامس عشر : انبعاث الناس من قبورهم

٢٨١	فصل : طول يوم القيامة
٢٨٦	الباب السادس عشر : ذكر الحوض
٢٩٢	الباب السابع عشر : الشفاعة الأولى
٢٩٥	الباب الثامن عشر : المسألة والتقدير
٣٠٥	فصل : أول ما يحكم فيه يوم القيامة
٣٠٨	فصل : الموازين والكتب
٣١١	فصل : ما يتكلم من الإنسان وشهادة الجوارح
٣١٣	فصل : الصراط ودرجات الناس في المرور
٣١٦	فصل : بعث النار
٣١٧	فصل : أهل الفترة
٣١٨	فصل : سعة رحمة الله
٣٢١	فصل : كثرة أمة محمد
٣٢٢	فصل : كم يدخل الجنة بغير حساب
٣٢٦	الباب التاسع عشر : الشفاعة الثانية
٣٣٩	فصل : من يخرج من النار
٣٤٠	فصل : أول طعام أهل الجنة
٣٤١	الباب العشرون : صفة الجنة وما أعد الله لأهلها
٣٥٥	فصل : أهل الجنة لا ينامون
٣٥٥	فصل : زيارة أهل الجنة ربه
٣٥٧	فصل : رؤية أهل الجنة ربه
٣٥٨	فصل : في الجنة سوق
٣٦٠	الباب الحادي والعشرون : في صفة النار وما أعد الله لأهلها
٣٦٩	فصل : أهون أهل النار عذاباً
٣٧١	فصل : أشد الناس عذاباً
٣٧٢	فصل : أخذ النار المعذبين بقدر أعمالهم
٣٧٣	الباب الثاني والعشرون : ذكر الخلود

المراجع

أبو حامد محمد بن محمد الغزالي	إحياء علوم الدين	١
أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني	الإصابة في تمييز الصحابة	٢
خير الدين الزركلي	الأعلام	٣
محمد بن أحمد بن رشد	بداية المجتهد	٤
أحمد بن عميرة الضبي	بغية الملمتس	٥
كارل بروكلمان	تاريخ الأدب العربي	٦
جلال الدين السيوطي	تاريخ الخلفاء	٧
محمد بن أحمد القرطبي	التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة	٨
أبو عبدالله شمس الدين الذهبي	تذكرة الحفاظ	٩
عبدالواحد المراكشي	تكلمة الصلة	١٠
محيي الدين النووي	تهذيب الأسماء واللغات	١١
محمد بن أحمد القرطبي	الجامع لأحكام القرآن	١٢
محمد بن الأثير الجزري	جامع الأصول	١٣
ابراهيم بن فرحون	الديباج المذهب	١٤
محمد بن اسماعيل الصنعاني	سبل السلام	١٥
سليمان بن الأشعث	سنن أبي داود	١٦
محمد بن عيسى الترمذي	سنن الترمذي	١٧
أحمد بن شعيب	سنن النسائي	١٨
أبو عبدالله شمس الدين الذهبي	سير النبلاء	١٩
ابن العماد الحنبلي	شذرات الذهب	٢٠
محمد بن اسماعيل البخاري	صحيح البخاري	٢١

مسلم بن الحجاج النيسابوري	صحيح مسلم	٢٢
أبو عبدالله الذهبي	العبر	٢٣
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني	فتح الباري	٢٤
ابن شاکر الکتبي	فوات الوفيات	٢٥
مجدالدين الفيروز آبادي	القاموس المحيط	٢٦
حاجي خليفة	كشف الظنون	٢٧
محمد بن مكرم بن منظور	لسان العرب	٢٨
محمد بن أبي بكر الرازي	مختار الصحاح	٢٩
عبدالله الياضي	مرآة الجنان	٣٠
ابن أبي شيبة	مسند ابن أبي شيبة	٣١
البيزار	مسند البيزار	٣٢
ونسك ولجنة من المستشرقين	المعجم المفهرس للحديث النبوي	٣٣
عمر رضا كحالة	معجم المؤلفين	٣٤
ابن قنفذ	الوفيات	٣٥